



المركز القومي للترجمة

بينديتا تشيرارايو

# أحمر قرمزي

ترجمة

نيرمين وجيه حكيم

2437



سلسلة  
الإبداع  
القصصي



لتحميل زاد المعرفة ونتاج  
عظماء وقادة الفكر  
وميراث الأدب العالمي والعربي  
انقر على الرابط التالي

[HTTP://ARABICBOOKS.ORG/](http://ARABICBOOKS.ORG/)



**أحمر قرمزی**

**(روایة)**

المركز القومي للترجمة  
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور  
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى  
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2437
- أحمر قرمى
- بينديتا تشيراريو
- نرمين وجيه حكيم
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

ROSSOVERMIGLIO

Benedetta Cibrario

Copyright © Giangiacomo Feltrinelli Editore Milano 2008

Arabic Translation © 2014, National Center for Translation

All Rights Reserved

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

# أحمد قرمزی

(روایة)

تألیف : بیندیتا تشیراریو

ترجمة : نرمن وجیه حکیم



2014

بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

تشيبراريو، بينديتا.  
أحمر قرمزي / تأليف: بينديتا تشيبراريو؛ ترجمة: نرمين  
وجيه حكيم.  
ط ١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤  
٣٨٨ ص؛ ٢٠ سم  
١ - القصص الإيطالية.  
(أ) حكيم؛ نرمين وجيه (مترجم)  
(ب) العنوان  
٨٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٣/٩٣٢١  
الترقيم الدولي 8-346-718-977-978  
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

## المحتويات

7	إهداء .....
11	١ - ١٩٢٨ .....
61	٢ - المحمية .....
99	٣ - الخصر النحيل .....
137	٤ - تحولات .....
159	٥ - فترة ما بعد الحرب .....
217	٦ - كل شيء كسابق عهده .....
261	٧ - الحفل .....
279	٨ - رؤى وإعلانات .....
325	٩ - أحمر قرمزي .....
381	الشكر .....



## إهداء

### إلى والدى

وكان هو موجوداً، غير مرئى - هذا ما عرفته بعد ذلك - كان فى ظل قمة شجرة الصنار فى البرد، وكان يرى النوافذ مليئة بالنور، والحجرات الشهيرة مجهزة ومعدة لإقامة حفل، والمدعوون بالشعر المستعار يرقصون. ما طبيعة الأفكار التى كانت تمر بذهنه؟ أكان يتحسر ولو قليلاً على حياتنا؟ هل كان يفكر فى مدى صغر تلك الخطوة التى كانت تفصله عن العودة إلى عالمنا، مدى صغرها ومدى سهولتها؟ لا أدرى فيم كان يفكر وماذا كان يرغب، هناك.

لست أعلم إلا أنه بقى طوال مدة الحفل وأيضاً بعد انتهائه، إلى أن انطفأت الشمعدانات واحداً واحداً ولم تبق نافذة واحدة مضيئة.

إيتالو كالفينو، "البارون المعلق"

"اطمئنا، أيها الملك وأيتها الملكة، إن ابنتكما لن تموت".

شارلز بيروو، "الجميلة النائمة فى الغابة".



إن الشخصيات التي تظهر في هذه الرواية هي من نسيج الخيال،  
وكل إشارة إلى أحداث أو أشخاص واقعيين هو محض صدفة.



- 1 -

1958



أعلم اليوم أن هناك جمالاً وجمالاً؛ ويصدق هذا على الأشخاص وعلى الأماكن أيضاً. لا توجد هنا صحارى موشاة بالرياح أو جبال تطل على البحيرات؛ لا توجد خلجان تحتضن البحر أو جزر فى الأفق على مرمى البصر، هناك فقط صف ساكن من أشجار الكروم المصطفة فى انتظام، وسلسلة من المنخفضات والمرتفعات؛ وهناك من يسمع موسيقى تمتزج برائحة الغابة بعد سقوط المطر. من يفلح الأرض، يتظاهر بعدم رؤية هذا الجمال؛ إذ يبدو له أنه من شيم الكسالى التوقف لمشاهدة الوادى حينما يغمره الظل أو تتسرب الشمس فترسم درباً فى الغابة. ليس هذا من قبيل الازدراء أو الاستخفاف، ولكن ما هى إلا عادة.

فالأرض هى الأرض، والغابة هى الغابة، وحقل الكروم هو حقل الكروم. ولا أحد يضيع وقته ليتذكر متى شُيد برج سان بياجو ومن الذى شيده، هذا البرج الذى بُنى بالكامل فى اتجاه الشمال، ويغطيه نبات المسك الذى يتغلغل صخوره. البعض يطلق عليه برج المراقبة، على الرغم

من أنه، من على قمة البرج، لا يرى أى شىء على الإطلاق بفعل الضباب الدائم. ودائماً ما كنت أفكر بداخلى أنه كان ينبغى بالأحرى تسميته برج "الانتقام". أقصد انتقاماً لطيفاً؛ ولعل لفظ "الانتقام" ليس هو باللفظ الصحيح، إنما ينبغى أن نقول "النكاية والغيظ"، ليس فقط، فيما يخصنى أنا فقط وإنما فيما يخص كل الذين ولدوا وماتوا فى هذه البلدة على مر السنين، والذين انتزعوا من الغاية متراً تلو الآخر من التربة، والذين حفروا بالمعزقة فأنزلوا حصى قطعة أرض تلو الأخرى، وهم يحاولون ألا ينظروا إلى هذه الغابات الوعرة التى تمتد على مرمى البصر بلا نهاية كأموج البحر.

عند العودة من إحدى الرحلات إلى مدينة "سيينا" أو إلى "سان جيمينيانو"، فيبدأ الطريق فى الانحدار نحو "سان بياجو" بعد منحنيات "كيانتيجانا" المعتدلة، قد يفكر المرء فى أنه لابد وأن يكون بعض البؤساء هم أول من وضعوا أساس هذه البلدة؛ وعلى بُعد عشرات الكيلومترات، أعدت الطبيعة للعين بانوراما من المناظر الجميلة الخلابة التى تأخذ بالألباب. أما هنا على العكس، يتهياً للمرء أنه فى بعض أيام الشتاء والخريف لا تشرق الشمس بأشعتها الدافئة أو أن المطر لم يعد يغمر المكان وإنما تنزل قطراته بلا جدوى، فتحفر آثاراً خفيفة متشابكة فى التربة الطينية.

إنه تنظيم غير اعتيادي بالنسبة لبلدة تعود إلى العصور الوسطى، ومن المبالغ فيه تسميتها بالبلدة، لدرجة أنه بعد اجتياز التل، يحيط بها منظر رائع من حقول الكروم وأشجار الزيتون. تتشابك الأساطير بشأن نشأة البلدة، وتختلط وكأنه ليس هناك ما يستحق أن نحكيه، فهناك أسطورة تقول إنها نشأت كمنزل ريفي، أو إنه في القرن السابع عشر كانت تُعقد بها اجتماعات السحرة الليلية، ويؤكد صحة هذا الافتراض ذلك الضباب الشتوي الذي يرمى على الطبيعة مسحة شيطانية، خاصة إن لم تأت أيام الربيع الرائعة التي يسبق قدومها انفراجة السماء الغائمة في نهاية شهر مارس، فتجلب معها أضواءً وألواناً وروائح عطرة وأصواتاً بالتأكيد لا تمت للسحر المظلم بأية صلة.

يقال أيضاً إن هذه المجموعة الصغيرة من البيوت، المجتمعة حول الكنيسة والبرج، كانت تتوارث حتى أصبحت جزءاً من تراث أبرشية ثرية تابعة للشمال، وكان لزاماً على المستأجرين أن يدفعوا لها ضرائب عالية جداً أدت شيئاً فشيئاً إلى بلوغهم حد الفقر المدقع مما حولهم إلى لصوص وقطاع طرق؛ ويقولون أيضاً إن سكان البلدة هجروها وقد تحولت إلى أنقاض وأطلال إلى أن امتلكها أحد أفراد عائلة كيجي وضمها إلى حقوله وأراضيه الخاصة وبنى بها منزلاً سيدياً، بعد أن ألحق به البرج وهدم حوائط وجدراناً وأحدث ثقوباً في مخازن حفظ النبيذ وأعاد بناء الأسقف.

تأخذ الحيرة كل من يصل إلى هنا، من جهة الأرض المرلومة وبعد عبوره البوابة الحديدية، فإنه يرى فناً من الأرض الممهدة، يحيط بها سور من الأربع جهات وكأنها حصن منيع، والسور ملء بالثغرات والقرب، وبالسلام والنوافذ التي تبدو وكأنها مفتوحة عشوائياً.

لا يساوى البيت وحده الشئ الكثير، وتبلغ مساحة الأرض مائتي هكتار من الغابات الكثيفة الصالحة لصيد الحيوانات فقط.

وقد اجتث كيجى الغابة، وباع الأخشاب وحرقت الأشجار الكثيفة، فحصل بذلك على منحدرات يمكن أن يستغلها كأراض زراعية؛ ثم بعد ذلك اشترى أرضاً أخرى وغرس بها أشجار زيتون، وأحاط حدود أراضيه بصف من أشجار السرو؛ حتى يعرف الجميع أن تلك هى أراضيه حتى من على مسافة بعيدة. ويقولون إنه هو الذى دشنها بهذا الاسم؛ "المحمية" ومنذ ذلك الحين، تناقلت أعصان التاريخ هذه الأرض الزراعية الشاسعة من أسرة إلى أسرة وكأنها ورقة شجر فى فصل الخريف. هذه حقيقة نتعلمها ونعيها جيداً عبر السنين؛ وهى أن الأشياء، مثلها مثل البشر، ينتهى بها الحال دائماً إلى أن تحملها الصدفة؛ فأنا لم أُولد بها، ولم يصحبنى أحد إلى هناك. كان باستطاعة الحياة أن تحملنى إلى مكان آخر. ولكننى على العكس مكثت هنا.

فى كل مرة يأتى فيها المسئول عن الشحن ليحمل صناديق النبيذ، يعود إلى ذهنى كيف بدأت هذه القصة. لم أعد أعلم كم مضى من الوقت. يراجع دينو، مستأجر المزرعة، الصناديق الكرتون وهو يضرب بقدمه فى عصبية ويقول إنها مسألة تشننج عضلى، ولكننى أعلم أن هذا يرجع إلى سبب آخر. كل ما فى الأمر أنه يأسف لرحيلى. تصلنا منذ بضع سنوات جوائز تقدير وإعجاب، ويقولون لنا إن نبيذ "لونيديتى" نبيذ أحمر ممتاز، يتحدث عن نفسه، وإن النبيذ "روسوفيرميليو" لنبيذ مذهل ورائع حتى اسمه بديع. ولقد وصلت الشهرة التى اكتسبتها العلامة الخاصة بنا إلى أماكن بعيدة. وتشتري أفضل المطاعم الأوروبية والأمريكية صناديق قليلة من نبيذ "روسوفيرميليو" وبأسعار عالية. يخطب هواة جمع زجاجات النبيذ ودنا لشهور عديدة من أجل نصف دسنة زجاجات. وتصلنا تقارير مدح وإطراء تثير الحماس، ويثنى علينا أفضل خبراء صناعة النبيذ وأكثر النقاد قسوة. أنا نفسى أجد مشقة فى فهم أسباب نجاحنا، فنحن شركة إدارتها شبه أسرية وبها عمال قليلون شقت طريقها عاماً بعد عام، فى هدوء وبموارد قليلة.

ونحن اليوم نحقق مكاسب جيدة. ترتفع قيمة الأرض الزراعية موسماً بعد الآخر ودائماً ما نتلقى عروضاً مغرية وكريمة. غير أننى

عجوز وأعيش هنا منذ عمر طويل، ولا أحد يبيع عمره، يبتسم دينو ويرفع كتفيه زهواً. وهو محق حينما يقول «يحتاج النبيذ إلى الشمس والحرارة اللازمة لزراعة العنب، كما يحتاج إلى الظلام والجو البارد اللازم لعمل النبيذ، وهنا في الأرض "المحمية" نضفى عليه أيضاً سر الصنعة». لا نسمح لأحد بزيارة مخازن حفظ النبيذ الخاصة بنا، ولا نبيع للجمهور بشكل مباشر. وعندما يصل أحد السائحين الفضوليين، يصرفه دينو ببساطة وبلا أى إكرام، ويتكفل بالباقي نباح الكلاب الغاضبة بشدة من وجود غرباء. فليذهبوا لزيارة أراضى الـ "سينيزى" الواسعة التى تقع على بعد مسافة قليلة، وأراضى "كامبو اللى كاتشى"، و"سان چوستو" و"سان سينستو"، بما فيها من ممرات تصطف على جانبيها أشجار السرو والبيوت الضخمة المبنية من حجارة فاتحة اللون؛ حيث كانت الحياة تدور، ولا تزال تدور فى اعتقادى، حول موضوعين فقط، وهما هل العام القادم سيكون جيداً لعمل نبيذ "كيانتى" وللصيد، حتى هناك لم يتغير أى شىء على الإطلاق؛ فإيطاليا تكونت ثم أعيد تكوينها، فبعد الدوقات العظماء جاعتنا عائلة "ساقوى" ثم الجمهورية، وفى أثناء ذلك، الحروب والجوع، ومع هذا فالصيد والنبيذ ليسا بالأشياء التى تُنسى هنا. إنه درس محفور فى قلبى لا يُمحي.

فى الأعوام الأخيرة، كانت أمى، وقد أصبحت الآن تتذكر القليل حتى مما كانت تفعله أثناء يومها، تنتقل من غرفة إلى أخرى وهى تطلق صيحات صغيرة تنم عن فرح ودهشة وكأنها زائرة فى بيت الآخرين. لم تكن تتعرف على أى شىء مطلقاً، كما أنها نسيت أحداث حربين ونسيت أخى إنريكو الذى اضمحل فى الهواء، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره، إثر طلقة بندقية انفجرت فيه بطريق الخطأ. وقتها كانت تتحدث الإنجليزية فقط وبذلك النبرة المتقنة التى لا تتحدث بها سوى بنات اللوردات وبطلات شكسبير الشهيرات فى الطرف الغربى.

كما إننى أتذكرها هكذا، جسم أحذب يلفه شال مطرز، دائماً ما تأخذ من السلة التفاحة العطية، فهى أول من يقدم لها الخادم السلة ولذا فهى التى عليها أن تقدم هذه التضحية الصغيرة.

كنا فاحشى الثراء؛ إذ كان والد جدتنا قد هاجر إلى أمريكا الجنوبية، حيث كون ثروة من خلال العمل فى مناجم الفضة أو فى فضلات طيور النورس؛ إذ تختلف الأقاويل داخل الأسرة حول هذه النقطة، ولما عاد إلى تورينو بنى لنفسه منزلاً جميلاً على التل، وسط غابة من الكستناء تطل على النهر ناحية الجنوب.

كان قد جلب من باريس أول ورق حوائط مطبوع على الآلة وأراد أن يكون مرسوماً عليه المشهد نفسه مع اختلافات بسيطة للغاية؛ وهو مشهد مناظر طبيعية خيالية عن جزر الهند الغربية والشرقية. كانت رسومات النخيل، وسكان الجزر بلونهم الخمرى وأوراق الأشجار الغزيرة الوفيرة بلونها الأخضر الداكن كما هو الحال فى الغابات، والسموات الزرقاء الفيروزية، كان الغرض من هذا كله، فى اعتقادى، هو إطفاء حنين الشوق إلى هذه الأماكن. هذا بخلاف الستائر الثقيلة المنتشرة فى كل مكان والمطرزة بأشكال ورسومات بهية، وقد نسج عليها أشكال بيغاوات وزهور رخوية، وطيور أخرى فى وضع طيران غير منظم وخيالى. كانت الستائر مفرودة دائماً، وكان الهواء بالحجرات ثقيلًا ينم عن مكان مغلق، وتختلط به رائحة باقات أوراق الأوكالبتوس الكبيرة.

يُقال إن والد جدتنا قد واجه صعوبة فى تزويج ابنتيه، اللتين ورثتا عن أمهما القادمة من بيرو، لون البشرة النحاسى المذهب والشعر الأسود القاتم. ولم يكن جمعه ثروة كبيرة هو محل عدم غفران البلدة بقدر ما كان السبب هو عودته إلى موطنه للتباهى بهذه الثروة؛ وكان هو يتفاخر بثروته بأسوأ الطرق، من جهة نظر الطبقة الأرستقراطية المتشددة؛ فكان نوقه غريباً متكلفاً ومسرغاً فى جلب الأشياء الغربية عن المكان، وإحضار ما لذ وطاب من الأطعمة والمشروبات وأوراق اللعب.

على أية حال فقد نجح فى تزويج ابنتيه فى تورينو، وأعانه على ذلك، بالطبع، ما لديه من مال وافير؛ وربما ساعده فى ذلك أيضاً كون الابنتين اللتين ولدتا فى مستعمرات أمريكا الجنوبية متميزتين بلون بشرتهما وشعرهما وسط الوجنات الشاحبة والعيون الفاتحة التى تميز أترابهما، ولكن هذا مجرد حدس.

إحدى هاتين الابنتين هى "لوبي"، جدتى.

إن اسمها بالكامل له صوت موسيقى ساحر يرن فى أذنى الصغيرتين، ماريا جوادا لوبي يوانا إيزابيل، وهو رنين موسيقى بقدر ما هو موسيقى أيضاً لقب الأم القادمة من بيرو وهو برينيكيا دى وندر، وهو ساحر بقدر ما يثيره شكلها من غموض فى صورتها التى يظهر فيها جزؤها الأعلى فقط ويزدان بها الصالون فى بيت والدى. يظهر فى الصورة سيدة تعبيرات وجهها قاسية، ترتدى ثوباً غامقاً وتتحدى بقلادة كبيرة من الذهب وشريط من القطيفة حول الرقبة؛ وتبرز من الأكمام التى تصل إلى حد الكوع ثنيات مقببة من الدنتيللا البيضاء المتشابكة المتداخلة؛ تحمل كتاباً على يدها، بينما يقف على ذراعها الآخر بينغاء ذو لونين: أحمر وأخضر، وقليل من الريش الأصفر على رأسه، ومنقار مدبب ومقوس يشبه علامة فاصلة ضخمة، وعين زجاجية عدائية؛ على الأقل يبدو لى هكذا أنا الطفلة ولا أفهم لماذا أراد الرسام أن يصور جدتى ومعها ذلك الحيوان المفزع الذى يحط على ذراعها فى سكون ودعة.

لم أكن أعلم أى شىء، وقتها، عن أمريكا الجنوبية، وعن الغابات المليئة بطيور ذات ألوان متعددة، وعن مظاهر الثراء التى تصبح ثروات أسطورية، بمجرد عبور المحيط، وعن عائلة برينيكييا دى وندر، وديارهم التى تزخر بالأفنية، وعن الكنائس المعتمة الرطبة حيث يلوذ المرء بعيداً عن حرارة الشمس، ولا عن والد جدتى الذى تزوج من وريثة عائلة دى وندر، وأقنعها، بعد حياة كاملة قضتها هناك فى جنوب أمريكا، بالانتقال مع ابنتيها، لوبى وماريا روزاريو، إلى القارة القديمة على تلال مونكاليرى، الجميلة أيضاً، ولكن تلال "لى أندى"، نعم تلال "لى أندى" لا تبرح أعماق القلب الذى يتحسر عليها وكأنه يثقل بها. لقد جزت ماريا روزاريو إثر انتقالها لدرجة أنها توفيت نتيجة إصابتها بحمى فى المخ ولم تكن قد بلغت بعد عامها الخامس والعشرين؛ ولم يشفع فى شىء عناية زوجها الشاحب وحبه الذى ظل منكسراً وكالشارد التائه لشهور طويلة بعد وفاتها.

كانت الفترة التى وُلدت أنا فيها وبعدها بسنوات عدة، لا تخلو من كل أنواع المظاهر، المنازل، فى المدينة وفى الريف، تمتلئ عن آخرها بقطع الأثاث واللوحات الزيتية؛ والمشرفين على الأموال الذين كانوا يخلعون قبعاتهم ليحملوا سجلات ودفاتر الحسابات منسوخة بخط جميل؛ والجواهر، والهيبة الاجتماعية والمناصب الشرفية. كان كل شىء هناك،

بديعاً ولامعاً، كل شيء فى مكانه كما لو كنا فى حفل راقص ساهر؛ غير أنه لم يعد يبقى شيء وراء كل هذه المظاهر، فالأرض لم تكن تدر أرباحاً ولم يكن من الممكن أن نقضى على المستأجرين بالموت جوعاً، أكثر من حالة البؤس المزرية التى أوصلهم إليها المسئولون عن جمع الأموال؛ وكان من الواجب دفع الضرائب والعناية بالأموال وصيانتها. كانت الأسرة تعرض ممتلكاتها للبيع شيئاً فشيئاً، غير أن سوء الفهم الكبير كان لا يزال قائماً يوجب الرؤية، ألا وهو الاقتناع بالامتياز والتميز، هل من أجل هبة إلهية؟ والاقتناع بأنه سوف يكون هناك دوماً وفره من المال، الذى لم ينقص أبداً.

لم يكن يساور والدى أى شك فى أنه بالإمكان أن يعمل السيد النبيل صاحب المال والجاه، وما كان يعتبر فترات الإقامة الطويلة فى الريف، من مايو وحتى سبتمبر، بمثابة العمل. أما بقية التزاماته فقد كانت تحتم عليه المشاركة فى الحياة المدنية الاجتماعية فى مدينتى تورينو وفلورنسا، مرتدياً الزى الرسمى والقلادات، وتحتم عليه أن يلعب بالورق لعبة "الهويست" ويعول والدتى وأبناءها كما كان ينبغي، كل هذا على الرغم من أن زيارة مدير الأملاك، الذى كان يجرى إلى المدينة مرة فى الشهر وينفرد بالوالدى فى حجرة المكتب، كانت تزيد من اضطراب والدى وانزعاجه، عاماً بعد الآخر.

ذهب والدايَ إلى المسرح في ذلك المساء. كان خروجهما مساءً، يحدث بعض الجلبة والحركة في المنزل، وكان الذهاب إلى المسرح في ذلك الوقت يتطلب رداءً يشبه زي الحفلات الراقصة. كانت أمي تُخرج القبة من ريش النعام الأبيض وقطعة المجوهرات المعتادة وهي طوق من لآلئ النهر وحجر الزفير. كان أبي يرتدي بدلة الفراك ذات الصدرية الواقية الصلبة وصف الأزرار البلاستينية. كان كلاهما يحتاج إلى مساعدة كي يرتدي ملبسه. وبعد الانتهاء من لف آخر خصلة شعر على المكواة الساخنة، كانت والدتي تهبط مع والدي إلى الصالون ليحتسبا كأساً من الشمبانيا قبل أن يخرجوا.

كانت هذه لحظاتي المفضلة، إن تمكنت من الإفلات من حراسة السيدة وودرووف، مديرة المنزل، وهي اللحظات التي أراقب فيها، وأنا مختبئة وراء الستار، طريقة التزيين الخاصة بوالدتي التي كانت تبدو لي ملكة، بل على العكس، أجمل ألف مرة من الملكة؛ لأن وجهها كان مألوفاً لديّ، وكنت أعرف قسماته فكنت بذلك قادرة على إدراك تحوله الرائع. كانت المجوهرات، وبودرة الوجه، وريش النعام تحول ذلك الوجه العذب إلى قناع من الأناقة الرفيعة. وكنت أنا أستمتع سرّاً، دون أن يراني أحد، بهذا العرض، وبهذه الإشارات والإيماءات الطبيعية الهادئة التي كان والدايَ يقدمانها إليّ؛ وهما يجهلان تماماً مقدار المفاجأة التي

يثيرانها بداخلي وأنا أراهما هكذا على راحتهما على الرغم من أنهما فى كامل زينتهما، كما لو كانت تلك هى طبيعتهما الحقيقية وقد ظهرت أخيراً على السطح.

ذلك المساء، وبعد أن صرف والدى الخادم وقام شخصياً بصب الشمبانيا فى كأس والدتى، فى بادرة غير معتادة استحقت أن تعقب عليها والدتى قائلة: - كيف يكون هذا؟ أهنالك ما يسوء يا فيكتور؟ استأنف والدى الحديث بصوت متعب ومتسلط، كحاله دائماً فى أغلب الأحيان.

- عزيزتى، لعله من الضرورى أن نخفض من مصروفاتنا. فنحن نواجه بعض الصعوبات. عندما تكونين فى الريف، على سبيل المثال، أحتاجين حقاً طباًحاً، وقائداً للسيارة، وخادمة وخادمين؟ تنهدت أمى.

- لكن... لست أعلم. عمن يمكن الاستغناء؟ كل منهم يقوم بدور لا غنى عنه فى إدارة أمور البيت وتسييرها. إن هذا ليس إسرافاً، يا فيكتور. إنه أسلوب حياة... طبيعى.

نهض أبى وأخذ يروح ويجىء. كان يتمايل قليلاً. ثم استدار نحو أمى وقال لها بكل ما أوتى من عذوبة:

- إيلنا، ربما خادم واحد... فعندك خادمان. لعلك تتمكنين من الاستغناء عن واحد منهما، وتعهدى للأكفأ بمهام الآخر.  
نهضت أمى بغتة.

- لكن ما السبيل إلى ذلك؟ أنت تعلم أننى أخرج، وأقوم بزيارات.  
- لديك سائق.

- بالطبع لا يمكننى أن أذهب بمفردى مع السائق، هذا ما كان ينقصنا، لم يحدث هذا من قبل أبداً. لابد أن يأتى الخادم معى.  
- حسناً، ليصحبك خادم واحد، أما الآخر فيمكننا الاستغناء عنه.  
وضعت أمى يديها على وجهها، وهى حركة نادرًا ما كانت تقوم بها.  
- يا إلهى، لم أكن أعتقد أن الموقف خطير إلى هذا الحد.  
سامحنى، إن لم أكن قد أدركت الأمر... إذن، ينبغى أن ننبه إلى عدم استقبال أية زيارات، حينما أكون فى الريف... أو فى الخارج وأنا أستقل السيارة.

- ليس هذا ضرورياً... فأنا لا أدعوك إلى العزلة الجبرية أو الانسحاب من الحياة الاجتماعية.

- ولكن يا عزيزى، إذا كان الخادم يرافقنى فى الخارج، فمن الذى يفتح الباب ليستقبل الزوار؟

- حسناً... أقترح... آدا، خادمك. أليس اسمها آدا؟

- لا! لا يمكن أن يحدث هذا أبداً! إن هذا المنزل منزل أسياد وجهاء، ولا يمكن لامرأة أن تقوم بفتح الباب. فأنا لن أقبل هذا أبداً. ويدهشنى أنك تمكنت من التفكير بهذه الطريقة، يدهشنى ويحزننى.

كم مقدار الاستياء والاستنكار التى كانت أمى تنجح فى بثه إلينا من خلال هذين الفعلين اللذين كانت تستخدمهما بابتدال وبصفة يومية. كانت هذه هى طريقتها فى إنهاء أية محادثة. كانت تدير بالكاد كتفيها، وفى اختلاجة سريعة تمد يدها وتقبض على دنتيللا وحرير ونسيج الغرغن. لم أر أبداً سيدة غيرها تلملم رفل ثوبها على هذا النحو.

كانت محقة، فى منزلنا لم يكن هناك مجالاً للإسراف. إنما، إن كان ليس بالإمكان أن يكون لدينا كبير خدم مهمته أن يفتح الباب وهو يرتدى الفراك وربطة العنق السوداء، حسناً، فليس هناك ما يدعو للتفكير طويلاً، فالباب لا يُفتح، أليس كذلك؟ وهكذا، فمن كان ينبغي أن يبعث برسالة، أو أن يشكر من أجل دعوة، كان بمقدوره أن يدق الباب لساعات ولأيام طوال؛ وإن كان يتمتع بقدر من المثابرة، لم لا؟، يمكنه إقامة خيمة عند بوابة الدخول، مثل أمير مونروى دى باندولفينا، ويكتفى بوجبة سريعة من الحرشف البري المطهو بالغلى البطيء وعليه كريمة الكمء مع قليل، قليل من الشمبانيا، وينتظر فى صبر عودة السيدة الكونتيسة.

لم أكن لأذهب للنوم مطمئنة، ذلك المساء، لو كنت شعرت فقط ولو من قبيل الحدس أن مخاوف والدي المالية تشبه نسمة الهواء فى شهر أغسطس التى تنذر على الرغم من اعتدالها، بهبوب عاصفة شديدة.

أما بالنسبة لأمى، فهى لم تكن لتتنازل بالقطع عن واحد من خدامها. كانت على يقين من أنه يكفيها أن تمتعض وتلوى شفيتها فينحني العالم كله أمام رغباتها، وهو ما كانت سوف تفعله.

## ٥

كانت السماء تمطر، ذلك المساء الذى غير فيه أبى مسار حياتى. كنا قد نهضنا لتونا من على المائدة، والدتى ووالدى وأنا، وقصدنا الصالون. كان شقيقى أنريكو فى النادي كعادته كل خميس.

– لقد أعددت قائمة صغيرة، ياعزيزتى.

قالها أبى وهو يمد لى يده بورقة زرقاء صغيرة مלאها بخط يده بكلمات حروفها كبيرة.

ابتسمت أمى وقامت بدق الجرس. حان وقت تقديم القهوة وقطع الشيكولاتة الصغيرة.

– ما هذا يا أبى، ما الأمر؟

كنت غير مهيةة على الإطلاق. كان عالمى ينحصر آنذاك فى الخيول، ولم أكن أفكر فى أى شىء آخر. أثناء الأمسيات الطويلة الهادئة التى كنت أقضيها فى المنزل مع أبوى، كنت أتوه فى عوالمى الخاصة، الخيالية والمليئة بالمغامرات، وبسبب هذا التيه فى أماكن بعيدة هكذا، جعلنى صوت والدى أرتعد وأكتم أنفاسى.

– ما الأمر؟

– الأمر يتعلق بالزواج. لقد تشاورت مع والدتك وجدتك. وأخذنا فى اعتبارنا ميولك واهتماماتك وقمت بإعداد قائمة أسماء. فكرى فيها. أمامك الليل بأكمله لتفكرى فيها، ويمكننا أن نتحدث فى الأمر غداً ونحن نتناول فطورنا. إنهم خمسة أشخاص ممتازين، مناسبين لأسرتنا. أن الآوان كى نعلن خطبتك. يمكنك أن تختارى الشخص الذى يحظى بإعجابك أكثر من الآخرين. من ترينه أكثر... من... خلاصة القول، الزوج الذى تفضلينه. أنت تعرفينهم جميعاً ولا أريد أن أؤثر على اختيارك. سوف أحترم وأؤيد اختيارك.

لا يزال يرن فى أذنى صوت جدتى الحاد القاطع، "جرانماما"، كما يطلقون عليها فى المنزل، وهى تقول:-- الزواج عن حب، يا له من ابتذال!

إنه الكلام الرتيب المتكرر بين الحين والحين لإنهاء موضوع أحد المعارف، ابن أحد الأحفاد وقد جاء فى زيارة وعيناه تلمعان من الانفعال والتأثير وهو يقول:- من يدري إن كانت فتاة بيتشنسنا تلك، سوف يروق لها الإقامة فى تورينو أيضاً، لقد تعرفنا هذا الشتاء، والدها محامى عصامى، وأنا مغرم بها .

تستشيط جدتى غضباً وتثور وهى جالسة على المقعد، تسقط عنها العدسة الصغيرة، ثم ترن الجرس طلباً فى المزيد من الشاى، وعندما يرحل الحفيد أخيراً، تنتهد فى انكسار قائلة:- "مغرم بها" ... ما عساه يقصد؟

كان عمى تسعة عشر عاماً . لم أكن أريد أن أحييا من أجل رجل، من أجل بيت ملىء بالشقوق التى تتسرب منها الريح، من أجل أطفال ملتصقين بهذب التنورة، لم أكن أبغى زوجاً من اختيار أبى، اسم من بين خمسة أسماء، خمسة! خمسة فقط هى الاحتمالات التى منحنى أبى إياها! وتلك الوريقة التى كان أبى يمدها لى، ماذا عساها كانت غير حكم سريع وتعسفى، شبح قادم من ماضى العرف والتقاليد المتجمد؟ إنه زواج مدير مرتب. ولماذا هذه السرعة؟ لم يحدث هكذا لصديقاتى، فهى أوليمبيا رينيون قد تزوجت من ملازم بسلاح الفرسان الذى ظل يخطب ودها طوال فصل شتاء بأكمله. كنت أعلم أنه لا مكان فى بيتنا

لبعض "الأساليب العصرية"، إلا أنني لم أكن لأعتقد أنه قد يبلغ بهم الأمر إلى هذا الحد. كنت قلقة، مذعورة وغاضبة. فأنا عمرى تسعة عشر عاماً فقط ونحن نعيش فى عام ١٩٢٨، إنه عالم عصرى، انظر خارج النافذة، يا أبى، على نهر الطريق، تمرق السيارات إلى جانب عربات العلف وعربات اليد! إن العالم والعادات تتغير، فلا تضحُّ بى من أجل طقوس ظالمة، غير مجدية وبالية وقاسية...

وعلى العكس سمعت نفسى أقول، بصوتى المعتاد، وأنا أجول ببصرى فى القائمة:

- جوزيبى براكموند... ابن عم... أفضل أن أحتفظ به هكذا.  
چوڤانى بريكيرازيو... إنه عجوز للغاية، يا أبى، لست أود أن...  
أنريكو بلاردى... موظف فى أحد البنوك، ثرى جداً. قد يصبح بيتنا سوقاً للتجارة... وفرنشىسكو ڤيللافورستا... لم أره سوى مرتين... يمتلئ الجواد بشكل جيد، أليس كذلك؟

- أجاب والدى:- بلى، إنه ابن وحيد ويمتلك أراضى واسعة يعمل على رعايتها. يقولون إنه شاب ممتاز. وأمه...

لم أعد أصغى إليه. كان يبدو لى أن هذا السيد المدعو ڤيللافورستا هو المعجزة التى منحها الله لى فى آخر لحظة. ورحت أفكر أن

فيللافورستا سوف يسمح لى بتربية خيولى الأصيلة؛ فهو يحب الخيول والحياة الرياضية، مثلى؛ والمرات القليلة التى رأيتها فيها بدا لى رجلاً أنيقاً، لا يميل كثيراً إلى مباحج الدنيا، وربما كان قليل الكلام. عندما وقع بصرى على آخر اسم فى القائمة، أوجينيو ديلا تورى، علمت يقيناً أنها فعلاً معجزة. فقد كان المسكين ديلا تورى يُعد أكثر الرجال بلاهة فى المدينة كلها.

تزوجت فى تورينو، فى العاشر من أكتوبر ١٩٢٨. لم أكن قد بلغت بعد العشرين من عمرى، وإذ بحماقة ديلا تورى وبلاهته وثراء بيلاردى، وشعر بريكيرازيو الأشيب، وعلاقة القرابة مع براكوموند، كل هذا جعلنى أسير، ورأسى مغطاة بطرحة أصلية من بروكسيل، بطول جناح كنيسة القديسين بطرس وبولس. هأنذا، أحمل بيدي باقة تضم مزيجاً من زهور الزنبق مربوطة بخيوط حريرية؛ وأرتدى فى قدمى حذاءً بديعاً آخر صيحة، مصنوعاً من جلد البقر الأبيض برباط والكعب على شكل بكرة؛ أما ثوب العرس فهو من تفصيل الأختين جامبينو، وهو موديل أحدث صيحة، من باريس وبالكاد يلمس العرقوب. أرتدى فى عنقى عقد من اللالكى يصل إلى أسفل البطن وهو هدية من جدتى. هل هو مكافأة؟ هل هو وعد بهدايا أخرى براقة إن أنا سلكت كما ينبغى؟ الشئ الأكيد هو أننى بحق، على الأقل ليوم واحد! فتاة على الموضة، ولقد وضع أبى جانباً

كل همومه المالية، وكما يقول أخی "مظاهر بخله"؛ لأننى ابنته الوحيدة ويريد أن يجعل من حفل عرسى حفلاً يليق به وىى.

وقد أمر الملك بأن يتركوها تنام فى هدوء طالما لم تحن بعد ساعة الاستيقاظ.

راحت جدتى تتذمر وتقول:-- خسارة، خسارة، خسارة، إنه لم يعد أحد يرتدى ريش النعام نهاراً؛ فقد كنت أود أن أراك ترتدين القبة الخاصة بى المستوردة من الصين.

وهنا تتدخل أمى قائلة:-- لا يا جدتى، إنها ليست مستوردة من الصين، لقد اشتريتها مع قيثوريو من نابولى، فى رحلة شهر العسل، من ريفييرا دى كيايا.

ويتدخل والدى قائلاً:-- لا، يا إلينا، لقد اشتريناها من باريس من عند جوت، ألا تتذكرين؟

وهكذا مضوا يتباحثون عن قبة النعام، وعما إذا كان قد تم شراؤها من بكين، أم من نابولى أم من باريس، لماذا لا تنظرون جميعكم إلى؟ لماذا لا تدركون أنتى لا زلت هنا؟ حتى وإن دام الأمر وقتاً قصيراً، الوقت الضرورى لإقامة المراسم الدينية، وبعدها أخرج من الكنيسة ونقف كلنا فى وضع التقاط الصورة وقد أصبحت الآن "السيدة فيلافورستا" فمن الأفضل وضع هذا فى الاعتبار. انظر إلى زوجى الذى اختاره لى والدى،

إنه جميل، ويتسم بنظرة فخورة جذابة، عنده شوارب ويتحدث إلى برقة متناهية.

لست أشعر بأى شىء آخر، لا بفضول ولا بأية رغبة.

وبعد حفل الاستقبال، وانصراف آخر ابنة عم وقد انحرفت مجموعة الريش التى كانت تزين قبعاتها، ذهبت أنا وفرنشيسكو إلى ريفيليسكو، فى بيت والدته؛ حيث سنقضى الليلة الأولى سوياً. أختلى بنفسى فى غرفتى. ترسل لى حماتى إيرينى، خادمتها الخاصة التى تساعدنى فى خلع ملابسى وتصفيف شعرى والاغتسال، وتنتثر العطر على جسدى وهى تتمم بلهجة إقليم بيمونتى وتقول جملاً غير مترابطة وتضحك بينها وبين نفسها.

أنا ساذجة ولكن ليس بالقدر الكبير. يمكننى أن أتكهن بأن هذه الخادمة التى بلغت منتصف العمر وقد تكلمت فوها كإناء شاي قديم، تلمح إلى ما سوف يحدث لى بعد قليل من الآن.

أشعر بالنفور من هاتين اليدين السمينتين اللتين تصفغان لى شعرى وهاتين العينين الصغيرتين المتغامزتين، فأصرفها فى قسوة.

لا شك أنها سوف تبلغ حماتى غداً، التى سوف لا تتردد فى تأنيبى متسائلة لماذا أردت أن أهين امرأة على هذا القدر من الطيبة وحسن الأخلاق، لؤلؤة، تعمل فى المنزل منذ أربعين عاماً؟ لماذا؟

ذهبنا إلى باريس في رحلة شهر العسل.

نزلنا في فندق "لوتي" وبات واضحاً جلياً بعد أيام قلائل أنه ولا حتى الخيول كانت لتقربنا من بعضنا. كنا نسير في شارع فوبورج سانت أونوريي، وبينما كنت أحاول استنشاق رائحة باريس وأخزن بذاكرتي كل واجهات المحال الزجاجية، وكل مقهى، وكل مار، كان زوجي يُظهر نبرة سأم وضجر، كمن شاهد واختبر بالفعل كل شيء؛ ولعل أصدقاءه في سلاح الفرسان وما يحكونه عن النساء سهلة المنال والسباقات التي تقام في "لونجشا"، لعل كل هذا أفسد عليه بحق المفاجأة؛ لعل فرنشيسكو كان يبحث في باريس عن مشاعر وأحاسيس أخرى، تختلف عن تذكارات الرفاهية التي يمكن استخدامها وبكل سهولة عند عودتنا في صالونات مدينة تورينو.

كان يشعر بالملل وهو معي، ففي اعتقادي أنه كان يعاني من عدم انتمائه لجماعة الوجهاء وسيدات المجتمع الذين يثرثرون حول دوق وستمينستر، ومن أنه لا يمتلك بالمنزل حاجب الهواء كورومانديل مثل كوكو شانيل أو من أنه لا يسافر إلى بياريتز صيفاً.

غير أن سوء مزاج فرنشيسكو كان ينزلق من على دون أن يترك أي أثر. كنت في باريس، كان هناك على الدوام من يذهب إلى تورينو كي

"يُقيّم الموقف" فيما يخص الموسيقى، أو الفن أو المسرح، وكان هناك على العكس من يذهب إلى تورينو لتفصيل الأقمصة، مثل العم كلا فيسانا. وقد ظلت باريس عالقة في ذاكرتي كمكان نجلب منه أكثر الأشياء تبايئاً واختلافاً، مثل الورود الحريرية التي نضعها في المزهريات والعطور، والكبد وأقلام حيوان السمور التي كانت جدتي تستخدمها في الرسم.

كانت قائمة الأشياء طويلة طويلة، تضم السادة الوجهاء في زى الفراك الأسود الرسمي وهم يتنزهون في الصباح الباكر حتى يستعيدوا نشاطهم بعد ليلة بهجة ومرح، وكبار مصممي الأزياء، ومجموعة "فايبرجي" التي باعتها مجموعة من الروس لدفع إيجار غرفتين بحى سان ميشيل، ومتحف اللوفر وما به من كنوز، حيث كان قلبي يرتجف ليس لرؤية الجيوكونده، وإنما بسبب هذه الدهاليز والممرات اللانهائية الخاوية، وكنت أفكر، ماذا وإن تهت هنا بالداخل، فمن الذي سيجدني؟ ومن ذا الذي ينقذني؟ هل سأتحمل ليلة بأكملها وأنا محبوسة هنا بالداخل وسط كل هذه الوجوه؟ هل من الأكيد أنها لن تقوم بمسيرة لتثير زوبعة من حولى فتفقدنى عقلى؟ ألم يحدث شيء من هذا القبيل لأحد السائحين الهولنديين قبل بضع سنوات؟

لم تكن المدينة وحدها هي التي تؤجج هذه الإثارة؛ فقد كان يثيرني أمر لم أحسه من قبل، حيث إننى، هناك، بين واجهات المحال التي

تعرض كل ما هو مطابق لذوق العصر، قمت باكتشاف ما؛ إذ قد فهمت  
أنتى جميلة.

حينما كان فرنشيسكو يتأخر فى العودة مساءً، لست أدرى أين  
كان يذهب، لكننى أستطيع أن أتخيل، كنت أخلع ملابسى وحدى، وحدى  
أخيراً، فى الحمام وكنت انظر لنفسى فى المرآة وأنا من دون ملابس. لم  
أكن ممثلة مثل نساء "رينوار" اللبنيات، مثلما كانت أمى وجدتى أيضاً؛  
ولكننى لم أكن ذات عظام بارزة كذلك.

لم تكن لفرنشيسكو أية علاقة بهذا الاكتشاف. كان الوقت الذى  
قضيناه سوياً ليلاً رديئاً لا يستحق أن يُذكر منه شيء.

وعلى العكس من ذلك، أعتقد أن أول لقاء لى مع تروت كانت له  
علاقة كبيرة بما قمت به من اكتشاف بخصوص ما أتمتع به من جاذبية  
كامرأة.

كنا قد دعينا إلى حفل استقبال لدى بارونة لوندن، وهى واحدة من  
بنات عم والدتى كانت قد تزوجت من دبلوماسى ألمانى.

أتذكر جيداً ذلك البيت فى حى كامون، وقد أضىء بدستة من  
الشموع، ومزهريات الكريستال حيث وضعت البارونة باقات كبيرة من  
زهور الكالا. كانت الصالونات الأربعة مزينة وفقاً للمذاق الكلاسيكى  
الحديث؛ هذا وكأنا نقول إنه بعد العبث، بعد الزخرفة المثقلة، والزخرفة

برسوم وزهور صغيرة والأسلوب الانتقائي، وكل ما نريده من أساليب،  
ها نحن نعود إلى أناقة الخطوط البسيطة الثرية، نعود إلى الجص  
الأبيض الذى يتناوب مع اللون الذهبى، حقاً لم يكن هناك استخدام  
لألوان أخرى داخل هذا البيت بخلاف اللونين الأبيض والذهبي. وزهور  
الكالا، المتصلبة فوق أعوادها، تلك الزهور الباردة الأنيقة والمعاصرة،  
كانت تشير إلى أن البارونة كانت تعلم، أه، وكيف لا تعلم أنه هناك  
بالخارج، على الطرقات الكبيرة، كانت الغلبة لشيء يُطلق عليه "الذوق  
الجديد"، وأن الكثير من قطع الأثاث التى يعلوها الجص كان ينبغي نقلها  
إلى سطح البيت؛ لأن البيوت التى تتبع الذوق العصرى اليوم هى عبارة  
عن قواقع رقيقة من البرنيق الأسود والسجاجيد الفاتحة اللون، فاللون  
الواحد أسهل، لا يختلف عليه اثنان، غير أن البارونة تشبه الماريشال  
التمسك بكل ما هو قديم، كما تذكرنا أيضاً ألقابها الكثيرة وصفاتها؛  
لذا فهى لا تستسلم بسهولة لزيغ الذوق العصرى. ومع هذا، عندما تأتى  
للقاتنا مبتسمة، ترتدى رداء من قماش الجرسية مفتوحاً حول العنق  
بطريقة انسيابية وعلى كتفها دبوس مشبك من الألماس وأحجار الياقوت  
الحمراء أسلوب زخرفته يعود إلى العقد الثانى من القرن العشرين.

أخيراً يبدو فرنشيسكو على سجيته، فهو يتحرك منطلقاً برشاقة،  
وقد تعرف على شخصين أو ثلاثة يدخل معهم فى محادثات طويلة.

وتهتم بارونة لوندن بأموري، فتأخذني هنا وهناك وتقول لكل من نقابلهم إنها لمفاجأة جميلة كوني "جذابة هكذا وجمالي جمال أصيل حقيقي". يومئ ضيوفها وكأنهم يقولون لها إنها على حق؛ وتغتاظ البارونة، وتحتج، لماذا أبعدوننا كل هذا الوقت؟، "هل هذا ممكن؟"، كان ينبغي أن أصل إلى باريس "قبل ذلك بكثير"؛ ولا أسألها تقصد قبل ماذا. ففى قلبى شك، بل إننى على يقين من أن كلمة "قبل" تلك تعنى قبل زواجى السريع بفرنشيسكو، والتي تعتبره البارونة بالطبع زواجاً غير متكافئ. أرتعد، ولكن ليس من قبيل الاستنكار، بل لسبب عكس ذلك تماماً، فأنا أيضاً أعتقد أنه كان لزاماً على أن أرى بعض مباحج الدنيا قبل أن أرتبط، روحاً وجسداً، بسيد مهذب بالكاد أعرفه.

حينما نجلس على المائدة، أكون فى مواجهة زوجى، غير أننى لا أراه. فهو يختفى وراء صوانٍ عالية من الكريستال والبرونز المذهب، مملوءة بالزهور البيضاء وكرات صغيرة متعددة الألوان. يجلس عن يمينى سيد إنجليزى عابر، يتجاذب أطراف الحديث معى مبدئياً ملاحظات مهذبة حول آخر الاكتشافات بخصوص التدفئة المنزلية، كيف يكون هذا؟ لم أكن أعلم أنه يمكن أن نكون من أنصار هذا المنهج أو ذلك، أنا بيبي تُملاً بالهواء الساخن مقابل أنا بيبي مملوءة بالماء المغلى؛ وأنا أيهما أفضل؟ ما النظام المتبع فى إيطاليا؟

وحيثما أجبته أنه بالحقيقة تعجبنى النار فقط؛ لأن لها رائحة طيبة وضوءاً جميلاً، تغوص المحادثة فى الرمال تماماً مثل جزع شجرة على ضفة النهر؛ ولا شىء بعد يمكنه أن يحييها من جديد. وإذ يشعر السيد الإنجليزي بالإحباط، يلتفت عن يمينه ويبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع امرأة فى ثوب أحمر، ألا يزال يتحدث عن التدفئة؟ أنظر أمامى، وأتأمل بإعجاب العناية التى تظمت بها البارونة مدعويها الذين يثرثرون جميعهم فى انطلاق ويسر، اثنين اثنين.

أقول لنفسى إنها أخطأت معى فقط؛ فهذا السيد الإنجليزي الذى تلمع عيناه عن رضا داخلى بينما يشرح طريقة تشغيل مدفأة حديثة، سوف يعود إلى منزله محبباً ومتيقناً أن الإيطاليين لا يعينهم التقدم فى شىء، بل، إن كان الأمر بيدهم...

التزم الصمت. لقد احتسيت القليل من الشمبانيا والآن تختلط الأمور كلها؛ الأصوات، ورنين أدوات المائدة، وضوء الشموع الراقص، وهنا أعى، من خلال التكهنات التى تحرق من كثرة وضوحها، أتنى داخل مصيدة وأن شخصاً آخر قد قام بتقرير حياتى وتنظيمها والتخطيط لها. لقد أعطونى سوراً أستطيع بداخله أن أرفس، وأتحرك، وأتكاسل؛ لكنه شىء من قبيل حقل ترويض الخيل. أما العالم فهو خارج هذا السور.

- سيدتى، هل حضرتك حزينة هكذا دائماً؟

أُتْلِجَتْنِي وَقَاةِ السُّؤَالِ.

لا أزال أنظر مائدة البارونة واختيارها لهذه الزهور البيضاء. أخذ نفساً عميقاً، قبل أن أحدد الكلمات الثلجية التي سوف أجيب بها على مثل هذه الوقاحة؛ فأنا مثل "بيك"، حصاني، عندما يخاف من رعد ما.

ينتفخ وريد الوجه، وتحقق العينان في الفراغ، وترتجف فتحات المنخر.

وأروح أرفس، وأكيل الضربات ولا أسمح لأحد أن يمسك بلجامي. ينبض قلبي بشكل جنوني.

لا يتسرب خارجاً أى شيء من ملامح هذا التحول الحاصل بداخلي.

ثم ألتفت عن يساري ببطء.

غدوت بلا حراك، ولكنني أشعر بأنني أهوى بداخلي.

أهوى في الفراغ.

لم أعد أرى أو أسمع المزيد.

كل هذا حدث في لحظة، فالساحرات الطبيبات يسرعن في عملهن.

أمامي رجل في الثامنة والعشرين، الثلاثين من عمره. أمامي تروت.

علمت فيما بعد أنه بدا لتروت أننى أنظر إليه بنفس النظرة التى كان هو ينظر بها إلى، وأنه أحس فى نظرتى بنفس القدرة الجليدية التى كنت قد شعرت بها أنا أيضاً فى نظرتة. كانوا يطلقون عليه تروت اختصاراً للقب نمساوى طويل للغاية ومن الصعب نطقه، وهو أحد الأسماء التى كانت بارونة لوندن لتصفه بأنه فى مهب الريح. ولد تروت بمدينة فينيسيا، ولكنه قضى طفولته وشبابه فى باريس لأن أسرته خشيت أن تؤذيه الرطوبة؛ إذ كانت شقيقته قد ماتت متأثرة بالحمى الروماتيزمية، وقتما كانت أسرته لا تزال تقيم على "القنالى جراندى"؛ وعلمت أنه قد تزوج منذ بضعة شهور بفتاة من مدينة "بوردو" اسمها إيناس. كان البعض يقول إنه رجل أعمال؛ أو إنه يعمل بالسياسة، وفقاً لرأى البارونة التى كانت تحب أن تدعوه لأنه كان يتكلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة، وكان على قدر كبير من حسن الأخلاق لدرجة جعلته من أكثر الضيوف قبولاً واستحساناً.

لم أكن لأتخيل أبداً، فى ذلك المساء، كم الأمور التى سأعرفها عنه. وقتها، كنت على يقين تام من أنه يرانى جميلة فى عينيه، كما لن يرانى أبداً أى شخص آخر. شعرت أيضاً أننى أفقد شيئاً ما. لم بيد لى، فى ذلك الوقت، شيئاً ذا قيمة كبيرة. لم أفهم، حينئذ، أهمية ما كان يحدث.

كنت قد سمعت بحق صوت فرقة أصابع البهلوان، وحتى الأسياخ التي كانت بداخل المدفأة، محملة بفراخ الحَجَل والديوك البرية توقفت عن الدوران وانطفأت النار كذلك. كل هذا حدث في لحظة، فالساحرات الطيبات يسرعن بحق فى عملهن.

وأنا أيضاً غلبنى النعاس. ظلت أتجرع النبيذ وأتجاذب الحديث فى ذلك المساء، ثم بعد ذلك، قضيت الأيام التالية فى الاستمتاع بباريس وطرقاتها البديعة. عدت إلى تورينو وبدأت حياتى الجديدة، الاجتماع على وجبة الغذاء، والذهاب إلى الصيد وبروقات الخياطة ومصممة الأزياء؛ لأنه كان يجب أن أجدد صوان ملابسى مرتين فى العام بعد أن أصبحت سيدة متزوجة.

كان هناك أمر ما يسمونه بالحزب الجديد يشتعل، خارج حجرة صالونى المكسوة بالحرير، وكانت المناقشات تُهيج كل من كان يُتعب نفسه فى قراءة الجرائد من أزواجنا.

لم يكن فرنشيسكو واحداً من هؤلاء. ففى كل صباح كان ينتظر بفارغ الصبر أن يصل جينو من جهة طريق "كونيولى ألتى"، على التل، ويحمل معه دلاء معدنية مليئة باللبن. كان جينو يجلس فى المطبخ، ويصب لنفسه كوباً من نبيذ "باربيرا" منتظراً فرنشيسكو كى يعطيه أخباراً عن الخيول، وعماً إذا كان المُهر الجديد يأكل جيداً، وعماً إذا كانت الفرس حبلت أخيراً. هذه كانت الأخبار الوحيدة التى كانت تهم زوجى.

أما بالنسبة لى، فبسبب الكسل أو الجهل أو عدم الاهتمام بالعالم الخارجى، فلم يكن حتى يراودنى. أى شك فى أنه بالإمكان أن تكون هناك حياة مختلفة عن حياتى وعن أيامى البطيئة التى تتشابه كلها والتى أقضيها بين الواجبات الاجتماعية وبعض المهمات المنزلية النادرة.

اليوم أستطيع أن أقول، وبمنتهى الثقة، إننى كنت أنام وقتذاك. وإلا لكنت قد تنبعت أن تورينو قد تغيرت سريعاً فى سنوات قليلة. كان يكفى السير تحت الأروقة عصر السبت لترى وجوهاً لم ترها من قبل، فتيات جميلات وجناتهن حمراء وهن يتنزهن متأبطات ذراع خطابهن، وأناس تتكهن من ملابسهم أنهم وصلوا لتوهم إلى المدينة، جنود من الشباب وطلاب. كانوا يفتحون منشآت ودور سينما جديدة، ومقاهى ومطاعم صغيرة على طول نهر البو، وكانت عائلات بأكملها تنتقل من الريف إلى المدينة. عندما كنت أستمع، طوال تلك السنين، لأحاديث أبوى وأنا شاردة، غالباً ما كنت أسمعها يقولان، بقليل من الاشمئزاز، "إنه رجل صناعة". كان هذا يُقال عن السيناتور رايموندى وعن البارون مونكالفو، وعن أفراد عائلة كليرمونت وعن آخرين كثيرين. كان رجال الصناعة هؤلاء، من وجهة نظر أمى، هم الذين كانوا يجعلون من أوقات فراغهم وأوقات فراغنا شغلهم الشاغل؛ فعلى سبيل المثال "العربات" على حد قولها، "والأفلام، التى تصلح فقط للخادومات ويأعنى اللين"، وبالمثل كان رأى والدى محدوداً لا يختلف عن رأى أمى. من بين كل المهن الممكنة،

كانت مهنة رجل الصناعة هي التي تثير فيهما إعجاب وريبة؛ فهي مسألة وقت حتى تُقام منشآت كبيرة ذات طابع يسارى "عصرى"، مكان الحقول المزروعة، وهي مسألة وقت حتى تنشأ مصانع الجعة والحلويات، وعند هذا الحد كانت أمى لا تفهم بحق من كان يمكنه أن يرغب فى احتساء الجعة أو تناول حلوى صناعية، ولكن علينا أن نتمهل لنرى إن كان هؤلاء سيحظون بالنجاح فعلاً! وإن كانوا سيتجاوزون الحارس العجوز طالبين أن يُسمح لهم بالاشتراك فى النادى أو مقدمين على شراء الثيللات التي تعلقو التل... راحت أمى تفكر، وقد أصابتها قشعريرة حقيقية، فى مصير كونتيسة "سان بيير" العجوز، التي وُجدت مضطربة أن تباع لشخص ما يُدعى فينوليو أكثر القطع قيمة وأهمية من مجموعتها الفنية... كما كانت تفكر أيضاً فى مصير عائلة كوستامانيا، التي تنازلت عن قصر العائلة لرجل متخصص فى صناعة المنسوجات الصوفية وهو ابن لأحد المدرسين بالمدرسة الابتدائية... وقد أقام رجل الصناعة حفلاً راقصاً تكلف مبالغ باهظة... وأحضر الكماء والمحار على سبيل الإبهار... إبهار من، يا ترى؟ خلاصة القول، كان الحذر والحيطه يحتمان الابتعاد تماماً عن هذا كله، خاصة وأن هؤلاء ما كانوا ليهتمون بدعوتنا.

كان فرنشيسكو له رأى مخالف لهذا، على الأقل بخصوص هذا الأمر، وفى الفترة الأولى من زواجنا، كان كثيراً ما يحثنى على توسيع دائرة المدعويين خارج نطاق الأصدقاء المعتادين. أتذكر تلك المناسبات

النادرة كنوع من التغيير المحب؛ فعادة ما كانوا رجالاً شغوفين بالحديث عن أعمالهم الخاصة أو عن الصعوبات التي يواجهونها بصفة يومية. كنت أسمعهم يتكلمون عن السياسة وعن اتحادات عمالية، عن أرباح ومكاسب وأسواق أوروبية، عن أزمة اقتصادية ومشاريع ترتبط بالتسويق أو بتحسين هذا المنتج أو ذاك. كلها موضوعات جديدة تماماً بالنسبة لى، وكنت أجتهد حتى أفهمها وأتذكرها.

كانت آداب اللياقة تقتضى أن يبقى الرجال، بعد تناول الغذاء، فى حجرة السفرة لتدخين السيجار واحتساء "البورتو"، بينما تنتقل السيدات إلى حجرة الاستقبال. كان المفترض أن نتحدث، نحن السيدات، عن الموسيقى، وعن المعارض الفنية أو عن تربية الأبناء. واكتشفت، وكان هذا بمثابة المفاجأة لى، أن بعض أولئك السيدات يطرحن حججهن بطريقة تختلف كثيراً عن طريقة والدتى وصديقاتها؛ فكن يطرحن أسئلة، ويعترفن بما يساورهن من شكوك. وأحياناً لا يجدن إجابات على أسئلتهن.

أدركت بمرور الوقت أن هذه الأمسيات كانت مسعى غير موفق من قبل زوجى حتى يساير ما كان يحدث فى المدينة؛ حيث تسقط الحواجز، وبمعنى آخر الأحكام المسبقة، ويختلط الكل. غير أن زوجى، على مدار عام، خلّص إلى فكرة تتطابق تماماً مع فكرة أبى وأمى وهى أنه ينبغى الاحتراز من كل ما هو مستحدث، ومن الأفضل أن نترك الحديث عن

أخبار التجارة والاتجاهات السياسية لصفحات الجرائد، وأن تقتصر أحاديثنا داخل حجرة الصالون على سباقات الخيل وإثارة الطريدة.

كان لفرنشيسكو حياته وأنا لى حياتى، وأمست أحاديثنا تقتصر على الضرورى منها فقط.

كنت على يقين من أنه لا شىء سوف يتغير من الإيقاع البطيء غير الواهم الذى سارت عليه حياتنا اليومية الرتيبة. كنا نعيش داخل أسوار حديقة لترويض الخيول، الأمر لا يتعدى هذا، ربما كان هناك ما هو أسوأ.

## ٨

إنه صباح عيد الميلاد. مضى شهران على زواجى، عند العودة من رحلة شهر العسل، طلبت من زوجى أن ننام فى حجرتين منفصلتين وإن كانتا متلاصقتين، وقد كان لى ما طلبت، لم يبد قبيلا فورستا ما كنت أخشاه من اعتراضات. بل اقتصر على رفع كتفيه وهو يقول ببرود تام: - كما تفضلين.

لكنه دخل حجرتى هذه الليلة، خلصة وكأنه لص. يتسرب ضوء خافت من بين الستائر، تهباً لى أنه ضوء الفجر إنما هو على العكس، الجليد الذى سقط بعد منتصف الليل بقليل.

- للجليد انعكاس بديع، حتى فى الظلام.

- نعم، يا لها من روعة. الجليد فى عيد الميلاد.

أجبت وأنا أطوى غطاء السرير ليعطى جسدى كله حتى عنقى.  
تظاهر فيلافورستا بأنه لم ينتبه إلى ما أقوم به من مناورات ثم اندس  
فى الفراش، بنفس السهولة والتلقائية التى يعقد بها رباط عنقه.  
أحسست بأننى أتجمد، لكننى لم أقو على قول أى شىء.

أسند رأسه فى تجويف كتفى. تلامس خصلات شعره وجنتى.

وسألنى:- لماذا؟ لماذا أنتِ خائفة؟

قلت له:- لست خائفة، لست خائفة إطلاقاً.

فهمس:- إذن اتركى نفسك ولا تقاومى.

إلى أين أترك نفسى؟

أجبت به بكل ما أوتيت من حدة وقسوة:- لست فى أى احتياج إلى أن

أترك نفسى.

أدركنى محتجاً:- كما تريدن.

إنه ليس بعناق، إنه تأكيد على حق ما.

لا أشعر بأى شيء. أحسه مرطباً بعرقه، كحمل ثقيل على بطنى أود لو تخلصت منه ولكننى لا أجرؤ على إبعاده عنى. أغلق عينى كى أركز فقط على أحاسيسى الجسدية. لا شيء على الإطلاق. لا شيء يحدث. فأنا شاردة الذهن بعيدة، ودون وعى أو إدراك أنشطرت وأنزلت من صورة هذه المرأة التى يكاد يحجبها جسد فرنشيسكو الجاف. كما لو كنت أشاهدهما معاً، هو وهى، عاجزين عن التواصل، يتباعدان أكثر فأكثر، على الرغم من تقاربهما جسدياً، فهما غريبان يتقاسمان فراشاً واحداً ولكنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين.

فيما بعد، حينما نعس قيلولافورستا، تسللت خارج الفراش وقمت بارتداء ملابسى.

لم يبرز ضوء الفجر بعد. امتطيت بمفردى الفرس قيبورنو وذهبت فى اتجاه المتنزه. تبدو تورينو ساكنة وخاوية، كما لم أرها من قبل. استكملت طريقي بعد أن وصلت إلى حلبة قائلتينو لتدريب الخيول. لست أدري السبب، لكننى ببساطة لم أتوقف.

عبرت الجسر الذى يحمل اسم الملك أومبرتو وشرعت أصعد فى اتجاه "قال ساليتشى". أصعد على مهل؛ فالأرض زلقة. تأخذ آثار حوافر الخيل شكل ثقوب كثيرة داكنة اللون، وتتسبب فى وحلة من المياه. ترتفع درجة الحرارة سريعاً. لن يبقى الجليد كثيراً. تهبط عربتان من ناحية

التل، وتحمل فلاحين يحضرون الأخشاب للمدافئ أو اللبن والزبد إلى المدينة. تترك الإطارات أخايد ممتدة مستقيمة واضحة متقنة.

يلقى المزارعون نظرة خاطفة نحوى، وأكاد أتكهن بما يدور بداخلهم من دهشة لرؤية هذه المرأة التى تروم الصعود بمفردها حتى قمة التل، فى عناد وإصرار تماماً مثل الفرس الذى تمتطيه. عندما تتكشف التلال عن مخرج ينبئ بالوصول إلى السهل الذى يغمره الجليد، أتوقف برهة وأربت على ظهر فيبورنو، أشعر بملمس البوص الحريرى والذى بالكاد ينثنى تحت أصابع يدي.

يرغب الجواد فى العدو، وأفهم ذلك من الطريقة التى يحرك بها رأسه. أطيعه، فنحن - الاثنتين - نحتاج أن نشعر بوخز الهواء الجليدى على وجهينا، وبانبساط العضلات وهى تبذل مجهوداً وبسخونة الجلد من جراء سرعة ضربات القلب وبالنفس الذى يصبح قصيراً. نجرى، لوقت طويل، حتى لا يبقى شئ خلفنا يستحق أن نلتفت للنظر إليه.

تبدو الأشجار والحشائش التى يعلوها الجليد وكأنها تنتمى إلى عالم آخر، وليس فقط إلى منظر طبيعى مختلف. لم يعد أى شئ مألوفاً لى، بعد أن تحول إلى هذا المشهد، عقب سقوط الجليد وقد لف سكون الليل المكان. انقشعت السحب وصفت السماء.

لا يغطى الضوء الذى يبعثه الجليد على ضوء النجوم، أعود إلى البيت أكثر هدوءاً وسكينة.

أقوم بالتنزه فى عالم غير واقعى ألوانه تشبه ألوان لوح آلة تصوير  
داجيرية.

يخفف الجليد من صوت حوافر الجواد. الجوليس بارداً، ويوشك  
القمر على الاختفاء.

كان والداى قد أقاما حفل عشاء مساء يوم خطبتى إلى فرنشيسكو.  
أخذت جدتى ساعة الجيب من البنك حيث كانت تحتفظ بها كميراث من  
أبيها. وفتح أبى شخصياً زجاجة الشمبانيا، فى اللحظة التى ألبسنى  
فيها فرنشيسكو خاتم الخطبة، وهو عبارة عن حجرين ياقوت تم  
تركيبهما بطريقة عكسية، ثم دعانا إلى الذهاب إلى الحديقة.

اقترب منى فرنشيسكو وحاول أن يعانقنى. رجعت للخلف بضعة  
خطوات حتى اصطدمت بحائط السور.

كان الوقت صيفاً، وفى الظلام كان يُسمع دعاء الكروان الليلى  
وتُشتم رائحة الياسمين التى تصعد نفحاتها فى الجو. كان يصل صدى  
المحادثة التى تدور بين أبى وأمى من خلال النوافذ المفتوحة. كانت هناك  
يراعات ونجوم كثيرة جداً.

- لا أريد يا فرنشيسكو.

- أعرف، هونى عليك.

أستطيع أن أتخيل أنه كان يبتسم فى الظلام، بالتأكيد كنت أبدو له فتاة غيبية، فتاة توشك أن تقول له إنها لا ترغب فى الزواج وإنها لا تعرف حتى كيف تقبل وإنها بحق لم تكن لتريد ذلك، إن كان من الممكن تجنبه...

كانت تلك القبلة غير المرغوب فيها، هى أول قبلة أمنحها لرجل على الإطلاق، لم أفهم وقتها إن كانت قد أعجبتنى، لا أعلم. لم أكن أعلم. ظللت أهدق فى تلك النقطة المضيئة بعيداً وهى مصباح الطريق. لم أغلق عينيُّ كما كنت أرى نجومات السينما يفعلن، ولكن كان هناك صوت بيانو يعزف وكانت هى أمى التى شرعت تعزف حتى يقضى الضيوف وقتاً طيباً.

والآن أيضاً، تبدو لى النجوم وكأنها مئات من الناظرين، كما بدت لى وقتها أيضاً، وسماء الليل ما هى إلا زخم من النظرات التى تنفرس فى الكون كله ينظر إلى. وأنا أبادله النظرات، بقدر ما أستطيع، وبقدر ما يصل الشعاع الذى ينبعث من حدقة عيني، وبقدر مدى الرؤية.

لا أعرف ماذا يجب على أن أفعل.

كل العيون التى تنظر من سماء مرصعة بالنجوم تتجه نحوى.

لم تنجح النزهة التى قمت بها فى أن تنزع من على كاهلى رهاب الأماكن المغلقة بحجرة نومى، ولا حيرتى وترددى، أود أن أهرب، ولكننى لست أدرى من أين أبدأ.

لست أدري شيئاً، عمرى تسعة عشر عاماً، ولست أدري ماذا أفعل

بها.

٩

كان قد مر على زواجى بضع سنوات حينما رأيتة ثانية. التقينا فى منزل عائلة "بشيرانو"، وإنما قد يكون من الأدق أن أقول إننا اصطدمنا ببعضنا بعضاً، هكذا كانت شدة ما شعرت به من انفعال وأنا أراه من جديد. كما أننى لم أكن مهياًة إطلاقاً لهذا النوع من الانفعال. فكيف يمكننى أن أصفه؟ كم يمر من الوقت بين اللحظة التى تسقط فيها الصورة على شبكة العين واللحظة التى تصل فيها إلى المخ؟ وهل هناك تنشأ الذاكرة والدهشة والرغبة، بعد أن تسير الصورة فى مجراها وتتشعب فى تشعبات أجهلها؟ كم هى قصيرة المسافة التى تفصلنا لسنتيمترات قليلة من قبيل آداب اللياقة، بينما تروت ينحنى ويأخذ يدي ليقبلها وهو يهمس:

- أنتذكرينى؟

غير أنها مسافة لا نهاية لها؛ حيث تُضىء وتنطفئ كأنوار كشاف رؤى متعددة الأشكال عنى وعن تروت معاً، وقد وقع كل منا فريسة للآخر ثم تباعدنا بلا حدود كشخصين غريبين تماماً. أيكفى وجه أو صوت حتى

يطيح بما أسسته من ثوابت راسخة وعقلانية؟ لماذا لا أرضى بشكل العالم كما يظهر لى، وهو بالفعل امتياز كبير، موائد معدة بأوان من الفضة والكريستال، منازل فخمة وأزواج مهذبين، غطاء اليدين من فراء الزيلين وعربات مطلية بالكروم صغيرة وجديدة وسريعة وجميلة للغاية؟

– هل تتذكرين أننا كنا مدعوين على الغذاء عند بارونة لوندن فى باريس قبل أربعة أعوام وكنا جالسين جنباً إلى جنب؟

هأنذا أفيق من نومى على رنين صوته وأدرك أننى حية ويقظة وفى كامل قواى فقط فى حضور تروت ولكنه إحساس يجعلنى أشعر بالثمالة.

أدرك أنه منذ الأمسية التى قضيناها فى حى كمبون وحتى هذا المساء على ضفة نهر البو كنت مستغرقة فى نوم غير واقعى مثلما ينام أبطال الحكايات، لقد عشت أيامى فى كتمان تام، دون الشعور لا بأفراح حقيقية ولا بالألم حقيقية.

يعلم تروت تماماً أننى أتذكر. ولكننى أجبته على أية حال:

– أتذكر. نعم، أتذكر.

لا ينم صوتى عن أى فزع ولا يفصح عن أى انفعال.

يمد تروت ذراعه ليصطحبنى داخل حجرة الصالون. لم نتقدم سوى خطوات قليلة وها هى سيدة مبتسمة ترتدى ثوباً من قماش الموصلى

الفضفاض تقترب نحونا، وجهها نحيل تبدو عليه أمارات التوتر، غير أن ذلك لا يغير من جمال قسماته، لون عينيها أسود غامق، تنظر إليّ باهتمام.

- نحن لم نتعارف، أليس كذلك؟

يقدم تروت كل منا للأخرى، إنها إيناس، زوجته وقد قررت أن تعود إلى منزلها بصحبة إحدى صديقاتها؛ لأنها تعاني من صداع نصفي رهيب.

تفحص تروت قبل أن تبتعد عنا، ولكنها لا تقول له شيئاً البتة.

وعلى العكس، تستدير نحوى وتقول بابتسامة صغيرة:

- أستودعك إياه.

لا يبدو على تروت الانزعاج بسبب تعب زوجته، بل إنه حتى لم يعرض عليها مرافقتها إلى المنزل.

أشار إليّ زوجي الذي كان واقفاً في الجانب الآخر من الصالون، أذهب إليه، تاركة تروت خلفي، لا ألتفت ورائي، ولكنني أعرف أنه ينظر إليّ.

إنه حفل استقبال كبير، جندت فيه عائلة الكونت بديرانو لخدمتها جموع من بائعي الزهور وأصحاب الفراشة، من الواضح أنهم يعلمون

جيداً أصول دعوة الناس لمثل هذه الحفلات. وكانت أمى تقول: إنها ليست بالطبع مسألة مال، وإنما مسألة عادات، وسلوك نادراً ما يمكن اكتسابه ولا حتى بالضرورة يُورث. كثيراً ما نرتاد أنا وفرنشييسكو هذه المجتمعات، من الواضح أننا لا نجد ما نقوله لبعضنا بعضاً منذ زمن بعيد.

انظر إلى حشود الضيوف الصاخبة المرحّة، وأجدنى أشعر بنفس الضيق الذى تشعر به مضيفتنا منذ أن تزايد عدد المدعوين الذين اعتادوا على ارتداء زى النظام الحاكم الكئيب، بدلاً من الفراك. إن أسوأ لحظة هى لحظة الجلوس على المائدة.

فأنا أشعر بالملل الرهيب، ولكننى اعتدت تماماً على ملل هذه الحفلات. يجلس تروت على مسافة مائتين أو ثلاث من مائتى؛ ينظر إلى طوال فترة العشاء، لدرجة أنه اضطرنى، أكثر من مرة، أن أحنى رأسى له.

يمكننا أن ننهض من على المائدة، فقط حينما يحين وقت تقديم القهوة. ويبطء تتفرق فى اتجاه حجرات الصالون وصالة الرقص. أخرج من حجرة السفارة فى نفس اللحظة التى يمر فيها تروت من أمامى.

لا أقول شيئاً، ولا ألتفت نحوه، عندما يدس فى يدي بطاقة تعارف وأنا أبتعد ممسكة بذراع ابن خالى أودونى الذى لم يعد ينتبه إلى أى

شئ بعد أن احتسى كأسين من الشمبانيا. أدلف خلف ستار شبه مغلق، يرتب بعض الخدم المرتدون حلتهم الرسمية الأكواب التي انتهوا تَوًّا من غسلها ويضعونها على الصوانى. ينظرون إلىّ فى صمت وهم مندهشون، ولكن ليس بقدر دهشتى وأنا أقرأ المكتوب على البطاقة:

- أنا أول من اندهش لإصرارى على النظر إليك، ولكننى أجد فى ذلك سروراً وسعادة لا يمكننى أن أتنازل عنهما.

لا أتذكر بعدها إلا القليل مما حدث فى ذلك المساء. كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة، فى إحدى زوايا الصالون، تعزف موسيقى حديثة. لابد وأن فرنشيسكو كان قد غاص فى مقعده الوثير يتباحث مع سيد البيت عن أمور الخيول.

لمحت باب نافذة مفتوحاً يودى إلى الشرفة، دلفت بها مسرعة وبقيت هناك لبرهة.

لدقائق معدودات، إن أغمضت عينيّ نفسى فى ثوبى الأورجانزا البنفسجى الذى يتمايل بخفة بفعل تيار الهواء.

لم يكن الهواء شديداً، غير أن النسمة المنعشة بعد القيظ الشديد، تصيبنى بالقشعريرة.

أحس بحفيف الأوراق من وراء ظهري، ثم تلتف ذراعان حول خصرى.

لست فى حاجة لأن أستدير كى أتأكد أنه تروت. أشعر به يلمس  
أذنى بشفتيه ويهمس قائلاً:

– متى أراك ثانية؟

لا أقول شيئاً، تضيع كلماته وسط الطنين الآتى من حجرات  
الصالون.

أتردد. لا أستطيع أن أجد إجابة على سؤاله، فربما بعد ساعة،  
وربما غداً، أو أبداً.

ماذا يجب على أن أقول؟ ها هو صوت تروت يحدث من جديد شقاً  
ودوامه فى الزمان والمكان تمتلئ برؤى لا حصر لها لشخصه وشخصى  
معاً، بمفردنا، دون بريق الشموع، ودون الصالونات الملمعة لاستقبال  
الحفلات، ودون موسيقى، ودون...

لم يعد تروت موجوداً. لقد اختفى، من يدرى إلى أين ذهب؟ عيناى  
تبحثان عنه، بقدر ما تسمح به أصول الاحتشام. لا شىء على الإطلاق.

لدرجة أننى أقرب من كونتيسة عائلة بسيرانو، وأكاد أكره نفسى  
إذ لا أقوى على الحيلولة دون هذا التطفل غير اللائق الذى يعرضنى  
للسخرية. غير أن هناك ما هو أقوى من حياى، وهكذا ودون تورية  
أسألها، بطريقة شبه حادة قائلة:

- تُرى، هل رأيت تروت؟

- من، ياعزيزتى؟ تروت؟ من يكون تروت هذا؟

أجابتنى بصوت أجش ينم عن ضيق وضجر؛ لأنها بالتأكيد تعرف تروت باسمه الحقيقى، وليس بهذه الكنية المثيرة للضحك.

غير أننى استنفذت كل شجاعتى عند طرحى هذا السؤال الوحيد، ولا أقدر على صياغة سؤال آخر. ليس بصوت مسموع على الأقل.

ما السبب الذى يدفعنى أنا، الآن، كى أكرر على مسامعى، فى صمت بينى وبين نفسى، هذه التساؤلات: تروت؟ من يكون تروت هذا؟

وفيما بعد، فى المنزل، وبينما أنا أتقلب فى فراشى عاجزة عن النوم، أنتبه إلى أنه قد خاطبنى بصيغة "الكاف".

2

- ٢ -

المحمية



يلف المكان ضوء خفيف؛ فأنا أحتفظ بالأضواء خافتة وأشتري لمبات ضعيفة، بحيث لا ينتبه في الحال من يأتى لزيارتي إلى السجادة التى تنسلت، أو إلى الغبار الذى يعلو كل شىء تقريباً، وإلى الفضيات غير اللامعة. كل ما هناك أننى لم أعد أرى جيداً، كما أننى أبدأ ما اعتنيت بالقدر الكافى بمثل هذه التفاصيل. ولا أعتقد أن الخادومات الشابات، اللاتى يأتين فى أيام متعاقبة حتى يطهون لى ويزلن التراب من هنا وهناك، لا أعتقد أنهن يعرفن كيفية الاعتناء بمنزل؛ وأما بالنسبة لى فأحسب أن الوقت الذى تبقى لنا ثمين مثل السكر فى زمن الحرب، فبأى حق أهدره هكذا فى تلميع البراويش الفضية؟

لم يعد هناك وجود لشىء أو لشخص من حولى. فمنذ خمسة عشر عاماً على الأقل، مات آخر جواد، بلويبرد، بالسكتة القلبية على ما أعتقد، لأننى لم أعد أقدر أن أمتطيه. كان الطبيب سكاورى البشع يحذرنى بقوله:

- النساء فى سنك يكتفين بأن يمارسن دور الجدات أو أمهات الجدات. إذا أصبت بكسر الآن، فمن ذا الذى سيقيمك ثانية ويجعلك تمشين؟ ولا حتى عذراء الـ لوردز. انزلى لو سمحت من على ظهر الجواد واكتفى بلعبة الورق "كنسطة".

- اسمع يا دكتور سكاورى، الخيل هى حياتى؛ فأنا أمتطى الجواد منذ أن كان عندى اثنا عشر عاماً. أتعرف ما معنى أن تستيقظ كل صباح فى الخامسة وتطلق لجوادك العنان وتخرج به مهما كانت الظروف الجوية، وتترك البيت ليلاً أثناء العواصف والأمطار كى تهديّ من روع الخيول متحدثاً إليها بصوتك.

- بل اسمعى حضرتك بالأحرى. بدءاً من لحظة معينة فصاعداً يصبح الجسد عدواً وعلينا أن نتعامل معه بذكاء، وإلا فسوف يقذف بنا فى الطريق. أتفهميننى، أم لا؟ فالسنون تمر أيضاً بالنسبة لك.

بالتأكيد. تمر السنون أيضاً بالنسبة لى؛ لذا استبدلت النزهة على ظهر الحصان بنزهة على الأقدام لمدة نصف الساعة كل صباح، إلى أن أبلغ المكان الذى يسقى فيه رعاة الماعز، والكلاب تتبعنا فى الخلف. ومن أعلى ذلك المكان أرى صفوف أشجار الكروم، التى تبدو حزينة فى الشتاء وكأنها صلبان حرب مقامة فى أحد الحقول، ولكن بمرور الشهور

تكسوها السروع والأوراق، كالفتيات فى الأعياد. ينتظرنى ديتو على قمة  
المطلع، ينزع قبعته ويقول:

- إنه ليوم جميل، أليس كذلك؟ حتى وإن سقط المطر أو غشى  
الضباب أو هبت الرياح. كلها أيام جميلة بالنسبة لنا هنا فى  
الريف. ويلهب الهواء المنعش الرئتين.

خطرت لى هذه الفكرة أثناء قيامى بإحدى هذه الزهات الصامته؛  
فأنا أريد أن أقيم حفلاً، كحفلات الأيام الخوالى، أَدعو فيها إلى هذا  
المكان الأصدقاء الذين لا أراهم منذ زمن بعيد. لا أقصد أى أصدقاء،  
وإنما أولئك الذين شهدوا مجيئى إلى "المحمية" مجردة من أى شىء.  
هرباً من زواج أمسى صعب الاحتمال. وقد حملت على كاهلى عدم  
موافقة الأسرة وأصدقاء الطفولة لوقت طويل جداً لدرجة أننى لم أعد  
أعرف معنى أن يوافقك شخص على ما تفعله. والآن وأنا أشعر بالوقت  
يتسرب من بين أصابعى، أريدهم أن يروا. ولا أعلم لماذا أخط بين ما  
أحسست به من أحاسيس وبين ما كنت عليه وقتها: خائفة، وحيدة،  
حازمة، لم أكن أجيد حرفة أو برأسى فكرة ما، وإنما كنت أمتلك هذا  
الحقل فقط.

أين انتهى الحال بهم جميعاً؟ تعج سنوات الشباب والنضوج  
بالحركة والنشاط. ثم، تهدأ الحركة، دون حتى أن ندرك متى وكيف

يحدث هذا، وتصبح بالكاد محسوسة، وفي النهاية تزيحنا وتنحينا جانباً  
بضربة يد تعسفية.

تغيير الأنواق والأمزجة، وتأتى الأحداث، وبمعنى أدق التاريخ،  
الذى يدوم طويلاً فراضاً سطوته، ليسجل أموراً نحن فيها بمثابة  
المشاهدين ليس أكثر.

جرس إنذار من البحر المتوسط الذى يتحول الآن إلى بحر  
استوائى. يحذر خبراء المناخ، الذين اجتمعوا فى فلورنسا لحضور  
مؤتمر دولى، من أن متوسط درجة الحرارة قد ارتفع على مدار خمسين  
عاماً بمعدل ثمانى درجات ومن المقدر أن يستمر فى الارتفاع.

إنها أحداث لم تعد تنتمى إلينا ولم نعد نحن ننتمى إليها.

يحدث هنا الشئ نفسه، بيتى والبرج الملحق الذى تحطم، والحديقة  
والهكتارات المزروعة كروماً، ومدينة سيبينا بعيداً، هناك، أعلى ذلك التل  
مثل لوحة خلفية لـ جويدوريتشو من فوليانو، ودينو، الذى ربما يجول  
حول الأراضى على ظهر الجواد. وأنا هنا بالداخل، أسمع من بعيد  
صوت عربات النقل الحديدية وهى تمرق على الطريق السريع المؤدى إلى  
فلورنسا، وأرى الكرم المُعترش ذات التوترات العالية، وأستمع إلى نشرة  
أخبار المساء، ولكن إن صرخت فلكِ أعلن للعالم أنتى هنا، حية أرزق،  
فقد يكون لصيحتى صدى فى أذنى فقط، لأننى لم أعد أنتمى للعالم.

يدخل دينو وقد أحضر معه الحسابات. إنه أمر عسير للغاية. أرقام، وحسابات وقوائم وفواتير واجبة السداد، والإيرادات. عندما وجدت نفسى وحيدة، فى النهاية، كان على أن أتعلم ولكن بمشقة وصعوبة بالغة. لحسن الحظ دينو موجود معى يساعدى. وهو يتحلى بالصبر، مثلى؛ إذ أن الأمر يتطلب صبراً لا حدود له لمواجهة شهور الشتاء الطويلة، حينما تبدو الحقول خالية من الحياة، وكذا حقول الكروم وحقول الزيتون؛ ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يتوقف العمل ولا حتى شتاءً، غير أن كل الجهود والمثابرة نجنى ثمارها بعد ذلك بشهور.

من الضرورى اقتلاع مائة شجرة زيتون تعود إلى خمسين عاماً مضت وقد تفرعت وتشعبت بشكل ردىء. يقول دينو إنه يمكن غرس أشجار كروم أخرى فى هذه الأرض بعد أن تستريح بعض الوقت، وإنه لابد أن نركز الآن على إنتاج النبيذ وخصوصاً بعد أن حصلنا على كل هذه الجوائز. ويقول دينو:

- إن عالم الاستثمارات هو الذى يتغير ونحن نتبعه. إنهم يريدون النبيذ ونحن نعطيهم إياه. لا تقلقى بسبب أشجار الزيتون؛ فقد وجدت صاحب مشتل بفلورنسا سيتكفل هو بكل شىء على نفقته، سيقتلع الأشجار والنباتات. إنها صفقة، ونحن لدينا

أشجار أكثر من اللازم. اضطررنا العام الماضى إلى بيع  
الزيتون وهو على الأشجار؛ فلم يعد إنتاج الزيت يدر ربحاً.  
أصغى إلى نصيحتى. من الأفضل إنتاج النبيذ.

أما أنا فأعاند، ولا أرضخ ولا أرضى. ويقف دينو هناك ماسكاً  
بقبعته فى يد وفى اليد الأخرى ورقة مكرمشة، يحاول تهدئتى شارحاً لى  
كل شىء للمرة الألف، من البداية وبصبر متناهٍ.  
لقد فهمت جيداً؛ فأنا لست حمقاء.

ولكن أجد أنه من البشاعة أن نضطر إلى اقتلاع أشجار لا تزال  
قوية ومثمرة.

أجدنى عاجزة عن أن أشرح لدينو أن حقل الزيتون ذلك، قد غرسته  
أنا عام ١٩٤٦، فى نهاية شهر ديسمبر، وقتها كان هو حديث الولادة.  
كانت الرياح تهب عاتية وكنت قد استرددت عافيتى لتوى. سوف أقتلع  
تلك الأشجار إن وجب على ذلك، ولكننى لا أريد مالا فى المقابل.

يتمايل دينو وهو ينظر نحوى فى إحباط.

إن لم أكن أعرفه جيداً، لقلت إنه يفكر أننى أخرف، وأننى بمثابة  
نوع آخر من أشجار الزيتون المعمرة التى يود أن يقتلعها بكل سرور  
مقابل بضعة مئات الآلاف من الليرات.

المحامى فى طريقه إلى الوصول. فهو يتصل بى هاتفياً كل يوم اثنين ويقول إنه يريد أن يطمئن على صحتى. فى حين أننى أشك، منذ سنين، أن اتصاله التليفونى هو مجرد حجة ليدعو نفسه على العشاء مرة واحدة أسبوعياً على الأقل. نبدأ نتحدث عن أمور شتى، ويحكى لى أنه، على الرغم من اعتزاله المهنة منذ حين، إلا أنه لا يزال هناك بعض عملائه المرتبطين به.. من فلورنسا... والذين بمقدورهم أن يلجئوا إلى معارف كثيرين، ولكنهم مع ذلك يضعون ثقتهم فيه هو وحده، وفى نصائحه... طالما يمكننى أن أنفع شخصاً ما... فلم لا...

أما دينو، الذى يذهب عنده لإتمام بعض الأعمال المنزلية من حين إلى آخر، فيقول إن الأمور لا تسير على هذا النحو، وإن الهيكل العظمى الذى يدعى ريكورسى، يبقى طوال اليوم متكوماً على الفراش وبيده مجلة "ستيمانا إنجميستىكا" أو جالساً أمام شاشة التليفزيون وقد أصابته العنة.

وهكذا أقرر أن أدعوه، وأفتح زجاجة نبيذ وأطلب من لاسانتا، زوجة دينو، أن تحضر كعكة البندق والكفتة.

أذهب إلى حجرتى، كى أستعد لمقابلته. آخذ على الأخص منديلاً من الدرج وأبلله ببضع قطرات من العطر. وعندما يصل المسكين ريكورسى أضغط بالمنديل على أنفى كما وإن كنت أعانى من نزلة برد.

إن ريكورسى المسكين، ويا له من اسم يُطلق على محامٍ (\*). يدخن بلا توقف وقد أصبح الآن متشبعاً بالنيكوتين مثل طفاية السجاير. أنا لا أحمل هذه الرائحة؛ لذا أعطى أنفى بالمنديل. ودائماً ما تبدأ المحادثة بيننا بهذه الكلمات، وبإيقاع أوبرا تراجيدية:

- أيتها الكونتيسة العزيزة، من غير المعقول، ألا يزال عندك ذلك البرد اللعين؟!

- سوف يزول، سوف يزول سريعاً يا حضرة المحامى.

- لكن اسمحى لى... حضرتك تقولين هذا كل مرة... هل عرضت نفسك على طبيب؟

- تذكر يا حضرة المحامى، الكلمات الثلاث:

الخدم، المال، الصحة. على أيامى، أقصد أن أقول على أيامنا، كان الحديث عن هذه الأمور الثلاثة أمراً لا يغتفر. ألم يقولوا لك هذا أنت أيضاً؟

رفع المحامى كتفه قائلاً:

---

(\* ) معنى اسم "ريكورسى" طعون (المترجم).

- لا أتذكر. ربما لا، كونتيسة، لم يكن أحد يقول لى هذا. بل، على العكس، إن أردتِ الصدق... كان الحديث الدائر فى بيتنا دائماً هو حديث المال والصحة. لم نكن نتحدث عن الخدم؛ لأنهم كانوا غير موجودين. أتعرفين، يا كونتيسة، أن أبوى كانا من الفلاحين؟

- مرة ثانية، يا حضرة المحامى؟

- هل ذكرت لك ذلك من قبل؟ أتعرفين أنه فى العام الذى وكدت فيه حدث سيل وولدتنى أمى فى الشارع، بينما كان والدائ يحاولان الهرب إلى الجبل، ليس فى الشارع بالضبط، وإنما فى مزود للأبقار، خلاصة القول فى ما يشبه الإسطبل تحت جبل الأميات؟

- أيها المحامى العزيز، يبدو لى إنه ميلاد...

انطلق ريكورسى يضحك ويقرقر ضحكاً.

ثم يدمدم قليلاً ويقول إنه يعى جيداً أمور نزلات البرد والسعال؛ لأنه قام بدفن ثلاث سيدات، أعرفه منذ خمسين عاماً وأعلم أنه لا يقصد أن يتمنى لى الشر؛ فهو بالفعل قام بدفن ثلاث سيدات، الحماة والزوجة والأخت، فى فترة زمنية قصيرة، ثم بقى وحيداً.

ويُعد هذا بمثابة نجاح بالنسبة له، وهو الشخص العنيد المتشدد؛  
إذ لم يكن يروقه على الإطلاق ما كانت تفيده الإحصائيات بأن السيدات  
أطول عمراً من الرجال.

والآن فهو يرى أنه سخر من علم الإحصائيات والطب بضربة  
وأحدة؛ حيث إنه كان يدخل علبتين سجائر في اليوم الواحد. ربما كان  
محققاً، ربما استهزأ بهما معاً. ولكن ما الذى جناه؟ جنى فقط بقاءه  
وحيداً كالكلب، وأززار الصديري نصفها مخلوع والعديد من البقع  
الغريبة المصدر تنتشر في أماكن متفرقة من سرواله؟ جنى تسول  
الدعوات على العشاء لدى جيرانه، كما يفعل معي؟

يسعل ريكورسى ويعطس هذا المساء؛ إذ أصابته نزلة برد قوية.

- اطمئن يا حضرة المحامى، البرد هو داء الأصحاء.

أراه يبتسم. أقدم له كوباً من النبيذ، فيتجرعه مرة واحدة. وبعدها  
ينهض، فى حيرة من أمره هل يرحل عائداً إلى منزله أم يبقى بعض  
الوقت. ولكننى لا أشجعه على البقاء؛ بل إننى أود أن أنهى هذه الأمسية  
عند هذا الحد.

يهمهم المحامى وهو ينحنى ليقبل يدي:

- لقد شخت سريعاً، أليس كذلك أيتها الكونتيسة؟ وليس هذا هو  
حالك أنت؛ فأنت لا تزالين مثل اليوم الذى عرفتك فيه، وكنت قد

وصلت هنا لتوك، منهكة من المدينة، وكانوا يقولون في البلدة،  
إنك سوف تسأمين الريف سريعاً. دون أية إهانة، هل سبق  
وأخبرتك عن رأيي فيك؟ إنك جميلة للغاية حتى تقيمي هنا.  
طريدة عابرة، تأتي على حين غرة ثم ترحل ثانية دون مبرر، في  
سكون كما جاءت. ولكنك على العكس بقيت. تعلمين القول الذي  
يؤكد بأن الكرم مثل القرع... ولكنك على العكس التصقت  
بأشجار الكرمة وانغرست فيها مثل خيال المآة.

- أتعرف يا ريكورسى ما هو معنى أصل كلمة "المحمية"؟ إنها كلمة  
قديمة جداً، تعود إلى العصور الوسطى ومن أصل قوطى. يحظر  
غابة، أو قطعة أرض، كان معناه إعلان أن هذه الأرض  
مخصصة فقط للصيد. هل كنت في رأيك، طريدة عابرة؟ إذن  
"فالمحمية" كانت هي المكان المناسب لى.

- لقد أخذت الكلمة من على لسانى. المكان المناسب.

### ٣

أنا لا أزال على قيد الحياة. حينما أقول هذا، فأنا لا أفكر فى  
الحرب العالمية الأولى والثانية، ولا أفكر فى الإنفلونزا الإسبانية التى  
حصدت فى عام ١٩١٨ وفى خلال أيام قلائل عدداً لا بأس به من

معارفنا، مثل الأتسة باراقاللى التى كانت تقوم بتطريز الملاءات لأمى، وأتذكر أنها كانت نحيفة للغاية، منكبّة تماماً على كومة من قماش الكتان المغضن، وكذا البائع الذى كان يعمل عند چينورى أو كان يأتى كل يوم خميس ليغسل نواب الثريّا. لا، لست أنوه عن الصراع الصامت مع إيقاع الوقت، ولا إلى ذلك الإحساس المقيت بالاعتراب الناتج عن مولدى فى مطلع القرن. ربما أكون قد نجوت من طبعى. من اضطراب بداخلى جعلنى أهيم من حديقة أمى الشتوية، حيث كنت أختبئ خلف الأريكة وقد سحرنى السكون ورائحة أشجار الليمون التى كانت تنتشر فى تلك الغرفة التى لم يكن يدخلها أحد، حتى وصلت إلى غرفة بأحد فنادق الأربعة نجوم، ستائرنا منسدلة، ويضمنى بين ذراعيه وأنا عارية، رجل بالكاد أعرفه.

كم عدد الذين بقوا على قيد الحياة من حولى؟ لا أحد هنا بالطبع، على تلال سيبينا، على بعد مسافة معقولة من بيتى؛ ولكن من بين كل أولئك الذين التقيت بهم، هناك آخرون أود أن أراهم من جديد. يعود دائماً إلى ذهنى، ذلك العام فى باريس فى ٣٧ شارع كامبون، حيث فقدت شيئاً ما بدا لى آنذاك أنه غير ذات قيمة. وإن تحدثت عن تروت وعن عينيه، وكيف لا أتحدث عن تلك العيون، القادرة على كشف كل ما فى قلبى وعلى طرد الخوف منه، هل يمكننى أن أغفل أولونى وكارلينو

والميريحي، الذى تُوفى وهو فى الثلاثين من عمره بسبب ضحكة، بالضبط هكذا، ضحكة بهيجة متواصلة وهو بين ذراعى إيريس، التى كانت بحق امرأة مرحة وخفيفة الظل. قد يقول سكورى الشنيع:

- إنه أنسداد بأحد الصنمامات، يا عزيزتى، جلطة قلبية، انقباض فى عضلة قلب ضعيف مثل الكريستال. الأمر هكذا بطبيعة الحال، ولكن من يهمه، فى نهاية الأمر، كيف تحدث الوفاة؟ أليس ما يهمنا هو فقط متى تحدث؟

كانت أمى تكرر على مسامعى دائماً هذه الكلمات:

- تذكرى أنهم ينظرون إلينا. الله هناك فى الأعلى، والموتى فى الجنة والملائكة التى تلازمنا وترافقنا، ترى كل شىء تفعلينه أو تقولينه. وحينما أكون شاردة البال، يتكفل الملاك بالأمر. فهو أبداً لا ينام ويعلم كل ماتفعلينه.

ذات يوم، وكان الوقت عصراً، علّق أنريكو على كلمات أمى قائلاً:- إنه إذن لجاسوس وضيع.

كان صوته عالياً جداً حتى أن أمى قد سمعته. رفعت السيدة وودروف حاجبها استنكاراً وأرسلتها أمى كى تنادى والدى الذى كان عليه أن يقرر طريقة العقاب.

كررت أمى قولها وهى تدير مفتاح الغرفة الصغيرة التى احتجزت بها أختى:- أعلم أن الملاك الحارس هو الظل الذى يعكسه نور الله، وأنه بدون هذا الظل، أنت لا تساوى شيئاً.

أضف والدى فى غضب لأنه كان يكره أن يقاطعه أحد أثناء انشغاله بأعماله:

- سوف تخرج من هنا حينما تدرك أنه لا يصح أن نتحدث بما لا يليق، كما أنك لن تتناول عشاءك هذا المساء.

بقى مفهوم ظل الملاك مفهوماً مبهماً لا يمكن إدراكه، مثل الذبابة التى تركز باستمرار على مفرش المائدة. ومع ذلك كانت فكرة الظل الخفى الذى يصاحبنا أينما ذهبنا لا تخلو من سحر خاص. وهكذا الحال الآن أيضاً بعد أن توقفت عن الاعتقاد فى الملائكة؛ ففى معظم الأحيان يبدو لى أن هناك مجموعة من الأشخاص تقف خلفى، ربما على شكل نصف دائرة، تماماً مثل صور الأفرح.

بالطبع هناك أمى، وأبى وأختى وذلك البريق الساخر فى عينيه، تماماً مثل آخر مرة رأيت فيها وهو مرتدٍ ملابس السفر.

وقد قال لى:- لا تتأثرى يا جميلتى الصغيرة، فإن لم أرجع من أفريقيا ستصبحين أكثر ثراءً.

أعلم أنه يقول هذا الكلام حتى لا يتأثر هو أيضاً؛ إذ قد أمعنوا  
فى تعذيبنا ونحن أطفال بقولهم لنا: - ممنوع البكاء أمام الناس، تذكرنا  
ذلك.

ومن كثرة ما كرروا على مسامعنا هذه الكلمات، فقد أصبح  
الإفصاح عن المشاعر والانفعالات شيئاً غير طبيعى تماماً بالنسبة لنا.  
يؤسفى أننى لم أبك وقتها، حينما عانقنى أنريكو. كان يضغط على  
بشدة بعد أن جذبنى نحوه، ولما كان قماش المعطف الخشن يوخزنى فى  
وجهى، فقد أفلت منه على الفور.

يؤسفى أننى لم أبق فى أحضانه مدة أطول، تلفنى أكتافه فى ذلك  
العناق غير المريح، لم أره أبداً بعد ذلك، وقبل مرور شهر كان قد توفى.  
لم أر دموعاً فى بيتنا، ولا حتى وقت وفاته. لقد أدركت ذلك بالحدس. وأنا  
على يقين تام من أن أمى كانت تغمر وسادتها بدموعها كل ليلة. كما  
أننى على يقين تام من أن أبى كان يبكى بمفرده فى حجرة مكتبه، وقتما  
كان يتظاهر بالبقاء فى الحجرة لترتيب أوراقه.

فى تلك الأيام الرهيبة من شهر يناير، لم تحن حتى ولا فرصة  
واحدة نجتمع فيها سوياً، نحن الثلاثة، ننظر فيها لبعضنا ونقول كم كنا  
نفتقد أنريكو. لقد استأصلوا منا طبيعتنا وتلقائيتنا، كما كانوا  
يستأصلون اللوزتين للجميع فى الستينيات.

وبطبيعة الحال، يوجد هو أيضاً خلفي، أعود لأفكر في تروت مرة ثانية. وفي الوقت الذي لم ير فيه كل معارفنا سوى سيد أنيق جذاب يمتاز بصوت به نبرة ضجر خفيف، رأيت أنا فيه شيئاً آخر مختلفاً، لن أقول أكثر من ذلك؛ فأية كلمة لن تفي بالغرض؛ لأنني رأيت في تروت كل شيء، على الرغم من أن ذلك قد يبدو تفكيراً أحمق.

#### ٤

كان "فبيورنو" هي هدية زواجي وقد قدمها لي إشبيني، وهو أيضاً واحد من أولاد خالتي. إنه شخصية أسطورية؛ إذ كانت الصدريات تُطرز له خصيصاً في المجر ويقال إنه كان يحب كونتيسة بولندية وأماً لكثير من البنات، رائعة الجمال وتتمتع بإغراء خاص، على الرغم من أنه لم يرها أحد قط. كان أنريكو يرتاب في وجودها أصلاً مفسراً للسيدة وودروف:

- أعتقد أنه اخترع وجودها، حتى يدعوه وشأنه فلا يحاولون بعد ذلك أن يزوجه من كل فتيات مدينة فلورنسا.

كانت إقامتنا لدى أفراد عائلتنا في فلورنسا مصدراً لمفاجآت لا تنتهي. كنا نصل أنا وأنريكو متعبين من السفر ومع ذلك كان لزاماً علينا أن نتبع والدينا في الحال للقيام بجولة من منزل إلى منزل؛ لزيارة بعض

أفراد العائلة الذين كنا بالكاد نتذكرهم، وبعض الخالات اللاتي يجب على أن أقدم لهن كل فروض الاحترام والتوقير دون أن تعثر رجلى بالسجادة.

لم يكن أجدادى من ناحية الأم لديهما "يوم محدد"؛ فقد كانا يستقبلان الضيوف باستمرار. كانت جدتى فى غاية الأناقة، فى كامل زينتها، وكانت حجرة الإستقبال فى بيتها لا تخلو من الزهور ومن الغرباء العابرين الذين لا نعرف من أى بلد أتوا. كان الخادم يظل ثابتاً بلا حراك عند باب غرفة الانتظار بأمر من جدتى، ولساعات طوال فى اليوم الواحد، كما هى العادة فى القرن التاسع عشر، وكانت مهمته هى إعلان قدوم الضيوف. كان يقوم بالشئ نفسه معنا أيضاً. ما كان أحد من الأطفال الآخرين الذين كنا نعرفهم يحظى بمثل هذه المعاملة. ولم يكن أحد منهم لديه جدة مثل جدتنا.

لقد كانت تثير إعجابنا بشدة، فبعد اجتياز غرفة الانتظار، كنا نجدها جالسة هناك، فى غرفة الاستقبال، تلمع وتبرق جواهرها وحليها، لا ينقصها شئ، أما نحن فكنا نرفع أكتافنا حتى نتأملنا ونحن فى ثيابنا الأنيقة التى جعلتنا أمنا نرتديها بهذه المناسبة.

كانت للحفلات التى تقيمها جدتى وتدعو فيها صفوة المجتمع مميزات أخرى ألا وهى الأنية الملية بقطع الشوكولاتة الصغيرة وقطع البسكويت والطحوى المسكرة المجففة وكان هناك خادم يقدم لنا نحن

أيضاً الشاي والعصائر المحلاة وفقاً للموسم. لم تكن جدتنا تأمرنا بمغادرة حجرة الاستقبال، كما كانت لتفعل والدتي، وإنما كانت تستمتع باستعراض حفيديها اللذين ينتميان لعائلة ساقوى - كما كانت تنادينا - واللذين كانا يقيمان بعيداً جداً. وأحياناً أخرى كانت تدعونا أيضاً "الحفيدين المصيبتين" bristù وهي كلمة أجنبية غريبة، واحدة من تلك الكلمات، الكثيرة، التي ما كنا نفهم معناها؛ لأن الجدة كانت تستعمل لغة خاصة بها، وهي مزيج من الفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى لغة مدينة فلورنسا، وعلى السطح تطفو بقايا من كلمات إيطالية وكأنها حطام سفينة غارقة، نجت ولا أحد يدرى كيف وسط هذا الزخم. كان يروق لنا كثيراً، أنا وأنريكو، أن نوصف بالساقوى وبالمصيبتين وما كان يخطر حتى على بالنا من قريب أو من بعيد بأن الجدة كانت تقصد أن تقول إننا مؤذيان أو مزعجان.

على أية حال، كانت هي وضيوفها سرعان ما ينسوننا ويتركوننا وشأننا. كان الانشغال بالأطفال، في ذلك العصر، يعد أمراً لا يليق بالوجهة، وبالتالي لم تكن مسائل الأطفال تُناقش في الصالونات، فالاهتمام بالأطفال كانت مهمة مديرات المنزل. وكنا أنا وأنريكو وقتئذ نظل طوال فترة العصر نراقب السيدات الأنيقات وهن يرحن ويغدون، وملابسهن تمتاز بموديلات أكثر تحرراً من تلك التي كانت ترتديها صديقات أمي، وكن يملن إلى الضحك أكثر والتحلى بألوان أكثر تنوعاً.

أدركنا مع شيء من الغموض والالتباس أن الحياة في مدينة فلورنسا كانت مختلفة وأنه بمجرد خروج أمى من مدينة تورينو، كانت هي أيضاً تبدو امرأة مختلفة.

من يدري؟ ربما هذا هو ما كان يدعو أبى إلى عدم الذهاب إلى فلورنسا إلا نادراً.

وبفضل هذا الوعي المرتبك المتحير بغرابة عادات أفراد العائلة المقيمين في فلورنسا وخروجهم عن المألوف، لم أندesh كثيراً حينما أهدانى إشبيني فرساً من نوع كمرجوى مزداناً بشريط أحمر كهديّة عرسى، بدلاً من قطعة مجوهرات كما كانت العادة آنذاك. كانت الفرحة التي غمرتني دليلاً على أن المفاجآت الطيبة الجميلة من جانب عائلة أمى ستفوق بكثير المفاجآت غير السعيدة.

كان الحصان فيبورتو أسطورة تماماً مثل ابن خالتي وعشيقته البولندية. فقد كانت حركته قوية ثابتة وانسيابية، وخصوصاً في المنحنىات الضيقة. كان يرفع قدمه عالياً جداً، أكثر مما تفعل خيول الـ كمرجوى عادة وكان ينطلق كالصاعقة إن تُرك له العنان كي يعدو ويركض. نعم كانت رأسه تميل إلى الضخامة، ولكن كان ظهره قصيراً وصدرة واسع متماسك مما كان يمنحه جمالاً خاصاً.

كان زوجى قبيلافورستا يعتبره جواداً فظاً، غير لائق بسيدة؛ لأنه مندفع بشكل زائد عن الحد.

- فرس هدية زواج، يا له من سُخْف! ذوق أولاد خالتك فى فلورنسا  
لا يتناسب مع قواعد الإتيكيت واللباقة.

كان يقصد أن يقول:

- لماذا لم يهديك سواراً أو حجراً من الأحجار التي تتوارثها  
العائلة؟

وكنت أفكر كيف أنه من الواضح جداً أن شيللافورستا لا يفوت  
فرصة يؤكد فيها على أنتى لم أحصل إلا على مصوغات قليلة جداً من  
أسرتى؛ فأمى لا تقبل الانفصال عن مجوهراتها، وأبى وهب كل شيء  
لأخى أنريكو وكان الازدراء الذى يحسه فرنشيسكو تجاه أفراد عائلتى  
المختلفين الموجودين فى فلورنسا يمتد تجاه الجياد الخاصة بى، فعندما  
كان الحديث يتطرق إلى قيبورنو، كنت أسمعه يؤكد، باقتناع وتصميم  
عنيد، أن الحشائش والعشب النحيل والأبخرة الفاسدة التي تنبعث من  
دلتا نهر الراين قد أفسدته بشكل لا يمكن تداركه. على الرغم من أنه  
كان لا يحبه، إلا أنه لم يجرؤ أن يفعل به ما فعله، فيما بعد، ب بيك.

كان بيك جواداً هجيناً من أصل أيرلندى. كانت طريقة حركته غير  
مستقيمة ولكنه كان يعرف الاتجاه وحده كما يحدث فى العادة مع أى  
جواد على درجة عالية من التدريب. كنا نفهم بعضنا فى الحال.

كان جواداً عصبياً، يقزع لأقل سبب، ولكنه حينما كان يشعر بأبنى  
أرغب فى الركض، كان ينطلق بكل سرعة وينهك نفسه حباً فى.  
كان فيلافورستا يمقته ويقول إنه خطر وكثيراً جداً ما كان يردد  
قوله:

- سوف تنكسر عظمة رقبتك وأنت تمتطين هذا الحيوان؛ فأنت لا  
تتحكمين فيه، ولقد فهم ذلك الشيطان حقيقة هذا الأمر. واحد  
فقط من بين الاثنين، الجواد والفارس، هو الذى يأمر، وحصانك  
يعلم هذا، فلست أنت من تقودين.  
وكنت أجييه فى ضيق وضجر:

- هذا هراء. ليتك تتركنى أنا أهتم بجيادى. واهتم أنت بجيادك.  
وعندما كان بيك، الذى كان يرتاع من صوت الرعد، يصهل خوفاً،  
كان فيلافورستا يثور غاضباً لأنه هكذا كان يثير عصبية الجياد  
الأخرى، على حد قوله.

كان دائماً ما يؤكد أن الذنب ذنبى؛ لأننى جعلت منه جواداً جباناً  
من كثرة بقائى معه فى المكان المخصص له أثناء العواصف؛ وقد أفسدت  
كلماتى التى أهمس بها فى حنان وعطف فى أذن بيك وملاطفتى له من  
طبع الجواد.

ذات يوم، ودون سابق إنذار، عاد زوجى إلى البيت وقت الغذاء  
وبصحبه شخص ما هزيل نحيل ومبتسم. عرف الشاب نفسه قائلاً:

- أنا طيب من مدينة كونيو، شغوف ومولع بالحياد.

مكثت بلا حراك وبلا كلام؛ فقد فهمت فى التو. أعربت عن  
احتجاجى بالنظرات فقط وكان احتجاجاً ضعيفاً تلك المرة أيضاً؛ فلم  
أناضل للدفاع عن بيك، ولم أقل شيئاً وتركت فيلافورستا يدهس بقدميه  
حى لذلك الجواد ويتخلص منه ويبعده عنى للأبد.

فإن كنت قد شرعت فى البكاء والتوسل، وإن كنت قد ألقيت أرضاً  
زهريه من الخزف أو أطحت ببراويز الصور من فوق المنضدة الصغيرة،  
فبالتأكيد ما كان ليصر على فعلته؛ لأنه كان يأنف من أصوات الجلبة  
واللغط. غير أننى بقيت صامته؛ لقد استسلمت، فى الظاهر فقط. وليفعل  
زوجى ما يحلو له بشأنى ويعواطفى ويجوادى. أبيت أن أجد تعليلاً  
وتفسيراً، ما كان لينفع فى شىء، أحقاً لم يكن زوجى قد أدرك بعد كم  
كنت مرتبطة بـ بيك؟ أو لعل الأمر لم يكن يعنيه فى شىء؟ ومع ذلك  
ابتسمت، ولكن كان يثور بداخلى غضب أعمى وعارم.

فى الثلاثين دقيقة تلك، تم شىء آخر، بخلاف عملية بيع الحصان  
بيك. لقد تبلور بداخلى ثمة قرار وانجلت صورة فيلافورستا أمامى كما  
لم أرها أبداً من قبل.

صوت ابن خالى أودونى منخفض النبرة وعذب جدا. يسقط الجليد فى الخارج، كما هو الحال دائماً فى شهر فبراير. يسقط الجليد ببطء، على شكل نديفات كبيرة، تتمايل قليلاً نظراً لعدم هبوب الرياح.

- عليك أن ترحلى، يا عزيزتى. اتركى المدينة. لا تستسلمى للإحباط بهذه الصورة. لقد أصبحت فى موقف مهين بشكل لا يمكن السكوت عليه.

أصبح لزوجى صديقة منذ شهرين. وكل مدينة تورينو تعرف ذلك. امرأة ذات ماض، كما يقول والدى، والذى لا يقدر أن يتفوه أمامى بكلمة "عاهرة".

تحاول أُمى أن تنتقص من أهمية الأمر فتقول وهى تغض الطرف قليلاً: - لا بد إنها واحدة من تلك النساء المهذارات اللطخات بالألوان اللاتى يحمن دائماً حول الرجال. ومع ذلك، فالأمر بطبيعة الحال بغيض بالنسبة لنا جميعاً.

لقد تجاوز فرنشييسكو كل الحدود التى تخيلها والداى؛ إذ لم يكتف باستئجار شقة صغيرة، وإنما قام بشراء واحدة خلف كنيسة أمنا العذراء. ولقد استغل الموجود فى بيتنا لتأثيث هذه الشقة؛ لم أحك لأحد مقدار المهانة التى شعرت بها ذات صباح وأنا أرى اثنين من الشياطين

يدخلان بيتى وبدون مقدمات كثيرة أخذًا الأريكة المصنوعة من قماش  
المُخمل ذى اللون الفيروزى، ومصباحين كبيرين من النحاس، والمقعد  
الوثير من الجلد الأحمر الموضوع فى حجرة المكتب وصندوق كبير به  
ملابس فرنشيسكو.

ويقول أودونى: - لقد كساها بمجوهراتك، كما وضع فى يدها كأس  
شمبانيا وأوصاها أن تمسك بالكأس هكذا، ملىء حتى منتصفه، دائماً  
صباحاً ومساءً.

أجيبه بصوت خافت جداً: - المجوهرات ملكه.

لا يمنحنى أودونى هدنة بل يحكى لى كيف أن هذه العاهرة ترتدى  
ملابس مثل ملابسى لأن فرنشيسكو أراد أن تتعامل مع نفس الخياطة  
الخاصة بى.

يستطرد أودونى قائلاً: - حقاً، يا عزيزتى، لا يمكن أن تصدقى كيف  
تبدو هذه الملابس مختلفة. فما ترتدينه أنتِ ويبدو عليكِ رقيقاً، عليها هى  
يبدو مثيراً.

أنهض من مقعدى وأقترب من النافذة. يخيل إليّ أن الجليد الذى  
يتساقط هو ورقة نقوم بتقطيعها إلى فتات صغيرة جداً، أو مجرد خطاب  
نرغب فى تمزيقه ونسيانه. أنا أيضاً أود أن أنسى. إن أودونى لا يفهم

هذا، وحماسه هذا واندفاعه يثير غضبى، ينهض واقفاً هو أيضاً ويقترب منى، لا ألتفت نحوه، غير أنني أشم رائحة عطره وهذا يضايقنى.

أستعد، بعد كل هذه السنين، لمواجهة فضيحة، إن سلوك فيللافورستا المعيب قد زدنى بالقوة اللازمة التى كنت فى حاجة إليها.

أعتقد أنني سأترك مدينة تورينو لبضعة شهور، وربما لبضعة أعوام. لم أقرر بعد ما إذا كنت سوف أبتعد وأذهب إلى إقليم توسكانا، أم لا. حُيِّلَ لفرنشيسكو أنه يمكنه أن يبقينى متعلقة به بالقوة والشدة، كما وإن كان إيذائى يعادل، بطريقة ما ملتوية، الاستحواذ علىّ. ليس كذلك. تنزلق تصرفاته الشريرة من علىّ، دون حتى ملامستى. بالفعل أنا بعيدة عنه وبالجسد أيضاً.

سأقيم بمفردى فى شقة صغيرة بالإيجار. أو سأنتقل إلى سان بياچو. إنه منزلى. منزلى أنا وحدى. لا يخص فرنشيسكو ولا يخص والدى.

سوف يُصدم الأصدقاء المشتركون بيننا، وأنا على يقين من أن والدى سوف يقومان برحلة لزيارتى يتوسلان إلىّ أن أضع نهاية لهذه المهزلة، وأن أغفر ما يسميانه بـ "ضعفات" فرنشيسكو، وألا أبرح مكانى وأتجنب إحداث جلبة أو لغط.

وتتكرر هذه الكلمات على لسان أمى دائماً:

نحن، لسنا من أولئك الذين نستهدف جذب نظر الناس.

أصطحب أودونى حتى الباب، بيتسم لى وهو يرتدى قبعته ويقول

معلناً:

- أقام فرنشيسكو دعوة غذاء الأسبوع الماضى فى دار ضيافة  
النادى. ذهبت إلى هناك وكانت يولى تقوم باستقبال المدعوين، كما لو  
كنت أنت، أندركين معنى ذلك؟ إلى متى تعترمين احتمال هذا الوضع؟

نعم أنا ألاحظ هذا . فرنشيسكو ينتهز كل فرصة لإذلالى. من المؤكد  
أنه ارتأها فكرة مسلية أن يأخذ عاهرة من بيت بغاء ويجلسها فى حجرة  
الاستقبال بدلاً منى.

وقد تعقب أوى بقولها إنه مجرد استعراض وإنه لأمر بشع أن

يستعرض.

## ٦

اكتسبت عادة جديدة، وهى أننى أستيقظ كل صباح وقت الفجر

وأمتطى الجواد بيتشيتو، فى منزل أودونى.

عائلة كالاندرام هم أصحاب حقل الفالكونيا.

كان أحد جدودي، وهو عالم نباتات هاو، قد قرر مثلما هو حال أبناء كثيرين ممن هم أصغر الإخوة، فى نهاية القرن الثامن عشر وفى عصر تميز بالعداء لرجال الأكليروس ومن ثم عدم الرغبة فى ارتداء ثوب الكهنوت، قرر هذا الجد إقامة مشتل نموذجى لنباتات الزان وهم الآن يمتلكون حقلاً كاملاً من أشجار الزان الأكثر جمالاً فى كل إقليم بيمونتى. لم يكن أحد يعلم ما إذا كان الجد قد أحرز نجاحاً كصاحب مشتل؛ وإنما كان الكل يعرف أنه أبداً لم ير عينات النباتات التى غرسها بعد أن نمت وكبرت لأنه مات بعد بضع سنوات قليلة بمرض الإنفلونزا وبسبب نقص المضادات الحيوية؛ غير أن تلك المبادرة المفاجئة الخارجة عن المؤلف أثمرت للورثة عن متنزه يدعو اليوم للعجب والدهشة.

وقد انتقل القليل من هذا الميل لحب النباتات حتى وصل إلى أودونى، آخر ذرية الـ كالاندر، صانعاً منه خبيراً ماهراً فى أعمال الحدائق، إذ يمضى ساعات فى الحديقة حاملاً المقصات ومرتدياً الحذاء الطويل الرقبة الذى يصل حتى ركبته، يشذب ويربط ويبذر ويغرس العُقل. الورود هى عشقه الكبير. ويمتلك خلف البستان مجموعة صغيرة من الورود الفرنسية التى تنبعث منها أجمل الروائح وتزدان بأروع الألوان فى فصل الربيع.

وكما استطعت جئت إلى هنا عند أودونى صيفاً وشتاءً.

إن أودوني ليس فقط بصديق طفولة وابن خال من درجة بعيدة، وإنما هو شخص سوف يعتنى بى دائماً.

وأنا أعرف هذا منذ أن كنت صغيرة؛ فقد كان يعتبرنا أنا وأنريكو معبودين ونحن فى سن الصبا. لقد كان طفلاً نحيفاً وكانت مربيته تعامله كما لو كان مصنوعاً من الزجاج.

لم يكن مسموحاً له أن يجرى، ولا أن يتسلق الأشجار، لم يكن يُسمح له بأن يقرأ مساءً حتى لا ينهك بصره الضعيف إذ كان قصير النظر، كان مجبراً على أن يلزم بيته إن سقط المطر أو الجليد أو كان الهواء شديداً، أو انخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ. لقد كنت أنا وأنريكو نتمتع بحرية أكبر بكثير. وكان نصيب كبير من حريتنا يرجع بصورة مباشرة للأسلوب الذى اتبعته مربيتنا الإنجليزية. فبالنسبة للسيدة وودروف، ليس هناك طريقة نبدأ بها يومنا فى الصباح أفضل من حمام بارد، فى الشتاء كما فى الصيف أيضاً، وكانت ترغمنا على النوم والنافذة مفتوحة. كان لزاماً علينا أن نمارس الرياضة، أيما كانت حالة الطقس؛ وكانت إجادة ممارسة أنواع الرياضات كافة شيئاً أساسياً لا غنى عنه، بدءاً من ركوب الخيل والتزلج على الجليد، ومروراً بالسباحة والتنس وانتهاءً بالصيد.

وبناءً على تعليمات أصدرتها السيدة وودروف للحارس الذى كان يرافقنا أثناء الصيد، فقد علمنا استخدام بندقية الصيد ونحن فى

الحادية عشرة من عمرنا، وفى الثانية عشرة اصطاد أذى أول ديك برى فى حياته، أخذهُ والدى وصبرهُ وهو لا يزال حتى اليوم فى حجرة مكتبه.

كان محظوراً تماماً على أودونى أن يقضى أوقات فراغه على هذا النحو. كانت أمه، الخالة كاميللا، امرأة جميلة وغبية لا تريد مضايقات من أى نوع؛ لا داعى للمشاكل، كان هذا هو المغزى الذى انطوت عليه طريقة تربيته لابنها الوحيد، الذى وُلد بعد ثمانية أشهر وكان يزن أقل من الوزن الطبيعى. وفى قساوة غير مقصودة تختص بها الأمهات القلقات بطبعهن، كانت والدة أودونى تبلغه بتفاصيل اكتشافاتنا ومغامراتنا الجريئة، ربما فى محاولة منها للتشكيك فى طريقة تربيتنا المحفوفة بالمخاطر؛ غير أن النتيجة جاءت عكسية تماماً، ما دفع أودونى إلى مزيد من الكآبة والحزن كل يوم إلى أن أصبح صبيّاً حزيناً منطوياً وهو بعد فى الثالثة عشرة من عمره.

كان يعيش على الأحلام ويمارس أنشطة قليلة مسموحة لا تثير ضجره بشكل يدعو للدهشة. وعند بلوغه الثانية عشرة، كان أول نجاح حققه هو أنه جعل الورود المتسلقة تتكاثر على عقلة كان قد غرسها، ثم أحرز بعد ذلك نجاحات أخرى كثيرة على مدار السنين. كما حوّل الحديقة الجافة التى توارثها عن أبيه إلى حديقة غناء مليئة بالجمال الساحر. كان يقوم بتجميع النباتات بحماس عالم النبات، ولكنه كان يمزجها مع بعضها فى أشكال متوافقة بديعة بحب وإبداع الفنان.

أنتقل إلى بيت أودوني بمجرد أن أستطيع. وقد تعاهدنا سراً أنا وأودوني على ألا يطرح أى منا أسئلة لا يرغب الآخر فى الإجابة عليها. أنا لا أسأله أين يذهب فى بعض أمسيات الشتاء، وقد تدثر بمعطفه الداكن، ولماذا يغشى عينيه أحياناً شجن ومرارة؛ وهو بدوره لا يسألنى ما الذى يدفعنى إلى المجيء هنا، كى أهرب إلى الإصطبل وأمتطى جواداً، متخذة الطريق الصاعد نحو التلال التى تمتد إلى الأفق البعيد وحتى مرمى البصر؛ وأتسلل عبر الطرقات الواسعة، ممتطية ظهر جواد عصبى ولكنه نكى فأنسى فرنشيسكو وكل هذه الصغائر، ولا أفكر فى شىء البتة وتصيح تورينو مجرد بقعة بعيدة، ضباب على ضفاف نهر الـ بويشبه نفخة النفس فى الهواء البارد.

لقد اضطررت لأن أبيع جيادى؛ لأنه بدون مساعدة فيللافورستا لا يمكننى الإنفاق على تربيته، حيث إننى قمت باستثمار كل عوائدى وإيراداتى المالية حتى آخر فلس منها فى العزبة الموجودة بـتوسكانا والتى ورثتها حال وفاة أختى. قبل رحيلى عن المنزل، ومع بداية فصل الشتاء الذى يدوم طويلاً فى إقليم بيمونتى، ببرودته القارسة وضبابه الكثيف، فضلاً عن فرنشيسكو الذى يزداد قسوة مع الأيام، كان لا يفارقنى أبداً التفكير فى "المحمية"، وفى التلال الثرية بالغابات، والمزرعة ذات الفناء المغلق وتلك الألوان الوردى والأصفر والأزرق الزهري التى تمتد بعيداً فى الأفق.

ما كنت لأعتقد أنني سوف أكن كل هذا الحب لذلك الحقل التوسكاني الذي آل إلى والدي بعد فوزه في اللعب ذات مساء في النادي. كان فرنشيسكو يريدني أن أبيعته. كذا والدي أعربت، بعد مضي بضع سنوات، عن رغبتها في أن يتخلص منه والدي ويعرضه للبيع.

أما هو، ولأنه كان يشعر بالخزي من فوزه بأرض زراعية واسعة كانت تخص صديقاً له، فقد كتبها على الفور باسم أنريكو. وقال لأمي:- لم تعد ملكي يا إلينا، لا أستطيع أن أبيعها. إنها ملك الفتى، وسيقوم ببيعها هو إن أصر على ذلك.

كانت أمي تضغط على شفتيها حتى تجعلهما شاحبتين من شدة غيظها، ولكنها كانت تلتزم الصمت. ثم تعود فتهمس بصوت خافت:- لا يروق لي هذا الأمر؛ فالمسكين روبرونت استودعنا أرضاً زراعية وهو حتى ليس بكافور. فلن يذكره التاريخ كرجل دولة ورجل سياسة عظيم له نقطة ضعف وهي المقامرة، وإنما كشياطان أخرق دمر حياة أبنائه. وأنت السبب في هذا الدمار.

كان أبي لا يجيب.

كانت كلمات أمي تحمل في طياتها تهديداً ضمنياً مستتراً. ذلك التلميح الذي يبدو في الظاهر أنه بلا قصد ويشير إلى التاريخ الذي يدين وإلى الذرية التي تعاني البؤس والفقر، كل ذلك يعيد إلى ذهن

والدى قصصاً ومشاهد من الكتاب المقدس تتحدث عن تأديب وويلات وبلايا. كان يتوه ببصره فى الفراغ. فماذا كان بوسعه أن يفعل غير هذا؟ يعيدها إلى صديقه؟ لا يجوز حتى مجرد التفكير فى ذلك، سيكون ذلك التصرف بمثابة إهانة شديدة لـ روبرونت؛ إذ ينبغى تسديد ديون المقامرة بنأى ثمن، وإلا سينتقص هذا من شرف السيد النبيل. أيقامر عليها مرة ثانية؟ ولكن هذا سيجعلها تقع فى يد أشخاص آخرين، الأمر يستحق إذن الاحتفاظ بها.

أما بالنسبة لرهنها فى المقامرة لتمكين روبرونت من استعادتها، فهذا يستلزم إقناع ذلك المسكين بالجلوس مرة أخرى على مائدة القمار، وهو الشيء الذى ما كان ليفعله أبداً مجدداً بعد أن خسر أرضه.

فى النهاية، قرر والدى أن أنسب الطول للخروج من المأزق هو إهداء قطعة الأرض لـ أنريكو؛ الذى كان يبلغ حينئذ ستة عشر عاماً أو أقل. وما كان يعنيه فى شيء امتلاك أو عدم امتلاك قطعة أرض فى مدينة سيينا؛ فقد كانت تبدو له أرضاً بعيدة، غريبة، تماماً مثلما كان يحسب أية جهة أخرى تبعد ساعات طويلة عن مدينة تورينو وعن وسائل وأماكن الترفيه المفضلة لديه.

ورثت "المحمية" حال وفاة أنريكو، وغدوت أكثر ثراءً من أى وقت مضى. لم أحصل على شيء البتة من زوجى، إذ قد مُنحت فقط حق استخدام البيوت والمصوغات؛ أما بالنسبة لمهرى، وهو مبلغ مالى كبير

فى شكل أسهم، فقد سلمه والدى لفرنشيسكو، ومن ثم ضاع وفُقد. من  
يدرى كيف؟ تجنب الجميع الحديث عن هذا المهر، كما لو كانت عائلة  
فيللافورستا قد عثرت على قارعة الطريق، أحمل بيدي سلة زهور  
القرنفل وأبيعها للسادة النبلاء حتى يضعوها فى عروة رداء الفراك،  
تماماً مثلما يحدث لبائعة الزهور فى مسرحية كوڤنت جردن.

وإذ بأرض زراعية مساحتها ثلاثمائة هكتار يتركها شقيقى لى ولى  
أنا وحدى.

بحلول نكبة وفاة أنريكو، بدا لى أن بلية الغم والكرب الشديد كما  
جاءت فى الكتاب المقدس قد أصابتنا فى النهاية. كان يملؤنى سخط  
أصم لفترة طويلة من الزمن، كما يحدث للأطفال. ويغمزنى إحساس  
تشويه بعض الحيرة من وجود علاقة بغيضة بين موت أخى وهذه الأرض  
التي نملكها فى إقليم توسكانا والتي كانت أمى دائماً ما تتحدث عنها  
بحسرة وألم. كما لو كان أنريكو قد أراد الموت ليترك لى "المحمية"؛ شىء  
مناف للعقل، بالطبع. ولكن ما لا يقل غرابة أنه، برجوعى للخلف فى  
الزمن، أدرك كيف كانت الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ينتشر  
فيها مرض الأنفلونزا الإسبانية التي حصدت وأبادت الكثيرين، وقد كبر  
أخى فى هذه الحقبة ومع ذلك ذهب يبحث عن وفاته فى أرض بعيدة، فى  
قلب قارة أفريقيا، وكان هذا بفضل عيب تصنيع فى خرطوشة بندقية  
صيد.

على أية حال، فعندما هدأت واستسلمت لفكرة موته، عقدت العزم على التخلص من هذه الأرض وإعادتها لملاكها الشرعيين، بموافقة أو بدون موافقة أبى. ثم ذهبت إلى هناك كي أرى بنفسى ماذا ورثت عن أخى وعلى العكس قررت أنه بالرغم من شدة الأسى والقنوط الذى يمتزج بهذا الميراث الآتى من مصدر غير عادل ولكنه مشروع، وبالرغم من الخلاف الكبير الذى نشأ بين أبى وأمى بسببه؛ فأنا لم أكن أود أن أستغنى عنه؛ فقد كان البيت الكائن فى سان بياجو آيل للسقوط.

وأبدأ لم ينشغل أفراد عائلة روبرونت بهذه الأرض، بل كانت لهم أملاك أخرى فى تلك الأرض الخصبة السهلية التى تدعى رونيونى فى إقليم بيمونتى؛ حيث كانت المزروعات تنمو تقريباً دون تدخل بشرى، كما يقولون. لم يكن لديهم لا الوقت ولا المال لينفقوه على أرض وعرة مأخوذة من الغابة؛ حيث تندز مياه الرى صيفاً فى حالة ما إذا تهدم أو انهار بئر المياه وحيث تتهشم الأدوات على الصخور. كانت هذه الأرض تكلفهم مالاً كثيراً جداً.

كان إدو، الفلاح العجوز، يضع دلاءً وأحواضاً فى كل أرجاء المنزل حيث كان القرميد الذى حركته الرياح من مكانه يسمح بسقوط مياه الأمطار شتاءً، وكان يعتنى أيضاً ببستان صغير وبعض أشجار الكروم. كان يقوم بقطع أشجار الغابة، غير أنه كان يضمنه رعاية أشجار الزيتون. كان الأمر يستلزم مالاً وسواعد قوية وتصميمًا، وأيضاً الكثير

من الوقت. وصلت هناك وأدركت أنه لدى التصميم وكل الوقت المطلوب وأنه بقليل من الحظ سوف يكون باستطاعتي تدبير مبلغ من المال مما يمكّنى من استئجار بعض العمال القادرين على ضبط الأمور وإعادتها إلى طبيعتها. أولاً البيت، ثم بعد ذلك الأرض وفيما بعد، من يدري، ربما كان بالإمكان تخصيص مكان لإقامة حديقة.

بمجرد عودتى إلى تورينو، طلبت مقابلة والدى والحديث معه. نظر إلىّ فى دهشة واستغراب، وعيناه تظللها خيبة أمل، ثم دعانى للدخول إلى حجرة مكتبه. وبإشارة من يده جلست أمام مكتبه، كما كان يفعل مع مدير أعماله. لم أقل شيئاً عن فيلا فورستا، وكذلك أبى لم يتحدث عنه. طلبت منه نصيبي فقط.

– لقد حصلت بالفعل على نصيبك، يا صغيرتى العزيزة. أعطيناها لفرنسيسكو عندما تزوجت.

– لا أتحدث عن هذا النصيب. وإنما عن نصيب أنريكو. لقد ترك كل شىء لى، هذا هو النصيب الذى أريده.

رأيته يحنى رأسه، فى حركة لا أعرف بالتحديد هل هى حركة تنم عن هزيمة، أو عن ألم أو عن تأثر. ظل صامتاً، مرتكزاً بذقنه على يديه، ونظرتة باهتة كعهده منذ أمد بعيد.

بعد ذلك بأيام قلائل، قمت بتوقيع بعض الأوراق والمستندات أبيع بمقتضاها لحساب أبي وأمي ما كانا قد خصصناه لأنريكو في حياتهما وما كان أنريكو قد نوى أن يتركه لي، بالنظر إلى شخصيته، وهذه هي كلماته: - لا تتأثري، فإذا لم أعد فسوف تصبحين أكثر ثراءً.

في تلك الليلة، ذهبت إلى فراشي ويقين ما يملأ قلبي؛ ألا وهو معرفتي بوجود مكان خاص بي. كنت أعرف أنني في كل مرة أريد أو حينما تصبح الحياة الزوجية والتزاماتها الاجتماعية غير محتملة وثقيلة عليّ، فسوف يكون متاحاً لي مكان أذهب إليه وأحتمي فيه.

-٣-

الخصر النحيل



قمت بتجميع كل أوراقى. راجعت التقويم وفكرت فى تاريخ محتمل. قبل أن أقرر الاتصال، سألت نفسى مائة مرة إن كنت أرغب بالفعل فى أن أدعو كل هؤلاء إلى هنا فى "المحمية". ثم، لماذا أولئك الأصدقاء فقط، من بين الاشخاص الكثيرين الذين عرفتهم طوال حياتى؟ لماذا تلك المجموعة الصغيرة التى أتت هنا ذلك الصيف قبل عدة سنوات مضت؟ من حين لآخر، ينبغى أن نأخذ قراراتنا ثم نترك الأمور وليحدث ما يحدث.

اتصلت هاتفياً بـ نينا. جعلت الهاتف يرن طويلاً، وفى تلك الأثناء كنت أتساءل هل أخشى وجودها أم أخشى أكثر من عدم وجودها. فى النهاية، وعندما كنت تقريباً على وشك أن أتخلى عن الفكرة، أجابت نينا. لا تزال نينا تحتفظ بنفس نبرة صوتها، كان هذا هو أول ما فكرت فيه وقد قلت لها هذا. أما هى فقد أجابتنى على الفور وبلا تردد:— شىء طبيعى؛ فالصوت لا يتلف بنفس سرعة الباقي.

من كان يقترب من نينا، يدرك على الفور أن تلك الفتاة العبوس تجمع بين مواهب عديدة. كانت متألقة، حاذقة ومسلية وظريفة جداً، وأيضاً جميلة حتى فى أدق التفاصيل، مثل الأصابع الطويلة ولون البشرة المضىء وكذا العينان اللامعتان وأيضاً نبرة الصوت.

عرفتها فى مدينة فلورنسا، فى منزل إيريس وكارلينو، فى المساء الذى توفى فيه ذلك المسكين الميريجى، على ذلك النحو الغريب والمضحك فى الوقت ذاته، وهو بين أحضان إيريس.

كنا جالسين فى حجرة الصالون، بعد رجوعنا من المسرح. كانت نينا قد وصلت عصر ذلك اليوم من روما إن لم تخنى الذاكرة، وكانت متجهة إلى ميلانو. كانت تتوقف هنا وهناك، فى أى مكان لا يهم، حيث كان لديها أصدقاء أو حيث كانت تُقدم لها وجبة عشاء أو غذاء، كانت تقول إن السفر والترحال متعة لا ينبغى إفسادها بوجود هدف، فكانت لذلك تسافر طوال الوقت، فى إيطاليا وخارجها، حيثما كان من الممكن السفر.

كانت إيريس رائعة ذلك المساء، رابطة الجأش تماماً، وكانت تجعلنا نضحك حتى البكاء من خلال روايتها لقصص قصيرة غاية فى الغرابة والاختصار، كانت فى اعتقادى قد ابتدعتها وأثرتها بالتفاصيل فى لحظتها.

كان الميريحي، وهو رجل جميل الطلعة، يجلس بجوارها ويوجه لها القفشات، كانا يقومان بما يشبه العرض الفنى. بعد آخر قهقهة وأكثرها صخباً، وعندما انحنى الميريحي على كتف إيريس، التى كانت لا تزال تضحك، لم يفهم أحد منا ما يجرى، حتى أن الميريحي كان يصدر أصواتاً غريبة ومخنوقة لم نسمعها أبداً من قبل؛ من يدرى، لعله نوع آخر من عروض التقليد التى كان يقوم بها. أتذكر تماماً صف أزراره المصنوعة من حجر الأكوامارين وإطاراتها من الذهب؛ ربما لأن لون تلك الأزرار وشكلها يذكراننى بعيون السمك الكايبية التى لا تلمع.

رفعت إيريس كتفها لتبعده عنها؛ وقع الميريحي عليها غير أنه لا أحد منا أدرك ما يحدث.

ثم صرخت إيريس وأخيراً سكتنا كلنا إذ وقع الميريحي على الأرض نحو الأمام، فى وضع بشع و غريب. كان السبب فى ذلك هو النشا؛ حيث تم كى قميصه بإتقان تام، وكانت واقية الصدر صلبة جداً لدرجة أنها لم تنتنن ولا حتى تحت ثقل صدر رجل ضخم مثله.

كان منظر ذلك المسكين غريباً جداً بل مضحكاً بصورة مؤلمة فجة وهو راقد بهذا الشكل.

لم تكف إيريس عن الصراخ وجحظت عيناها من بشاعة المشهد. حاول كارلينو أن يرخى عقدة ربطة عنق الميريحي وصرخ أمراً الخادم

بأن يركض ويحضر طبيباً؛ أما أنا فقد بقيت بلا حراك من هول المفاجأة ولأننى لم أدر ماذا أفعل.

بينما علقت نينا قائلة: - ربما كانت سكتة قلبية، إنه أمر يحدث أحياناً.

بينما كان الجميع يحاول أن يقوم بأى شىء لإنقاذه، حتى وإن كان بلا جدوى لأنه كان من الواضح أنه توفى، انسحبت نينا من حجرة الجالون دون أن تلتفت وراعها، وصعدت إلى حجرتها وأعدت حقيبتها ورحلت.

من أجل هذا كرهتها. لكن كان ذلك قبل الحرب، حينما كنت أتكرر من الخسة والندالة. ومنذ ذلك المساء أصبحت أتضايق من وجود نينا واستمر ذلك الإحساس لفترة طويلة من الزمن. كنت أتحاشى أى لقاء ممكن معها، ومع ذلك كان دائماً ما يصل إلى مسامعى بعض الأحاديث الهامسة عنها؛ ومنها أنها غنية جداً، وأنهم قاموا بالحجز على جميع أملاكها غير أنها نجحت ثانية فى جمع ثروة كبيرة بمجهودها وحدها، ولا أحد يعلم كيف نجحت فى ذلك...

ويقول آخرون: - نينا؟ ينطبق عليها المثل الفرنسى: "هى كبيرة فى نوعها، ولكن نوعها ضئيل".

أما نينا فقد قررت أن نصبح أنا وهي صديقتين. فكانت تأتي إلى منزلي، دون سابق إنذار، ودون حتى أن تعتذر؛ بل تتصرف كما لو كان من واجبي أنا أن أعبر لها عن امتناني لأنها اختارتني كي تقضى معي بضع ساعات في بيتي بسان بياجو، تحكي لي عن حياتها الجائشة. ولأكثر من مرة، سألتني وهي تتنهد في شفقة:— لكن، كيف تقدرين على الحياة هنا؟ إنه منفي، عقوبة، سجن تحكمين به على نفسك بنفسك. انتقلي إلى العيش في المدينة. ليس بالضرورة أن تعودى إلى تورينو، يمكنك الذهاب إلى فلورنسا، ميلانو أو روما. يمكنني أن أقدمك إلى أى صالون من صالونات إيطاليا؛ فأنت جميلة، وتجيدين أكثر من لغة وعلى دراية بأصول الاجتماعيات... أما في الريف، فكل إمكاناتك ضائعة غير مستغلة.

في البداية، كان عدم تحفظها غير الرصين يغيظنى ويثير غضبى الشديد. ثم، بدأت شيئاً فشيئاً أجد أن صحبة نينا تضيف على حياتى النشاط والانتعاش؛ كان مجرد قضاء ساعتين معها معناه أن تمنح لنفسك فرصة قضاء نهاية الأسبوع فى مكان أو منتجع فى الخارج، تتأمل كل ما هو جميل أو كل ما يُعمل بصورة جيدة ولا تغضب أو تحسد لأى فعل غير لائق يصدر عن بعض المارة، أو لتأخر القطارات أو للإهمال الواضح فى الشوارع، فكل هذا لا يخصنا.

انتهى بنا الحال إلى أننا قد أصبحنا صديقتين؛ ونسيت أو ربما أردت أن أنسى كيف انسحبت ورحلت ذلك المساء، مثلها مثل لص الشوارع. كانت قصصها تغذى وتتمى رغباتى الكامنة فى الهروب، وكنت أستمتع وأنا أراها تأتى عندى ثم ترحل ثم تعود ثانية. كانت تقود سيارة زرقاء صغيرة، إسطوانات إطاراتها من المعدن اللامع ومقاعدها داكنة اللون. طلبت أن توضع أعلى لوحة السيارة مباشرة صفيحة من الفضة فى حجم علبة السجائر وثبتت على هيكل السيارة المعدنى البراق، ويُنقش على الصفيحة هذه العبارة: "تذوق سحابة الغبار".

ما كنت أعتقد أنه سيكون من السهل جداً العثور عليها والاتصال بها بعد مرور سنوات عديدة، وعلى العكس، كانت تكفى مكالمة هاتفية للاستعلامات التليفونية حتى أحصل على رقم هاتفها ويعدها سمعت صوتها الحاد الذى تميزه بحة بسيطة.

قلت لها: - أتقبلين دعوتى؛ أقصد أن أقول رغبتى فى تجميع عدد من الأصدقاء لا أراهم من سنين طوال... أعز الأصدقاء وأقربهم.. ربما تكون دعوة لتناول الشاي.. أو دعوة على الغذاء.. يمكننى أن أجهز لكم مكاناً للمبيت هنا عندى.. فى "المحمية".. مثل الأيام الخوالى...

- لكن سنين كثيرة قد انقضت، أجابتنى نينا وهى تتحقق من كلامى، - هل أنت واثقة من رغبتك هذه؟ فكلنا عجائز، وقد

تجدين أن أحدنا أصبح أكثر حماقة من ذي قبل... يا لها من فكرة... خلاصة القول، ماذا تريدين أن تسترجعي؟ لن تعود الأيام الماضية وإن عادت فستكون حزينة مرة. أتعلمين مقدار خيبة الأمل...

- خيبة الأمل؟ لماذا؟ أرغب في أن أراكم كلكم مرة ثانية. ألدك فكرة عن أخبار إيريس؟ وكارلينو؟ و...

أترك حتى النهاية السؤال الذي يحرق شفاهي ثم أطرحه دفعة واحدة دون تردد:

- وماذا عن تروت... ألدك أخبار عن تروت؟

لا سبيل للرجوع إلى الخلف.

والآن، أشعر بقلبي يتجمد إذ تخطر على ذهني في تلاحق سريع مجموعة من الإجابات المحتملة. لقد توفى. إنه مريض. لم يعد يتذكر أى شىء. لقد تدهور به الحال تماماً، حتى خطوته وإيقاع صوته كما خبا نور عينيه، لقد تحول إلى شخص آخر، ومع ذلك طلبت منها فى تهور الطفلة:- أيمكنك الاتصال به نيابة عنى؟ فأنت الوحيدة القادرة على هذا لأنك تجدين أى شخص بسهولة. أخبريه أننى أنتظره، وأنتم أيضاً. تماماً مثل عطلة نهاية الأسبوع تلك التى قضيناها معاً فى "المحمية". كان ذلك فى شهر يونيو من عام ١٩٤٦... كان عام ١٩٤٦، أليس كذلك؟

أصدرت نينا صوتاً ما يشبه تنهداً ينم عن دهشة أو استسلام.

- نعم، بالتأكيد، يمكنني العثور على بعضهم. وعليه هو أيضاً، إن أحببت. أحسب أنه بمقدورى أن أجعله يحضر إلى هنا. إن أردت ذلك بحق.

ها قد لاحظت لى هذه الفكرة لتوها وإذ بها تؤلنى بالفعل. أشعر بنبضات قلبي سريعة تتعبنى. ليست كل الذكريات بهذه القسوة. كل ما أراه، فناء خاوي، بوابة حديدية شبه مغلقة، وظلال أمسية فى بدايتها، أمسية خاصة بى أنا وحدى.

كل منا له أمسية يخبئها مثلى فى ذاكرته. فلا نافذة تتخبط، ولا عش يُطرح أرضاً، ولا ثمرة فاكهة، ولا أحد ينادينى. انظر ببساطة إلى الأشياء من حولى وأرى أنها تخصنى أنا وحدى. منذ ذلك الحين، حدث كل ما يخطر على بال، فى العالم، فى أسرتى، فى منزلى وأينما أجول ببصرى. يكفينى أن أسمع أى نشرة أخبار مسائية حتى أتأكد من هذا. غير أن تلك الانفعالات التى تتدفق منضبطة منتظمة كالتنفس لم تتوقف بعد.

هذا هو السبب الذى من أجله أسعى لرؤيته مجدداً، بعد مرور كل هذه السنين. ليس هو مجرد الرغبة الجامحة للقاءه والتحدث إليه، ولطالما تمكنت من مقاومة شعور مثل هذا، وإنما هى بالأحرى الحاجة الملحة لأن

أفعل ولو لمرة واحدة شيئاً لم أفعله من قبل طوال حياتي؛ ألا وهو الإفصاح وبشجاعة عما بداخلي. ممّ أقلق؟

لقد قبلت نينا دعوتي في نهاية الأمر. إذن ممّ أقلق؟

لقد مر كل شيء ببساطة. لم يتبق الآن سوى تحديد يوم والاتفاق مع لاسانتا على قائمة طعام بسيطة لا تصيبنا بالأرق...

أعطتني نينا عنوان بيتها. ولكنها نبهتني إلى أنها سوف تحضر معها ابن أخيها فابريسيو، الذي يقوم بدور المرافق والسائق والمعنى بتلبية رغباتها.

- وأهم شيء أنه متخرج في كلية الطب ويمارس مهنته كطبيب في مدينة فراسكاتي. إنه شاب وسيم جداً، يشبه جاري كوبر في عز جماله وتألقه، الكل يقول هذا، الكل بحق، حتى أنني أفكر جدية في أن أتبناه؛ فأنا لم أنجب أبناءً وإلا فلنم ستؤول الـ "الجويدوريني"؟  
أنهى الاتصال الهاتفي.

أبتسم.

لن أندesh أبداً إذا ما جاءت نينا لمقابلتنا وشعرها لا يزال أشقر رمادياً. إنها تحكي قصة "الجويدوريني" هذه منذ خمسين عاماً على الرغم من أنه لم ير أحد هذه اللوحة أبداً.

أعرفها جيداً أساطير العائلة هذه.

كانت أمى تدعو هذا "طريقة التفكير برجاء".

هل المتسبب فى هذا هو ما كان يميز القرن التاسع عشر من

أوصاف تُسند إلى أشخاص بغير تروء؟

أهى حالات من التفاؤل أثارته تلك الأمسيات التى كانت تتشابه

كلها، قبل اختراع التليفزيون، مثلما كانت تتشابه ثرثرة أفراد الأسرة،

والنساء يقمن بالرتق بمهارة والتطريز الدقيق، وفى تلك الأثناء كان تاريخ

الأسرة يُثرى بشخصيات أسطورية مثل الجد الأكبر، عالم الفلك الهاوى

الذى توصل إلى اكتشاف نجم وأسماه "إسباسيا"، دون أن يدري أنه

اسم إحدى المحظيات الجوفانيات؟

ألم تكن جداتنا وأمهاتهن على قدر كبير من الجمال؟ إلا أنهن كن

عفيفات، والحق يُقال، مثل شهيدات الكنيسة اللاتينية، أو تقريباً مثلهن إذ

كان يجوز أحياناً مخالفة الفضيلة وخرقها للضرورة القصوى...

لقد سمعت أنا أيضاً الكثير من هذه الحكايات.

يبدو أن جدتى كانت تمتلك لوحة أصلية لـ سترادى قارى، كما

كانت خالتى تضع فوق مقدمة الفراش لوحة لعذراء ساسوفيرأتو، وفى

بيت فيللافورستا كانت قائمة الأبواب العليا عبارة عن سلات ضخمة بها

فواكة بالتأكيد من تصميم الشاب برويجل. جيل كامل تربى بين كنوز

فنية لا تُقدر بثمن وحينما كان يريد مضطراً أن يبيع شيئاً من هذه الكنوز لمواجهة ضروريات ومتطلبات الحياة اليومية الملحة والتي تثير الضجر بشكل لا يطاق، كان يدعو تاجر عاديات وصديقاً للعائلة، والغريب أن ذلك التاجر كان يحاول الانسحاب، ويسعل، ويراوغ قليلاً ثم يطلب قدراً آخر من الشاي بالليمون، وأخيراً، ينفجر مثل صواريخ رأس السنة ويقول:

- إن القيمة الوجدانية كبيرة، قد يكون من الأفضل عدم البيع؛ لأن القيمة التجارية، فى واقع الأمر، لا شيء، صفر،  
- ولكن كيف؟ لوحة عذراء ساسوفيرأتو...

قد تكون مملة بعض الشيء، لا اعتراض، ولكنها أيضاً...

- لوحة ساسوفيرأتو، سواء كانت مملة أم لا، تساوى الكثير، ولكن قماشة الرسم أو اللوحة، أرجو ألا تعتبرها إهانة، هى مجرد تقليد، وتقليد سيئ... يعود إلى القرن التاسع عشر، على أفضل تقدير... ولكن، معذرة... ألم تكن تلك الرسامة الهاوية هى أخت جدتك؟

لا تغضبى... لا تسيئى فهمى، بحق الله، لكن... أليس من الممكن أن تكون خالتك هى التى رسمت لوحة العذراء ووضعتها على رأس الفراش؟

وهكذا فأنا أتشوق لرؤية الطبيب الذى يشبه الممثل جارى كوبر  
والذى سوف يرث لوحة "جويدو رينى".

لقد تقدم بى العمر، ولكن العالم يظل مكاناً مليئاً بالعجائب.

## ٢

إن لاحظ كل واحد منا حياته الخاصة بأثر رجعى، فهو قادر على  
تقييم ثقل ووزن بعض اللحظات التى أنبأت خفية عن أيام مملة أو  
أمسيات كان من المقدر لها أن تكون مشابهة لأمسيات أخرى كثيرة وإذ  
بها على العكس، وبغته، تصبح نقطة تحول.

انظر خارج النافذة وأرى العمال الذين أتى بهم دينو وهم يشتغلون  
فى أشجار الزيتون، يقطعون ويزيلون الأغصان الضخمة للتخفيف من  
كثافتها. لقد تنازلت عن رأى السابق وقبلت استئصال جزء من حقل  
أشجار الزيتون. ثم سيصل الحفار الذى سيقطع النباتات وينقلها إلى  
مكان آخر، وبهذه الطريقة سوف يغرّس دينو أشجار كروم أخرى كما  
كانت رغبته؛ فهو يميل ويعشق النبيذ كما يمتلك أيضاً المهبة المطلوبة  
لصناعته. وحينما يُنشر مقال يتحدث بشكل إيجابى عن المزرعة بصفة  
خاصة، وتُمدح فيه خصائص نبيذ "لونيدىنتى" أو نبيذ "روسوفيرميليو"،

تركض "لاسانتا" وتحضره له، وهى سعيدة وكأنها صبية صغيرة، وتتكلم بحماس وحمية، بينما يظل هو ساكناً صامتاً ينظر بعيداً.

يقطب جبينه فأتكهن من عينيه أنه يفكر فى مشروعات جديدة، وأعلم أنه لا ينسى كيف نجحنا فى إقامة شركة تنتج أفضل أنواع النبيذ. عندما أتيت إلى "سان بياچو"، لم يكن هناك وجود لأى شىء، سوى مزرعة فى حالة يرثى لها؛ ثم جاءت الحرب وأعدت تحديد ملامح آفاق حياتنا، بعد أن أزال العالم الذى كنت أعرفه؛ وكان لابد من ابتكار عالم جديد.

لكننى أخفيت عن دينو أن نقطة التحول الحقيقية مختبئة فى مكان آخر، فى زمن بعيد بعيد، يبدو فى الظاهر أنه مجرد باب دوار يحجز خارجاً رطوبة ليل الشتاء، وإنما هو فى الواقع آلية مركبة تربط بالصدفة وإلى الأبد عالين مختلفين وبعيدين عن بعضهما. إنه مساء يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٣٩. ذهبت إلى المسرح، بصحبة "أودونى" الذى كان رفيقاً لى، بناءً على دعوة من عائلة "سانتا فيورى".

إن كونتيسة عائلة سانتا فيورى، التى لا تكل ولا تمل من شغفها وولعها بالمسرح الجيد، تجذبنا جميعاً إلى شرفتها بالمسرح.

لم أكن أرحب دائماً بالذهاب إلى المسرح؛ نظراً لأن فشل زواجى قد زاد من حياى العبوس الذى ما استطعت أبداً أن أتخلص منه. على

أية حال، فقد نزلنا ذلك المساء أثناء الاستراحة إلى مطعم "دليل كامبيو"، كما جرت العادة.

لكن هذه المرة لم نجد القاعة مُتَمَنَّة الأضلاع، تلك التي كانت الكونتيسة تحجزها لنا عادة، لم نجد لها متاحة. بدت على صديقتي علامات الاستياء مما أخرج مدير الخدم بالمطعم؛ وبقينا هناك لفترة وجيزة، لا نعلم ماذا نعمل، ونحن في كامل أناقتنا، نثير الضحك بملابس الحفلات الساخرة التي نرتديها ونحن واقفات في مدخل أحد المطاعم. ثم أخذت الكونتيسة قرارها وهو أن يجهزوا شرفتها بالأريكات ويقدموا النبيذ كفاتح شهية، أما العشاء فسنتناوله فيما بعد في بيتها بعد انتهاء العرض.

طلبت من مدير الخدم عشاءً لأربعة أشخاص وأمرت بإرساله إلى بيتها. أخذت هذه الترتيبات وقتاً ورحت أحكم شد معطفى الساتان الذى لم يكن يقى من البرد وأرتعش؛ بدأت أفقد صبرى أمام تصرفات صديقتى الهوائية المتقلبة وأشعر بالضيق أيضاً.

حاول أودونى جاهداً أن يخفف من حدة التوتر؛ فبدأ يلقي القفشات المرحة ويتحرك للأمام وللخلف، ويتوقع سقوط الجليد فى تلك الليلة؛ لأن الهواء كان مفعماً برائحة الجليد، على حد قوله. استدرت انظر فى اتجاه الباب الزجاجى المثل على قصر "كاريتيانو" وأستطلع السماء كى أفهم إن كان "أودونى" على حق أو إنه يهذى. غير أننى لم أر حتى مجرد

بادرة سقوط جليد. دخل جماعة من الناس؛ ولحت فى الباب الدوار معاطف داكنة اللون وأوشحة رقبة بيضاء. لم أعر الأمر اهتماماً؛ فهى ليست وجوهاً معروفة. هكذا بدا لى الأمر على الأقل من النظرة الأولى؛ على العكس، استدرت انظر لصديقتى إن كانت قد وجدت حلاً لمشكلتها مع كبير الخدم؛ ناوئى أودونى كأساً من الشمبانيا وبمعجزة نجحت فى ألا أفقد منه ولا قطرة واحدة وأنا أسمع صوته من خلفى.

– كم أنا سعيد لرؤيتك. هذه بحق مفاجأة.

كان تروت فى تورينو لفترة وجيزة من أجل إتمام بعض الأعمال. لقد انقضت سنون كثيرة منذ آخر مرة تقابلنا فيها، منذ أن شد على خصرى فى سرعة خاطفة فى شرفة عائلة بسيرانو. قمت بتعريف كلٍ منهما على الآخر. أظهر أودونى تحمساً لهذا الوافد الجديد، وأصبح فصيحاً وبلغياً جداً لدرجة لم يستطع معها أحد أن يضيف كلمة واحدة. دعا الكونت والكونتيسة سانتافيورى تروت للجلوس معنا فى الشرفة الخاصة بنا، لا يسع المكان لنا جميعاً، ولكن المشهدين الثالث والرابع أقصر وسيتناوب الرجال على الجلوس.

قبل تروت وترك المجموعة التى دخل معها؛ وبينما نحن نصعد السلم للعودة إلى شرفة المسرح، شعرت بخدش صغير جداً يفسد على بهجتى الكاملة، فإن لم أكن قد قابلته صدفةً، ما كان تروت بحث عنى.

قلت لنفسى إن الأمر واضح؛ فتروت يعلم أننى متزوجة، وهو رجل نبيل، قليل من السيدات المتزوجات يسمح بمغازلتهم ببساطة ويسر. لا يمكن أن يعرف تروت جحيم الحياة التى أرغمنى عليها فرنشيسكو فيلافورستا، وهو لا يعرف كذلك كم بقيت وحيدة، ولا كم اشتهيت أن أراه ثانية، وكم أنا مفتونة به وبذلك العيون التى تتفحصنى.

فشلت فى أن أحتفظ بهدوئى وبانفعالاتى الطبيعية المعتادة. فى كثير من المرات أجد نفسى أغض الطرف باحثة عن نظرتة. وقبل نهاية العرض، دس تروت فى يدى بطاقة صغيرة بها اسم الفندق الذى يبيت فيه، وعلامة استفهام قبل توقيعه.

احتفظت بالورقة كالكرة فى قبضة يدى ولم أضعها فى حقيبة يدى الصغيرة.

أخشى لدرجة الرعب أن أفقدها ويبدو لى أنها فى مأمن هكذا، سأتصل به أم لا، إنها مسألة سوف انظر فيها فيما بعد. أما الآن فأنا أستمتع بهذا الشعور غير المألوف بالحرية الذى أحسه وأنا أخالف المبادئ التى تربيت عليها.

ظننت أننا سنتقابل للقيام بنزهة على نهر البو، على الرغم من برودة الجو القارسة، أو أننا سنتناول قدحاً من الشوكولاتة الساخنة فى مقهى سان كارلو، أو أننا سنتجول عبر محلات العاديات. خلاصة القول،

حسبت أننا سنحافظ على الشكل العام متظاهرين بأننا صديقان جيدان  
وليس أكثر من ذلك.

على العكس قال لى تروت وهو يتحدث معى تليفونياً:

- لكننى سوف أرحل غداً، فليس لدينا متسع من الوقت.

شعرت بأن وجهى يحمّر خجلاً، وأعلم أنه كان يجب على الإلقاء  
بسماعة التليفون، أحسست فى نبرة صوت تروت بدالة وألفة جرحتنى.  
وكنت أتساءل:

- كيف يمكن للمرء أن يكون بهذا السفر؛ هذا السفر المبتذل؟

وفى ذات الوقت أدركت كم كنت كاذبة ومرائية فى اضطرابى هذا.  
كان تروت يعرف أنه ليس لديه وقت يخصصه لى عدا تلك الساعات  
القليلة التى كان من المفترض أن يمضيها فى مدينة تورينو. كان متعجلاً،  
متعجلاً فقط فى اتخاذ قرار، يجعل منى عشيقته، أم لا؟ أكان من  
الضرورى أن تنشأ بيننا علاقة أم أن هذا اللقاء كان مقدراً له أن يلقه  
التردد والإثارة؟ كم حدث بالفعل فى الماضى!

وأثناء هذه المحادثة الخفيفة اللطيفة، هبط على الاقتراح بأن نلتقى  
فى الفندق عنيماً فى عنف سقوط نيزك من الفضاء الشاسع. وبينما أنا  
أسمعه يشدد على الكلمات؛ نظراً لأنه أجنبى، أدرك أن الواقع ما هو إلا  
حجر رَحَى شديد الثقل يسحقتنى على الأرض. بمقدورى أن ألقى سماعة

الهاتف ولا أراه أبداً بعد الآن، بمقدورى أن أشعر بأننى قد أهنت وأستخدم هذه الإهانة كدرع واق يساعدنى فى الدفاع عن نفسى، أو بمقدورى أن أستسلم وأرى نفسى على حقيقتها، امرأة من لحم ودم لها رغبات بسيطة وحيوية ومشروعة لا تدعو لأى نوع من الخجل. فى النهاية، سمعت صوتى واضحاً وطبيعياً تماماً وأنا أجيبه:

– اتفقنا، فى الرابعة عصراً.

٣

كلانا يصمت بغتة.

نحن الآن نتواجد فى فندق صغير جداً، تُحجز غرفته بالساعة، فى وسط مدينة تورينو؛ وهو عبارة عن كوخ متداع ظل محتفظاً ببنائه، ولا أحد يدرى كيف، وسط البيوت المزخرفة الجميلة التى تحيط به.

الذنب ذنبى. فكان تروت يود أن يصحبنى إلى الجراند أوتيل الخاص بالأمرء أو إلى ذلك الفندق الصغير الذى نزل به، أوتيل دى ساقوا، لكننى رفضت.

وقد أرغمته على أن يأخذ غرفة متواضعة فى فندق متواضع من تلك الفنادق التى بالكاد تضع لافتة فى الخارج ولديها حارس أو بواب لا

يرتدى حتى حلة الخدم الرسمية الموحدة. ليس، أو ربما لزاماً على أن أقول "ليس فقط"، خوفاً من أن يتعرف على أحدهم، أو أن أقابل شخصاً من "المعارف" فى بهو الفندق، وإنما لأننى لا أريد أن تذكرنى الأشياء المصنوعة من النحاس اللامع وبريق كريستال الثرىا بالعالم الذى أنتمى إليه.

يقول تروت مبتسماً:

- إن التخفى ليس بالرومانسية التى أتخيلها، وهو بالأخص متعب ومرهق.

ها هنا ينتهى بنا الأمر، على أية حال. الفراش صغير والملاءات قديمة مستهلكة. يتسرب من الستائر شعاع ضوء حاد وبارد.

تظهر الجدية والتركيز على وجه تروت. وينظر إلى كما لو كان يرانى لأول مرة. أشعر بالإحراج من نظرته.

يقول لى:

- اخلعى ملابسك، أريد أن أراك وأنتِ تخلعين ملابسك. ابقى واقفة. أرجوك، أريد أن أشاهدك. لم أقم أبداً بخلع ملابسى أمام رجل وهو يلاحظنى. لكننى لا أريد أن أبدو خجولة أو محتشمة. أريد أن أكون امرأة مختلفة، دونما حياء أو تردد. أخلع ملابسى ببطء

وأحاول جاهدة أن أنظر إليه. وأكتشف أنني، إن نظرت إليه،  
يصبح كل شيء سهلاً يسيراً. أشعر أنني جميلة. أقرأ هذا في  
عينيه، وأدرك أنني أولاد في نظرة عينيه، اقترب مرتجفاً وهو  
يتأملها وجثا على ركبتيه بجوارها. وهنا، ولما كانت نهاية لحظة  
الافتتان قد حانت، استيقظت الأميرة من نومها.

يضع يديه على خصرى ويضمنى إليه ثم يطلب منى أن أخلع له  
ملابسه. أحس في صوته نبرة أمره خفيفة أستشعرها كذلك في ليونة  
إشارات، إنه إحساس لم أحسه أبداً من قبل. أبدأ في ملاطفته. ملمس  
جلده ناعم وساخن. يقبل عنقى وذراعى ويداعب يديّ ويدعهما تتشابكان  
في يديه ثم يدعونى للفرش. يمتزج صوتى وصوته ويصبحان صوتاً  
واحداً.

يдахنا تماماً المكان المقفر المحيط بنا. أنا امرأة متزوجة، وزوجة  
فيلافورستا الخائنة، الخائنة بدءاً من اليوم، وتروت كذلك خائن؛ إذ قد  
ترك زوجته إيناس.

نبتعد عن بعضنا كما تقتضى الطبيعة والفطرة. ولكن الفرش  
صغير جداً لدرجة إنه لا مكان يسمح لنا فعلياً بأن نبقى على مسافة  
متباعدة ولذا نظل بلا حراك، ونحبس انفسنا تقريباً حتى لا نضطر أن  
نتلامس.

كيف حدث هذا؟ ما الذى دفعنى للمجئء إلى هذا المكان؟ أهو الملل؟  
أهو شعور طفولى بالعند فى حياتى التى أود أن أقول لها:

- لكلكِ وعدتتى بشيء آخر تماماً!؟ أم هو الحزن والإحباط الذى  
يبتلع كل شىء، فى الوقت الذى نستنزف فيه كل حياتنا يوماً بعد  
يوم فى محاولات يائسة لملء اليوم، هذا وينصحنى مرشدى  
الروحى قائلاً:

- هل جربتِ طريق الأعمال الخيرية؟ وماذا عن الصلاة؟ فالصلاة  
معاً تزيد من اتحادنا، تذكرى هذا!  
وهنا يراودنى سؤال:

- ولكن مع من أصلى؟ مع السيدات المثقلات بجواهرهن واللاتى  
كن صديقاتى ونحن فى عمر الطفولة واليوم أصبحن هن أيضاً  
غريبات مجهولات وكأنهن من سكان المريخ؟ أم أصلى مع  
فرنشيسكو، الذى يتردد على امرأة عاهرة يقضى معها أوقاته  
دون علمى؟ أهذا هو الرجل الذى يستحق أن أظل مرتبطة به؟

لا، إنه شىء آخر هو الذى جعلنى أجيء إلى هذا المكان. لا أدرى  
اسماً له؛ لأننى أشعر بالفطرة أنه هناك أشياء لا تحتمل أن نعطى لها  
اسماً. ليست مسألة قصور فى اللغة، ولا هى مسألة حياء، إن السبب فى

وجودى هنا قوى جداً لدرجة أنه أحضرنى إلى هذا المكان وأيضاً وهن  
جداً لدرجة يلزم معها السكوت وعدم الإفصاح عنه وإلا سيكون  
القصاص هو الضياع والتشتت أو ربما هو أسوأ من ذلك، إثارة  
السخرية والتهمك. كنت سأشعر دائماً بالغثيان والقرف من نفسى  
يعتصران معدتى حتى وإن كنا جالسين فى شرفة أوتيل دى فرانس  
وأمامنا المحار والشمبانيا، بدلاً من وضعنا الحالى كعاشقين تقابلاً خفية  
فى مخبأ فئران فى شارع سان ماوريتسيو.

أقبع بلا حراك وسط الملاءات المكرمشة، وأفطن إلى أننى أهرب،  
ليس فقط من فيللافورستا وإنما أهرب أيضاً من حياة مزيفة، حياة كلها  
ملل أبدى، أهرب من صورة لشخصى ألصقوها بى، والتي كنت أعتقد  
أنها انصهرت وذابت بداخلى كزى الجندى الصغير المصنوع من  
الرصاص وها أنا أكتشف على العكس، وعلى حين غرة، أنها لم تعد  
تناسبنى، بل ضاقت على وتولنى. نعم أهرب، وأترك كل هذا من خلفى،  
غير أن أول بادرة حزة لهروبى وإدراكى لذاتى تتمثل فى اختبائى فى  
غرفة بفندق، ودفن رأسى فى الخيانة والخدعة والحيلة. أنا عشيقه.  
يتلاشى المعنى الأساسى للكلمة؛ وهو المرأة التى تحب وتعشق، ويظهر  
فقط معنى ثان، وهو المرأة المستترة. تلك المرأة التى لا يمكنها الخروج  
فى وضح الشمس وإنما تعيش فى الليل أو فى ظلام الستائر المغلقة  
بأحد الفنادق، تلك المرأة التى تتسلل عند البوابة لا يسمع أحد صوت

خطواتها كاللص. وهى لصة؛ لأنها تسلب شيئاً ليس من حقها حتى وإن كان عن غير قصد.

لا أدري إن كانت تلك هى الأحاسيس نفسها التى تبعد تروت عنى.

يشعل تروت سيجارة.

ثم يسند يده على بطنى.

- كم هو ناعم ملمس جلدك.

أشعر بالبرد وأحس بأصابع يديّ وقدميّ تتجمد. أود أن أتحدث، ولكن أخشى أن ينزل علىّ وقع صوتى كصفعة على وجهى.

يمتص تروت دخان السيجارة بنهم، كما وإن كان لا يزال لديه احتياج يبغي إشباعه. أسأل نفسى:

تُرى هل صمتى يضايقه، ربما يجدنى مثيرة، أو ربما فزعة وضعيفة مثل حشرة. من يدري. لعل إيناس أكثر...

إن التفكير فى زوجته بمثابة السوط على جلدى، فأنقبض فى حركة تلقائية، ينتبه تروت على إثرها.

- ما الخطب؟ ماذا بك؟
- لا شيء البتة، ليس بي شيء البتة.
- هل أنت مرتعبة؟
- لا. ليس هناك ما يدعو لأن أرتعب.
- ماذا إذن؟
- ينهض تروت ويستند على الوسادة. نكاد نكون متلاصقين.
- ما يربني هو ما سوف يأتي.
- حال خروجنا من هنا؟
- نعم.
- بعد خروجنا من هنا، سنظل نتقابل. سوف نتراسل. لن نفترق.
- أنت مرتبط ب...
- بزوجة.
- نعم.
- و...
- و... ماذا؟

وسوف تتركها؟ ألم تجعل منى عاهرتك، تمامًا مثلما يفعل ذلك  
الأخر؟

ليتني أمتلك الشجاعة لأسأله.

أبقى صامتة. ويستطرد تروت قائلاً:

- وأنت... ماذا عنك أنت؟... أهذا هو ما تفكرين فيه؟

لا أجيب، وإنما أومئ برأسي. ينظر إلى تروت. يعلو وجهه تعبير ينم  
عن الجدية والتفكير العميق وإن كان لا يخلو من العذوبة والرقّة. تمر  
بضع دقائق قبل أن يقول ببساطة:

- لا أعرف.

أتخيل أنني عندما أخرج من هذا الفندق، سيكون الجو بارداً  
وسوف أحكم ياقة معطف الفراء حول عنقي. أتخيل أن يكون الضباب قد  
بدأ يرتفع من نهر البو، أما أنا فسوف أسلك طريقي في اتجاه بياتسا  
فيتوريو وأنا أتجنب أنوار المصابيح، وأتلف للعثور على سيارة أجرة  
تقلني إلى البيت.

أتخيل أنني، بمجرد وصولي للبيت، سوف انظر لنفسي بعناية في  
المرآة؛ كي أتفحص ماذا تغير في وجهي وفي جسدي، الآن وقد صار لي  
عشيقاً.

أتخيل أنني سوف أتقلب هذه الليلة في فراشى مراراً وتكراراً حتى تنتهى ذاكرتى من استرجاع كل لحظة فى لقائنا، كيف تعانقنا؟ كيف نظر كل منا للآخر؟ وماذا قال كل منا للآخر؟

أتخيل أصغر التفاصيل؛ لأن هذا يساعدنى على الاختيار، ولأننى لا أدرى ماذا أقول.

يقول لى:

- انظرى إلى، انظرى فى عيني.

انظر إليه، انظر إليه باهتمام، وأتمنى أن أرى فى عينيه هو أيضاً ملامح اضطرابى وارتباكى، ولكننى لا أرى سوى نظرة متأملة مليئة بالحنان. كيف يمكننى أن أقاوم والأمور تسير على هذا النحو؟

أسأله ويصوتى نغمة تهكم:

- هل أنت سعيد؟

لكن تروت لا ينتبه ويقول ببساطة طبيعية جدا تسلبنى كل أسلحتى:

- نعم، نعم، أنا سعيد.

هى لحظة، تكفينى لحظة للاختيار؛ فأنا الآن أعلم ماذا يحدث، والصورة تبدو أمامى واضحة جلية. لقد اخترت.

تداعبنى يدا تروت وأنا لا أحاول التنصل منها. بل على العكس.  
أركز كى أستمتع لرد فعل جلدى، كل سنتيمتر من جلدى، للامسة،  
ولجرد تلامس أصابعه. لم أكن أعرف أن الرغبة هى هذا، التسليم  
والتركيز والسكوت والاشمئزاز والحنو.

حتى هذا الموقف العادى جداً؛ وهو وجود رجل يلاطفنى، يصبح مع  
الوقت نوعاً من التدريب والتعود.

كل ما أحمله على أكتافى من صبا وخيول وقماش الدنتيلا وظلم  
ومديرات منزل وريش وإحباطات حتى جدتى وأنريكو، كل شىء، خلاصة  
القول كل شىء، ساهم فى إحضارى إلى هذا المكان.

لماذا يبدو لى هذا التسليم وهذه الفرحة المؤلة التى أحسها وأنا  
بجانب تروت، على الرغم من الكذب والخداع، وعلى الرغم من اللوم الذى  
أوجهه لنفسى، لماذا يبدو لى الوضع الطبيعى، ويعبران عن طبيعتى  
الحقيقية وما ادخرته لى منذ البداية الساحرات الطبييات.

تذكر الملك، الذى صعد هو أيضاً، عند سماعه تلك الضوضاء، تذكر  
نبؤة الساحرة وأدرك حتميتها منذ اللحظة التى تنبأت بها.

بعد خروجنا من الفندق، نسير بمحاذاة نهر الـ يو وننزل إلى أسفل  
عند مكان وقوف المراكب تاركين خلفنا كنيسة السيدة العذراء مريم.  
يتجول القليل من الناس شتاءً بسبب الضباب.

أقول لنفسى، إنها نزهة العشاق فى السر، وأبتسم. لم ينتبه تروت.  
كنت أظن أن ارتداء ملابسى أمامه سوف يشعرنى بالحرى والحياء،  
ولكن على العكس كان الأمر طبيعياً جداً لدرجة أنه ساعدنى فى تثبيت  
جواربى، دون أن يحمر وجهى خجلاً.

ماذا يحدث لى؟

نبقى صامتين لبرهة ونحن نسير جنباً إلى جنب. نبدأ فى التحدث  
فى أمور كثيرة تافهة؛ فنحن الاثنان نحب الشوكولاتة والنيبىز الأحمر  
وأمسيات الشتاء القصيرة.

أقول له مازحة:

- إذن تورينو هى مدينتك ومكانك المفضل، هنا الشتاء يستغرق  
شهوراً، وهنا يوجد أمهر صناع الشوكولاتة فى أوروبا. أما  
بالنسبة للنيبىز، فالذهاب إلى حقول كروم "لى لانجى" وإلى  
"مونفيراتو" فى وقت حصاد العنب يعتبر عيداً.

يبتسم تروت ضاماً شفثيه ومقطباً:

- ماذا تعرفين أنت عن النيبىز؟ أخبرينى. هل سبق لك أن شربت  
نيبىزاً فرنسياً حقيقياً رائعاً من تلك الأنواع التى لا تنسى؟

يسحب الحقيبة من يدي، إنها حقيبة صغيرة وخفيفة من الخرز الأسود وليس بها إلا علبة بودرة وأحمر شفافة، وربما بعض العملات النقدية.

إنها بادرة مهذبة وغير مألوفة، ومع ذلك يمسك تروت بالحقيبة وكأنه تخليص من هذا الثقل بدا له ضرورة لا يمكن تجاهلها.

أحسب أنه عادة ما يُظهر اهتمامه ولكن ليس لشخصي، ربما تكررت المرات التي يمسك فيها بحقيبة اليد ويفتح الباب ويصب النبيذ أو يشعل سيجارة بعد أن يسحب الولاعة من بين أصابع زوجته. وأترك كلمة "زوجه" التي تتكرر وتدوى في عقلي فتؤلني، وكلما ازداد ألمي، داعبت هذه الكلمات فكري لأنها تمثل الحقيقة والآن أيضاً وأنا أرى عيني تروت تنظر بثبات في عيني، وأشعر بأنفاسه وأحس برائحته التي لا تزال تلازمني، الآن أيضاً أعلم أننا لا ننتمي لبعضنا. ولا أسأل نفسي لماذا أنا على يقين من ذلك، الأمر هكذا وحسب.

ليته يحدث انفجار كبير في المدينة وليت الألواح الحجرية التي تغطي مكان وقوف المراكب عند حافة نهر الـ بو تنزلق في المياه كما لو كانت قطع ثلج تذوب.

انظر إلى أعلى، في اتجاه جبل موتتي دي كابوتشينو.

تبدأ السماء تأخذ لونا داكناً، ينم عن قرب حدوث عاصفة، سوف  
تمطر السماء.

لكننى لا أقول شيئاً، أريد أن أرى إن كان تروت سينتبه إلى هذا،  
وإن كان حضورى سيكون له تأثير السحر عليه بحيث يختفى العالم  
ويضمحل من حوله، فإن كان يحبني، فلن يهमे شيء لا هبوب عاصفة ولا  
صفير الرياح الباردة؛ فكل دقيقة يمكنه أن يقضيها معى سوف تبدوله  
عطية وهبة، غداً يرحل، ويعود إلى باريس ولن أراه بعد ذلك ولا أحد  
يدرى حتى متى؛ لذا فأتنا لا أريد أن أسأله أى شيء.

لا أريد أن أتحوّل إلى صوت رفيع حاد الطبع يسأل ويطلب  
ويُدعى، ألا يوجد. هذا الإحساس الخفى بيننا والذي يسمح لنا أن يقرأ  
كل منا ما فى نفس الآخر، تماماً مثل شخصيات الحكايات الخرافية؟  
هذه هى الدقائق الأخيرة التى نقضيها سوياً، علينا أن نودع  
بعضنا بعضاً إن عاجلاً أو آجلاً.

لم يقل تروت بعد أى شيء عملى، هل سنلتقى ثانية؟ وكيف ومتى؟  
أما أنا، فأشعر بحرج كبير وتردد.

تروت لديه زوجه وابنة فى باريس، وهو لم يخف عنى هذا الأمر  
أبداً. ومع ذلك، فنحن لم نتحدث عنه مطلقاً؛ لأننا نشعر بالفطرة أن هناك

موضوعات لا يمكننا التطرق أو مجرد الإشارة إليها. ليس الآن على الأقل. أمسك بيده وأقربها من شفتي، ينظر إليّ مبتسماً.

نستأنف سيرنا.

أنا الآن أكثر هدوءاً. أتخيل أن زوجة تروت امرأة قليلة الشأن، غلطة شباب يتحملها هو لأن الأمانة تقتضى هذا. أنا رفيقته، هذا ما أقوله لنفسى، فنحن جميعنا عبارة عن قطع موجودة فى الخانات الخاطئة، تروت وزوجته وأنا وزوجى فيللافورستا. تم وضعنا فى غير مكاننا السليم على قاعدة الشطرنج و بمجرد أن يخطر ببالى مجرد التفكير فى أنه ربما نكون نحن الذين وضعنا أنفسنا فى هذا الموقف، أمحو هذا الفكر فى الحال.

كان لقاءنا غير متوقع، وقويًا جداً. ثم هكذا يحدث عادة للعشاق، أليس كذلك؟ أليس هو مكتوباً هكذا، فى الكتب أيضاً؟

- السماء على وشك أن تمطر. فلنعد. سأصحبك إلى المنزل.

يتمتع تروت عادة بصوت موسيقى ويقول أشياء تنم عن عقل راجح، غير أن كلماته، هذا المساء، تبدو لى قاسية. عندما يُقبَل جيبنى، مستغلاً عتمة أحد المداخل، حينها فقط يطمئن قلبى، فرغبتى الشديدة فى أن أصدقته وأن يكون لى لم تدعنى أنتبه، إلا بدرجة ضئيلة جداً، إلى أنه قد قَبَلنى كما يقبل المرء أخته.

قضيت يوماً كاملاً وأنا مستلقية على الفراش، دون أن أقرأ ودون أن أنام، حتى أن عينيّ فى النهاية كانتا تحرقاننى من شدة التعب.

ولما حيّانى تروت، استجمعت شجاعتى وقلت له:

- إن لم أرك بعد ذلك، إن لم تمر مرة أخرى على توزينو، لا يهم، يقولون إنه سيكون هناك حرب.

- يقولون أشياء كثيرة.

- هل ستكتب لى؟ هل ستخبرنى عن مكانك؟ فى الوقت الحالى، أنت المرتبط أكثر منى. لا أريد أن أتسبب فى إيذاء أحد.

- ماذا تقولين؟ أنت لا تتسببين فى إيذاء أحد. بالتأكيد سوف تريننى. سأكتب لك، ربما هذا المساء. لقد حفظت عنوانك عن ظهر قلب. لن تقوم أية حرب، ستريين.

- لن أبقى هنا لفترة طويلة. أعتقد أننى سوف أنتقل إلى سان بياچو، ربما عليك أن تأتى...

- سأتى، سأتى، اطمئنى. لن تضيعى منى.

لم يكتب لى بطبيعة الحال.

ليس بعد.

أو ربما كتب لى، ولكن الرسالة لم تصل.

قد تكون خدمة البريد بطيئة، قد تضيع إحدى الرسائل، ربما كانت الكتابة على الظرف غير مقروءة...

تمنيت لأسابيع طوال أن تصلني رسالة أو بطاقة، لكن لا شيء مطلقاً. تحولت الأسابيع إلى شهور، إلى أن تلاشت من الذاكرة، كل تفاصيل لقائنا الذي كان بالصدفة في أحد المطاعم مساءً في وقت متأخر.

من كان هناك ومن لم يكن حاضراً، المعاطف الداكنة وأوشحة الرقبة البيضاء، لم يتبق في الذاكرة سوى شبه ظل مشوش باهت، صمت، وقطاع جانبي من وجه تروت في مقابل الباب، وتلك العيون التي تصل إلى أعماق نفسي. حينما يغلب على النعاس ليلاً لا أزال أشتم أحياناً رائحة الضباب على نهر البو وصوت عجيج المياه، وكأنهما يصحبان صوت وقع أقدامنا.

## ٥

أيقظتني الإثارة قبل الفجر، بينما لا يزال الظلام يلف المكان في الخارج.

سوف تجتهد نينا كعادتها دائماً. إنها امرأة مقدامة وذات قدرة كبيرة، ولسوف تحضر هنا، كل أصدقائي، على فقط أن أقول هذا لـ

دينو؛ حتى يرتب الحجرات ويقوم بتصليح ما يلزم تصليحه، غلاية المياه أو مغلق النافذة، وأن يطلى الجدار حيث زالت قشرة البياض، أشياء من هذا القبيل. ثم على أن أختار تاريخاً محدداً، وربما أطلب طباعة بعض البطاقات وأسأل لاسانتا إن كان لا يضايقها أن تعد الطعام لنا جميعاً وأن توفر لنا شخصاً يقوم بترتيب الأسرة وينظف الأرضيات من التراب لمدة يومين، وشخصاً يلمع قطع الفضة وآخر يقوم بقطع مزيد من الخشب لاستخدامه فى المدفأة.

لم أظل أتقلب كثيراً فى الفراش أو أرتجف من البرد فى قميص النوم، بل ارتديت كنزة صوفية وجوارب سميكة من قماش التويد، وفككت الكلاب وانتظرت حتى يبرز أول ضوء للفجر حتى لا تعثر رجلى فى صخرة.

وما أن رأيت أن الصباح يبشر بيوم جميل، خريفى بارد ولكن سماءه صافية وخالية تماماً من السحب، ذهبت للقيام بنزهة فى الغابة بصحبة الكلاب.

نطلق عليها غابة وإنما هى قطعة أرض مليئة بأشجار السنديان التى تخلو من العليق أو العوسج.

فالنباتات الضخمة العالية لا تحتفظ بالرطوبة لمدة طويلة ثم تزهر ويكون السير فى وسطها بديعاً؛ لأن القدم تغرس فى سجادة متحركة.

ولغابة أشجار السنديان رائحة تلتفك من جميع الجهات، كما قد يقول البعض عن النبيذ. كنت أذهب إلى مونفيرأتو لأتنزه في غابات أجار الكستناء، وتتميز غابات الكستناء بأنها قاسية، معتمة تنبعث منها رائحة ذكية. وكانت الشمس لا تتسرب إليها أبداً، ولا حتى في عز الصيف؛ نظراً لتشابك أغصانها الكثيفة، وكانت الرطوبة الصاعدة ببطء من التربة تشق طريقها عبر طبقة كثيفة من الأوراق.

تسترجع ذاكرتي مشهد جدتي وقد ارتدت ثوباً رمادياً وهي ترمقني وتهمس لأمي:

- لا يبدو عليها أنها أكبر من اثني أو ثلاثة عشر عاماً، وإن كنت أتخيل أنها أكبر من ذلك. لما كنت في نفس عمرها، كنت أطول منها.

تتكلمان عني ونحن نستقل السيارة في طريق عودتنا من مونفيرأتو. يدنو الصيف من نهايته، تعتقدان أنني نائمة لأن عيني مغمضتان.

أنا دائماً أغمض عيني، عندما يحين وقت رحيلنا من الريف. لا أريد أن أرى بيتنا وهو يختفى خلف المنحنى، لا أريد أن أفكر في أنني عائدة إلى المدينة. وهما لا تتخيلان أن يغمض المرء عينيه فقط حتى لا يرى. وإنما تعتقدان أن العيون المغمضة معناها أنك تنام.

تواصل جدتى حديثها وقد كفت عن الهمس:

- إن هذه الفتاة نحيفة كالعود الجاف، حقاً إنها عود جاف.  
خسارة، ضاعت هباءً بمظهرها هذا غير المنسجم والمعيب.

وبالكاد تحتج أُمى قائلة:

- إنها لا تزال طفلة. سوف تتغير.

- هذا هراء؛ فالجواب يظهر من عنوانه، اجعلها تأكل، ينبغي أن  
تمتلىء وتسمن. ثم إنها لا تتكلم أبداً. تجلس بعيداً فى صمت  
وعناد ويبدو من عينيها الجادتين أنها طفلة شريرة. أمس كنت  
أراقبها من بعيد وهى تسير فى الحقل مرتدية ذلك المعطف  
الأخضر، بالمناسبة من أين لها هذا المعطف البشع؟ كدت ألا  
أعرفها. رأسها صغيرة وساقاها طويلتان ونحيلتان، كانت تبدو  
كالجرادة. أحياناً أسأل نفسى من أين ظهرت هذه الطفلة.

جرادة. هذا بالضبط ما قالته. جرادة.

✓

-٤-

قولات



أنا الـ "لونيدينتى". هكذا يسموننى فى البيت، حينما أختبئ فى حجرة السلم بإسطبل الخيول. يعتقد الكل أننى كسولة؛ لأننى لا أرغب فى حضور درس البيانو أو مذاكرة الجغرافيا، وهم مقتنعون فى البيت أن الكسل هو أفضع العيوب.

إنهم لا يعرفون أننى إذا اختبأت فى الإسطبل، فلأننى أحب رائحة الخيول، والصوت الذى تحدثه حوافرها وهى تدب على الأرضية الخشبية وأحب أيضاً رائحة جلد طقم الفرس.

لا أتضايق عندما يطلقون على اسم "لونيدينتى".

أنا أجهل بالطبع أصل الكلمة الصحيح، ولا أعرف سوى أنهم فى البيت يستخدمون هذه الكلمة فى غير محلها؛ لأن اللفظ فى الواقع يشير إلى العمال الذين لا يذهبون إلى مصانعهم صباح الاثنين.

أولئك العمال الذين يظلون نياماً للتخلص من آثار الثمالة التى يبلغونها يوم الأحد فى الحانة. ولا أحد يدرى كيف دخلت تلك الكلمة

منزلنا، ربما يرجع الفضل إلى المذيع أو ربما كانت مكتوبة فى ورقة جريدة "لا جدزيتا" استخدمها أحدهم فى لف البيض، والواقع أنها تسربت إلى المصطلحات السائدة فى بيتنا وبقيت حتى أن السيدة وودروف تستخدمها وهى تعجز عن نطقها.

لا تضايقتنى أيضاً هذه الكلمة لأنها تجلب وراعاها أصدقاء أخرى، فها هى والدتى تهز رأسها وتبتسم على الرغم من أنها كانت تعاتبنى فتقول:- يا عزيزتى، أنت مزاجية إلى حد كبير، والملامة التى يوجهها إلى الجميع لكونى مزاجية تبدو لى على العكس شيئاً خاصاً، صفة لا تطلق فى البيت على أحد سواى.

فى الواقع، لم أكن أبداً الطفلة البليدة غير المكترثة كما كانوا يعتقدون. لم أكن أبداً خاملة وغالباً ما كنت أستيقظ فى الصباح الباكر جداً، بل أحياناً قبل الفجر، والبيت ساكن ومن المطبخ تأتى أصوات صامتة وضوء محجوب، فقد كنت أحياناً أعد درساً على عجلة إن لم أكن قد استذكرته فى اليوم السابق، وأحياناً كنت أذهب عند الخيول، وأحياناً أخرى كنت ببساطة أتلصص من بين مغالق النافذة شبه الموعدة وأترقب اللحظة التى يطفئون فيها أنوار المصابيح فى الشوارع وتتصطبغ المدينة كلها باللون الأزرق، ولما كبرت ظللت أحب الاستيقاظ عند الفجر، وكان قبلافورستا يتضايق لأنه كان يعتبر هذا منافياً للياقة والأناقة، وعلى حد قوله:- "السيدة الراقية لا تستيقظ أبداً قبل العاشرة

صباحاً وتتناول دوماً وجبة إفطارها السريعة فى الفراش! وبعد ذلك، وبمجرد أن شرعت فى العناية والاهتمام بالأرض الزراعية، أصبحت عادة الاستيقاظ مبكراً ضرورة لا غنى عنها. إن كنت أحياناً بليدة، فربما كان ذلك على مستوى المشاعر؛ إذ أُننى كنت أبذل مجهوداً للتعبير عن انفعال، وللكشف عن ميل أو انزعاج ما. من الجائز أننى كنت خاملة وكسولة فيما يتعلق بالعواطف القلبية.

## ٢

تركت حجرة نوم الأطفال وأنا فى الثالثة عشرة من عمري. وهذا معناه أننى انتقلت للنوم فى حجرة نوم للكبار. أنا فى نفس الدور الذى توجد به حجرة نوم والديّ، تفصل بيننا ثلاث حجرات. أضحت حجرة نوم الأطفال فى الدور الثانى صالوناً صغيراً نستقبل فيه أنا وأنريكو ضيوفنا. وبدلاً من قطع الأثاث المطلية باللون الأبيض، والتى تم إصعادها إلى السطح، وصل من مونفيرأتو منضدتان صغيرتان بقائمة واحدة ومقعدان وثيران مبطنان بقماش طرى.

أنا سعيدة بحجرتى الجديدة. وقد أرسلت أمى لشراء الستائر من قماش الباتِستة الأبيض من سويسرا، وهى مطرزة بالشرائط والزهور. ويقول أبى:

- هذا هوس. تشتتين دائماً تلك الستائر التي تكلف مبلغاً باهظاً،  
إنها مصاريف لا فائدة منها فعلاً؛ فتلك الستائر البيج التي كانت  
معلقة قبل ذلك جيدة جداً.

وتعلق جدتي قائلة:

- كل زمن وله عقليته وعاداته. ففي أيامنا، كانت الفتيات يخرجن  
من حجرة نوم الأطفال فقط ليذهبن إلى الكنيسة ويتزوجن. فما  
الداعي لاستدعاء المنجد وتأثيث حجرة استقبال صغيرة؟

تبتسم أُمى وتظل صامتة؛ إذ قد حققت بالفعل ما تصبو إليه.  
سيكون عندي حجرة نوم كالكبار، كما قررت هي، وبها فراش على هيئة  
مركب واثنان من أسماك الدولفين ورأسهما تجاه أسفل وكرة ضخمة من  
الخشب الغامق اللون، تتأرجح على ذيلها.

وسادتان للنوم بدلاً من واحدة.

ومكتبة أضلافها من الزجاج أستطيع أن أغلقها بالمفتاح.

المكتب كان يخص جدى. سطحه المصنوع من الجلد الأحمر يبدو  
بالياً بسبب بعض بقع الحبر التي لا يمكن إزالتها، غير أنني أتلف ولا  
أطيق صبراً على الجلوس على مكتب حقيقى وليس على المنضدة  
الصغيرة بحجرة الأطفال حيث كنت أرسم وأنا طفلة.

وستائر الباتسته السويسرية خفيفة مثل الشاش.

خصصوا لى حجرة نوم جديدة، وأقول لى نفسى إننى أصبحت كبيرة.

تقول جدتى بالأحرى إننى دخلت فيما يطلق عليه سن التمرد أو السن الأحمر.

ليس هناك ما يسوء فى رأى.

فى العام التالى؛ أى عام ١٩٢٣، زار موسولينى تورينو فى شهر أكتوبر.

بالطبع أنا لا أدرى أنها زيارة رسمية يقوم بها رئيس الوزراء وأن كل المدينة قد استعدت لاستقباله، لا أدرى ماذا يكون الـ "لينجوتو" وهو أكبر وأحدث مصنع سيارات فى أوروبا، وقد دُعى موسولينى لزيارته، فليس هذا موضوعاً حديثاً يهم والدى لا من بعيد ولا من قريب. كذلك لا يهم أنريكو ولا يهمنى، أما عن جدتى فقد قررت أن تذهب لترى "شخصياً"، ما كل هذا الهيجان؟

كما يطلو لها أن تفصح أمام الجميع، وتلح على والدى حتى يصحبنا إلى ميدان كاستيللو وميدان سان كارلو؛ حيث يتوقع أن يمر موكب السلطات والمسئولين. أسمعهم يغمغمون ويتناقشون حول أنسب

مكان يمكن التوجه إليه: هل هو بيت عائلة بالبودى فروا، أم مكان آخر؟. إن إمكانية الذهاب إلى النادى حيث توجد به شرفات كبيرة تطل على الميدان، لهو أمر خارج المناقشة؛ إذ إن السيدات لا يمكنهن الدخول إلى هناك، إلا فى مناسبات خاصة مثل الحفلات الراقصة.

وهنا يقترح والدى قائلاً:

- فلنذهب إلى بيت عائلة دوياد؛ لأن به أكثر من شرفة بطول الميدان، وإلا فسيكون علينا أن نتزاحم وكأننا داخل عربية سردين.

هذا بينما ترى جدتى أنه من الأفضل أن نذهب عند عائلة جانوليو وهى على بعد خطوات، "وهم من أولئك الناس الذين يمكن أن تذهب إليهم دون سابق إنذار"، على حد قول جدتى.

أخيراً، يقررون وأقضى بقية النهار فى شرفة فى مهب هواء خريفي، أعد الرايات والأعلام المرفوعة على المبنى المقابل فى محاولة لقتل ملل الانتظار اللانهائى. جدتى وأبى وأنا وأخى، أما أمى فقد رفضت بحزم مرافقتنا، نمثل ثلاثة أجيال ترقب وتنتظر مرور "هذا السيد موسولينى" كما تطلق عليه جدتى.

لا يروق لها "السيد موسولينى" بأى حال لأنه، على حد قولها، "عندما يتحدث يضع إحدى يديه أو يديه الاثنتين، وهذا أسوأ، فى

جيبه". يرى والدى أنها على حق تماماً، وهذا أمر نادر الحدوث، لدرجة أنه لا يروق لكليهما مدينة تورينو وقد تغيرت معالمها بهذا الشكل. فالأبنية والعمارات ذات الأسلوب الباروكى لا تصمد أمام خفقان الأعلام والأغطية، ويُقال إن الإدارة المحلية زودت كل مواطن بعلم ليمسك به فى يده ويجعله يتطاير، ويدين أبى هذا التقليد ويصفه بأنه نقص لا يغتفر فى الذوق العام والحكمة والرزانة:

- شىء لا يصدقه عقل هذا المهرجان! انظروا كيف حولوا مدينة بأكملها إلى مجرد سوق فى بلدة صغيرة! فهذا التهريج الهزلى مكانه السيرك فقط، يا للشيطان!

يتكشف النظام الفاشى أمام عينيَّ اللتين يظهر فيهما ضجر المراهقة مثل نهار لا نهاية له ينقضى فى الشرفة من أجل حضور "مسرحية هزلية"، بقيادة السيد موسولينى القط، الذى يجد متعة وهو يرى الأعلام ترفرف تماماً كما يستمتع غلام مدع متعجرف، وتعبّر جدتى عن شناعة وقبح ما تلحظ وهى ترى السيد موسولينى ليس فقط واضعاً يديه فى جيبه وإنما مرتدياً سترة من اللون الرمادى الفاتح.

فى نطاق أفراد أسرتى الضيق، ما من أحد يهتم أو يولى الأمر أهمية أكثر من اللازم، ولم يكن الحكم الذى أطلقتته عليه جدتى بشكل قطعى، واصفة إياه بأنه "انهيار لا يغتفر للذوق العام"، لم يكن هذا

الحكم، على ما أتذكر، محل نقاش أو معارضة فى بيتنا، حتى قبل أن يتضح لنا نحن أيضاً، بعد مرور سنوات، حجم الكارثة التى ساقنا إليها.

### ٣

قمت بزيارة المحامى ريكورسى، إنه يشعر بالملل والزهد، وهو بمفرده طوال اليوم، داخل سلة، توجد كومة من مجلات الكلمات المتقاطعة والألغاز مكتوباً عليها بخط ردىء. ويقول إن لم يكن متعباً فقد يذهب لسماع شباب الكنيسة الذين يحضرون حفل عيد الميلاد، أو يقوم بزيارة الكنائس التى ترجع إلى القرن الخامس عشر، فهناك كنائس لم نسمع حتى عنها من قبل، على سبيل المثال كنيسة سانتا تشيتشيليا الـ بوجولو، أكنت أعلم بوجودها؟، أو يذهب للسوق كى ينقى نوعاً غالياً جداً من عش الغراب؛ فليس أحد أفضل ممن يهوى البحث عن عش الغراب يقدر أن يميز أفضل الأنواع، وكان هو بحق يهوى البحث عن هذا النوع الثمين من عش الغراب، ترى هل أتذكر تلك المرة التى عثر فيها على عشرين كيلو من هذا النوع النادر من المشروم على قمة أحد التلال، لكن كيف لى أن أنسى هذه الواقعة؟

ينقر المحامى ريكورسى على علبة السجائر، فهو عصبى، أخبره  
أنى أعد لدعوة أصدقاء قدامى فى نهاية الأسبوع، وأنه بالطبع مدعو هو  
أيضاً؛ لذلك أنوى القيام ببعض الأعمال فى المنزل، وأنتهز الفرصة  
لإصلاح قفل البوابة الحديدية ووضع بعض الحجارة والحصى على  
الطريق الواسع المؤدى للبيت. أود أن يكون اجتماعاً خاصاً. لا أنوى  
تنظيم شىء معقد للغاية، قد يكون مضحكاً أمر كهذا فى الريف،  
وبحضور عدد قليل هكذا، وإنما أحب أن يكون الجو العام مرحاً وبهيجاً.

يسرنى إضاءة البيت كله بالشموع، وحتى الفناء، بالشموع  
الصغيرة المثبتة داخل أنية واسعة بيضاوية. كنت أفكر فى أسلوب تزيين  
يغلب عليه ثمار الصنوبر وعش الغراب، أو ربما ثمار الرمان المشقوقة  
من نصفها، كما نراها فى اللوحات. ينبغى ألا أنسى أن أطلب من دينو  
الذهاب إلى المخزن ليرى ما لدينا من أفضل أنواع النبيذ المعتق، أظن  
أنه لا يزال لدى نبيذ روسوثيرميليلىو طيب جداً بحق...

يقاطعنى المحامى ريكورسى قائلاً:

- أحضرى موسيقيين، واجعليهم يعزفون كما فى الزمن الماضى  
حينما كنا نذهب إلى دعوات الغذاء أو الحفلات وكانت هناك  
موسيقى تعزف دائماً، وليست موسيقى الإسطوانات.

- حضرة المحامى العزيز، إنك أحياناً تفاجئنى بأفكار مدهشة حقاً. لا بد أن آتى كثيراً لأطلب نصحك.

أقول له هذا على سبيل السخرية الخفيفة؛ إذ يظهر عليه علامات الكآبة والحزن.

- المحاميون خلقوا خصيصاً لهذا، لإعطاء النصح. أنا سعيد أن فكرتى تروق لك، اسمعى، إن أردت يمكننى أن أنظم لك أنا كل شىء. سوف أحجز لك شيئاً خفيفاً وترفيهياً.

- محامى العزيز، أنا أحتاج إلى حيويتك ويقظتك، فلترفه عنا بحكاياتك وقصصك. أنا لا أريدك أن تقضى تلك الليلة فى الفراش، فسأضطر حينئذ أن أرسل إليك لاسانتا بحساء الدجاج، فى حين أننى أحتاج لاسانتا معى لتقديم الطعام. اهتم أنت فقط بأن تكون معنوياتك مرتفعة وفى كامل طاقتك.

- إنه الملل الذى يحبطنى ويهبط من عزيمتى. أنا لا أمزح.

يعانى ريكورسى من هم يشغل باله. وهو يرتدى طقمًا كاملاً من القطيفة، كان ذائعاً قبل ثلاثين عاماً للذهاب للصيد، وخذاءً لامعاً من الجلد الأحمر، مظهره عتيق جداً وإن كان لا يزال جميلاً. ويثبت على ربطة عنقه دبوساً رفيعاً جداً من الذهب يشبه أرجل الناموسة؛ كان

المحامى رجلاً أنيقاً جداً فى شبابه، وأسأله كيف أنه اليوم يتجمل كشاب متغندر يختال بنفسه.

يتجاهلنى قائلاً:

- فهمت، أتعرفين؟ لقد رأيت لمحة النفور فى عيني سكاورى، رأيت كيف ينظر إلى شذراً. كان صامتاً، ولكنه بدا كمن يقول لى:

- وصلنا يا عزيزى ريكورسى إلى نهاية الخط.

ذات مساء ستتعس أمام التليفزيون و، باف!، ينتهى كل شىء. ستتركنا إلى عالم الأموات.

- اسمع، دعك من هذه الحماقات. الموسيقى. كنا نتحدث عن الموسيقى والحفلات الموسيقية.

- صدقيني. لا أزال أتذكر بعض القواعد الأساسية للموسيقى، وأستطيع أن أجزم أنني أفهم فى الموسيقى... إذن، أسمحين بأن أهتم أنا بأمرها؟ سوف يكون هذا بحق من دواعى سرورى.

- نعم بالتأكيد. وأنا واثقة أنها ستكون مفاجأة للجميع.

أستمر فى حديثى مع ريكورسى عن كل ما أبغى فعله، عن نهابى إلى البنك كى أخذ قطع الفضيلت، ثم ينبغى غسل الأطباق والأكواب؛ لأن هذه الأطقم لم أعد أستخدامها منذ سنوات عديدة مضت، كما ينبغى

كى المفارش ولا أزال أملك مفارش غاية فى الروعة من قماش الكتان الثقيل الكثيف وأحدثت عن مفارش توضع فى النشا فتصبح متماسكة مثل الورق، وكل تلك المناشف، أتذكرها، تلك المناشف الكبيرة، والتي تصل جوانبها إلى ثمانين سنتيمتراً؟

كم من أشياء احتفظت بها... وأثناء حديثي، تدلت رأس ريكورسى ببطء على كتفه. بعد برهة أتسلل خارج الحجرة.

جعلته ينعس وينام وهو يستمع إلى حكاياتي.

كتبت إلى نينا وأنا فى طريق عودتى إلى البيت، طالبة منها ليس فقط أن تتصل بـ كارلينو، إيريس وتروت، وإنما أيضاً أن توجه لكل منهم بطاقة دعوة، ليست بطاقة دعوة حقيقية مزخرفة كما هى العادة، وإنما بطاقة التعارف الخاصة بى، وقد كتبت عليها بيدى سطين، أظن أنه من الأليق أن أقوم أنا شخصياً بدعوتهم مباشرة. لأنها لافتة انتباه لحثهم وترغيبهم فى المجيء، أسيأتون؟ حقاً سيأتون؟ كلهم؟ وهو أيضاً؟

#### ٤

يتم غسل الكمثرى الكونفيرانس. يتم تخليتها تماماً بمساعدة معلقة كبيرة. يُنثر السكر بداخلها وتُبلل ببضع قطرات من الليمون. يتم مزج

١٠٠ جرام من الجبن الريكوتا الطازج فى طاسة مع البندق المفروم و١  
ديسى لىتر من القشطة أو، إن أمكن من الكريمة الطازجة و٦ ملاعق  
كبيرة من عسل الأكاسيا (عسل الكستناء غامق جداً ويميل طعمه  
للمرارة). يتم حشو الكمثرى بهذا المزيج المركب ثم يتم وضعها فى  
طاسة مع إضافة مقدارين من المياه. وفى النهاية يتم الطهو فى فرن  
ساخن لمدة ٣٠ دقيقة.

ها أنا أختار لضيوفى قائمة طعام بسيطة، مستبعدة ذيل عصفور  
السنونو ولسان البغاء كما تقترح لاسانتا.

لقد قمت مراراً بإعداد دعوة على العشاء وتنظيمها، حينما كنت لا  
أزال متزوجة من فرانثيسكو، ومرات أخرى كثيرة شاهدت والدتى وهى  
تقوم بهذا.

كانت تستدعى الطباخ الخاص بنا، واسمه أنجيلو، إلى حجرة  
الصالون وتقول له فقط:

- يوم ١٥ فبراير، اثنا عشر شخصاً على العشاء.

وكان أنجيلو يختفى قليلاً ثم يعود ثانية ومعه كتاب التدبير المنزلى،  
وهو أكبر قليلاً من كراس صغير داكن اللون وحواف صفحاته من اللون  
الأحمر النارى، ويقدمه لأمى.

ثم كان يجلس بعيداً، مشغول البال شارداً الذهن. لقد دخل أنجيلو أوليفيرو من مدينة "كاروو" بيتنا وهو فى العاشرة من عمره، ومات هناك وهو فى سن الرابعة والسبعين. قضى حياته كلها مع أسرة والدى، وقد أخذوه كمساعد طباح وهو فى العاشرة وأحضره إلى تورينو، وأحياناً أفكر أنهم تقريباً سرقوه وأشعر بفضاعة وبشاعة هذه الفكرة. لم يهتم أحد بأن يعلم أنجيلو القراءة والكتابة، وكان مع ذلك يقوم بإعداد أطباق من السوفليه الرفيع المستوى وطهيها وكأنه فنان بارع، وكذلك فطائر باللبن والبيض والدقيق والأطباق الفاخرة الشهية كافةً التى ما عدت أتذكرها اليوم.

أراه من جديد، وقد ارتدى مريلة المطبخ البيضاء، وهو يستند على قائمة الباب وينظر إلى أمى فى عينيها مباشرة دون أن يبدو عليه أى مظهر من مظاهر سلوك الخدم، وهذا ما يعجبني فيه، ولهذا أتذكر ليس مذاق مرق اللحم المركز بقدر ما أتذكر نظرة الاعتزاز والفخر التى يتمتع بها، لأنه يعلم أن لديه موهبة؛ موهبة حقيقية وطبيعية وإعجازية مما يجعله مساوياً، بل على العكس، أفضل من كل واحد منا.

أمى بالأحرى التى تخفض عينيها، فهى صغيرة أمامه عندما يتعلق الأمر بالمطبخ، إنها صغيرة وهى تعلم ذلك وقد تزينت كلها بالدنتيلا واللؤلؤ الصغيرة، بينما أنجيلو لا يملك سوى زى الطباخ الأبيض ندى الصفين من الأزرار، ومنشفة ملفوفة حول عنقه وأخرى مربوطة حول

وسطه، يعلق فيها جراباً تظهر منه السكاكين المخصصة لتقطيع الخبز  
واللحم. لقد كبر صبي الطباخ الأمى، وأصبح شاباً ذا أصابع غليظة،  
ولكنه بهذه الأصابع يتمكن من لف حلقة من العجين حتى يجعل منها  
شكلاً جمالياً وكأنه منحوت.

تظل أمى تنظر إليه ممسكة بالقلم، ويفتش أنجيلو فى ذاكرته،  
ويرتجل ويبتكر توليفات جديدة فيكون فى عشر دقائق قائمة طعام لعشاء  
فاخر. تترجم هى، وعلى ثغرها ابتسامة خفيفة، وتقول: اللحم من شرائح  
البتلو الصغيرة، وسلطة فواكة الموالح من ثمار البرتقال على الطريقة  
الشرقية، وصدور الفراخ من لحم الفراخ مع المرق، والحساء هو الثريدة  
المركزة على طريقة أهل الريف.

الآن أنجيلو هو الذى ينظر إليها مفتوناً؛ فهى تحول فى نظره،  
أرباع البقرة، والبيض والخضرة وكل هذه البضائع المعتادة القادمة من  
الريف أو التى تُباع فى السوق، بعد أن يتشاحن ويتشاجر عليها  
الطباخون الآخرون، تحولها إلى كلمات أجنبية وموسيقية لا يعرف  
معناها وبالتالي فهو يسمعها هكذا، مجرد سماع صوت رنينها ولأنها  
غامضة بالنسبة له، وخفيفة بما يفوق الوصف. وحينئذ، تشعر أمى  
بالسعادة من الذهول البادى على أنجيلو، ومن إعجابه الصامت المؤثر  
الذى يتكرر كل مرة، فتترك العنان لتعليق شخصى منها، تلعب فيه

بالألفاظ على استحياء ولكن بفخر واعتداد، فتكرره كثيراً دون أن تنتبه،  
فى اعتقادى، إلى معناه المزدوج. وتقول:

- تعرف يا أنجيلو، ينبغى أن تكون قوائم الطعام باللغة الفرنسية...  
جرت العادة على هذا النحو دائماً... وهناك سبب قوى جداً  
يجعلنى أغير اسم الأطباق الراقية الشهية التى تطهوها أنت...  
وهو أن الفرنسية... تفتح شهيتك كى تتذوق كل الأطباق...  
وتُجرى ريقك... إنها لغة يستشعرها الفم ويحس بها.

وفى كل مرة، يفهم أنجيلو بالفطرة أنه يلزم عند هذا الحد من  
الحديث بينهما إضافة ابتسامة خفيفة، حتى تُسرّ أُمى وقد قالت تعليقها  
هذا الذى لا يفهمه وربما هى أيضاً لا تفهمه...

حضرت هذا الثنائى عشرات المرات دون تغيير ما يذكر.

أما الآن فسأعطى لاسانتا فى يدها قصاصة الورق المقوى التى  
كتبت عليها بالتقريب طريقة عمل الكمثرى فى الفرن، بعد أن نقلتها من  
مجلة نسائية. غير أننى أعرف أن والدتى كانت على الأقل ستطلق عليها  
الكمثرى المحشوة بالكريمة اللبانى الطازجة.

سوف يرضى أصدقائى. آخر مرة التقينا فيها كلنا معاً، منذ ما  
يقرب من خمسين عاماً، كان كل شىء مختلفاً، لست أدرى ما الذى  
دفعنى إلى دعوتهم "للمحظورة" فى الأسبوع الأول من شهر يونيو، أعتقد

أننى كنت أبعى الترفيه عن تروت، الذى بدأ لى مضطرباً وليس فى حالته المزاجية المعتادة.

كنت أعزو هذا البهتان الذى يغلب عليه إلى الأوضاع المبهمة الغامضة فى تلك الفترة الزمنية، وربما أيضاً إلى الملل والضجر الذى يمكن أن يشعر به فى الريف من هو معتاد على العيش فى العواصم، فى لندن وباريس.

فى تلك الأيام كنا نذهب للتصويت من أجل اتخاذ قرار بالبقاء من عدمه فى الملكية، بالتاكيد كنا نتطلع إلى تغيير كبير، حتى وإن كانت الحرب قد عودتنا بالفعل على تغييرات عديدة مباغثة. أما الجمهورية... ماذا كانت تعنى؟ من منا كان يعلم معناها؟

كانت هناك توقعات بأن الأمر سيحتاج إلى يومين فى الأقل أو ثلاثة أيام للانتهاء من فرز الأصوات، إنه لدهر من الزمان، لماذا لا ننتظر النتيجة سوياً، وتتغلب على نفاذ صبرنا بالقيام بنزهات على الجياد، هنا فى ضيافتى؟

وافق الأصدقاء، كنا مجموعة ظريفة، نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، ومع ذلك كنا مختلفين جداً فى ميولنا وذوقنا وتعاطفنا وانجذابنا السياسى. لم يكن هذا الاختلاف يسترعى انتباهنا فى ذلك الوقت. كان يجمعنا حب الريف، وهواية الخيول وكان هذا يكفى. كانت إيريس ترسم

لوحات عن الحيوانات بالألوان المائية وتتجول بين أرجاء "المحمية" بحثاً عن طائر الهدد أو عن أحد الكلاب، أو الفراخ الراقدة على البيض أو عن ديك برى بين الشجيرات، أما عن الجياد، فكانت تقول إنها تفضل ركوبها عن رسمها. كذلك كان كارلينو وتروت وابن خالتي أودوني بارعين في ركوب الخيل. وكنت أنا أفتح لهم أبواب "المحمية"، وأتيح لهم ركوب الخيل وكذلك بعض صناديق زجاجات نبيذ كياتتى يعود تاريخ صنعها إلى ما قبل الحرب العالمية. كانت نينا تضى على صحبتنا بهجة وجمال وقدرة متحررة على الاستمتاع بالحياة تنتقل إلينا جميعاً فيما يشبه العدوى. لا أحد منا كان يشعر فى قرارة نفسه أنه يريد انتقادها، ولا كارلينو بالطبع، الذى راهن على الخيول فخر كل مجوهرات زوجته، ولا أودوني الذى، بعد أن قضى سنين من عمره وهو يحاول أن يظهر بمظهر الشخص القوى ذى البأس والرجولة فى سترته التى أحكم أزرارها، كان ينتظر حتى يرى موسولينى فى ميدان لوريتو ليفصح أخيراً فى شجاعة أنه كان لا يحب النساء، وجعله هذا يتخلص من عبء ثقيل عليه وعلى أنا أيضاً؛ إذ لم أعد مضطرة للتظاهر بأننى لم أفهم طبيعته. ولم أكن أجرو أنا أيضاً على إدانته، إدانته نينا. فقد كانت عندى ضرورات كثيرة تستحق الاهتمام، وشركة زراعية تحتاج للدفع بها إلى الأمام، وقرارات يتحتم على اتخاذها إلى غير ذلك من أمور تواجهنى كل يوم، هذا فضلاً عن أننى أعيش مع رجل ليس بزوجى.

كنت أتجاهل، وقتئها، كل الأفكار التي لا تتعلق بهذه الأمور،  
وأستقطع وقتاً لنفسى، ولنفسى فقط، فى الساعات الأولى من النهار،  
بينما الجميع نيام وضوء الصبح لم يكتمل بعد. كنت أضع السرج على  
الخيول وأطلق، تاركة إياه يركض حتى أنهك جوادى فى حقل أشجار  
السنديان، مجازفة بكسر عنقى إذا انزلق وزل وكأئننى أسعى وراء  
المخاطر.

لدرجة أننى أحياناً كنت أترك السير الذى يُربط تحت بطن الفرس  
مفكوكاً، إلى ماذا كنت أسعى؟ لا أعرف، أن يتألم تروت والعالم أجمع  
من أجلي؟ أو ربما أن يهتم أحدهم بمعرفة إلى أين أنا ذاهبة وماذا أنا  
فاعلة؟.





-٥-

فترة ما بعد الحرب



نحن فى حرب. انقضت الآن أربعة أعوام. ذات ليلة، يوقظنى نباح الكلاب. يحدث هذا كثيراً، هذه الأيام. فالكلاب أيضاً تشعر بالتوتر والخوف، هذا بخلاف أن الغابات التى تقع بالقرب من البيت تعد مخبأ جيداً للهاريين أو للجنود الذين يبحثون عن شخص ما، وأحياناً نسمع طلقات سلاح نارى تأتى من جهة التلال.

أهبط إلى المطبخ، يغلب على النعاس والقلق. هناك شخص ما عند الباب. الساعة الآن الثانية صباحاً. أقول لنفسى إنهم ليسوا فاشيين، فهؤلاء يعلنون عن أنفسهم بالصياح والصراخ، وليسوا ألمان، فهم يدقون على الأبواب دقات حادة قوية. أشعر بالخوف، ولكنى أفتح الباب. إنها نينا. شعرها غير مرتب، وترتدى جاكيتاً وينطلوناً ومعها رجل وشاب ذو ستة عشر أو سبعة عشر عاماً. يبدو عليها الارتباك والتوتر، وبعلامة من يدها تطلب منى ألا أتفوه بكلمة. أدخلهم ونجلس جميعاً فى المطبخ. تخرج نينا علبة سجائر وتقدم واحدة للرجل. ثم تدس يدها فى جيب السترة وتخرج منه لفة صغيرة. وتقول لى بابتسامة:

- خذى، أنا متأكدة أنه سيعجبك.

إنه شائى. شائى إنجليزى بالليمون البرجموتى، كل شىء لا يزال طبيعياً، عندما كانت تبدو حياتنا أنها لن تتغير أبداً. بينما أقوم بتسخين المياه وأعد الفناجين، تروى نينا إنه أمس، وعلى بعد كيلومترات قليلة من هنا، عند مزرعة أرثشينو، قرر أحد الضباط الألمان أن يقوم بعملية انتقامية ضد المدنيين، ربما للرد على هجوم المقاومة، أو ربما فقط لكى يخلف وراءه أثراً ينم عن القسوة والعنف.

يختار مزرعة البالاتساتشو دارثشينو، بالقرب من سيينا حيث يوجد خمسون شخصاً تقريباً من المشردين. تعيش فى هذه المزرعة عائلة باربالى، وجماعة لا بأس بها من الناس، ونساء وأطفال. يصل الألمان ويجمعون الكل فى الفناء. يبكى الأطفال والنساء، بينما يلتزم الرجال الصمت. يأمر الضباط أحد الجنود بإطلاق النار بالمدفع الرشاش، غير أن الجندى يطلق النار فى الهواء. هل هو اختيار أم خطأ، لا تستطيع نينا أن تجزم بشىء، أصاب الخوف هؤلاء الناس بحالة من الشلل الكامل. يُخرج الضابط الألمانى مسدسه ويطلق النار على كومة الناس، فيقتل الأطفال ذوى السنة والثلاث والست سنوات، وشباباً فى السادسة عشرة، وخمسة أفراد آخرين، من عائلة باربالى وجيرانهم. وتعتقد نينا أن الضابط الألمانى لقى حتفه هو أيضاً، على يد جنوده أنفسهم. وهنا يتدخل الشاب الذى أتى معها قائلاً:

- مستحيل، أولئك كلاب متوحشة وليسوا بنى آدميين لهم ضمير.

يقول الرجل:

- اسكت، من يتكلم هكذا يتصرف على شاكلتهم. على أية حال أنت لم تكن موجوداً هناك.

والآن يوجه حديثه إلى، يناهز عمره أربعين عاماً، ولكن الشيب كان قد كسا شعره بالفعل ولون عينيه بنى بندقى:

- اسمى مارتشيللو أليبراندى. أعمل طبيباً، كنت أعرف أطفال عائلة باربالي.

وهنا خفت صوته كثيراً.

تختم نينا الرواية بقولها:

- على أية حال، لم يطلق الجنود الألمان النار، ولم يقوموا بمطاردة المزارعين الهاربين، وهذا معناه أن الخوف والتشاؤم وقليلاً من الإنسانية بدأت تتسرب حتى بين صفوف القوات الألمانية.

لقد شاهدت بعيني أموراً كثيرة تدفعنى إلى التحرك، سأذهب معهم.

- معهم إلى أين؟ إلى أين تريد أن تذهبى؟

إن نينا لقادرة أن ترقص طوال الليل، وأن تغوى وتغرى كل رجل تلتقى به دون أدنى احتشام، وقادرة أن تنفق ثروة فى شراء ملابس سهرة، وحقائب أنيقة وقبعات وهذا هو أقصى ما يمكن أن تبلغه وهو سر سحرها. إلى أين تفكر فى الذهاب ليلاً مع رجلين من الجائز والمحتمل أنها عرفتهما لتوها؟

تبتسم نينا. تظهر عيناها متورمتين ولم يعد لون بشرتها مضيئاً غضاً كالمضى. ولكنها تتمتع بسلام وتركيز وهى تجيبنى، دون أية مبالغة، وإنما يبدو صوتها هادئاً متزنأً اتزان من عزم أمره واتخذ قراره.

- سنذهب إلى جبل أمياتا. توجد هناك مجموعات تدريب من فرق المقاومة من أجل العمليات فى قال دورتشا وفى الجروسيتانو.

- أنت؟ دعك من هذا الهراء يا نينا. ماذا تنوين أن تفعلنى؟ تزحفين فى الغابة ومعك بندقية؟ تضعين قنبلة تحت الكوبرى وتتجولين ليلاً بدراجة حاملة الرسائل؟ وإذا قبضوا عليك، أستطلقين النار على غير هدى مثل جندى ألمانى؟

- ماذا تقولين؟ لا مجال للحديث عن هذا. أنا، فى الغابة؟ لن يحدث هذا حتى وإن ولدت من جديد. ولا نية عندى لأن أتعامل مع متفجرات، أو أن أطلق النار على أحد. فسأذهب لأقدم ما

أستطيع القيام به. إن أليبراندى على معرفة وثيقة بجسباردو وهو قائد من رجال المقاومة. كان ملتحقاً معه بكلية الطب قبل عشرين عاماً. صحيح يا أليبراندى أنك سوف تقدمنى لجسباردو؟ واحدة مثلى يمكن أن تخدم دائماً. أليبراندى أيضاً متفق معى.

سنذهب لتقديم خدماتنا، بما فى مقدورنا أن نفعل. أليبراندى طبيب جراح وأنا أتقن اللغات. وأعرف كل الشخصيات الكبيرة ذات الوزن والثقل ولا أخاف شيئاً. أعرف كيف أتعامل مع الرجال، الإيطاليين والألمان والإنجليز، متزوجين أو عزاب. هذا رأى الجميع. حان الوقت كى أستثمر هذه الموهبة، ألا ترينها فكرة جيدة؟

انظر إليها فى ذهول. تلتقط نينا نظرتى وتتفجر فى الضحك.

- لقد فاجأتك، أليس كذلك؟ ما كنت تتوقعين ذلك منى، أليس كذلك؟ هذا هو لب الموضوع. يُذاع عنى أننى سهلة المنال ومغرورة وهذه أفضل الأفتنة التى يمكن أن أتستر وراءها. أليس هذا صحيحاً، يا أليبراندى؟ لا بد أن تتخفى وراء ستار، حتى نكون فى أمان. عموماً لقد أتيت إلى هنا كى أسلم عليك. وإن حدث وساعت الأمور، فقولى للجميع إننى أستحق وساماً؛ وساماً من الذهب وإلا فلا. ثم إنك فى منتصف الطريق، ياعزيزتى، ونحن قادمون

من فلورنسا ونموت من التعب، نود أن ننام بضع ساعات فى الأمان، هل تتكرمين بإعطائنا فراشاً؟ والقليل من الطعام؟

جهزت لهم غرف الضيوف، من الخطر أن أفعل هذا، لكنهم إن أتوا للبحث عنهم، فقد يجدونهم حتى وإن أخفيتهم فى مخزن القمح أو فى الكوخ. بعد أن ذهبوا للنوم، ألقى ببقية الليل أجهز لهم بعض المؤن ليأخذوها معهم، زيت وجبن وبيض وبعض زجاجات النبيذ. لقد أثرت فى جداً شجاعة نينا، وأرى أننا لا نعرف أبداً الأشخاص عن حق، أو ربما، علينا أن نعترف أن الأفراد يتغيرون، وأن خصالهم المختلفة تظهر على السطح أو تغوص بصفة نهائية فى القاع حينما تصطدم بهم الحياة.

تصل باستمرار أخبار عن مذابح من كل أرجاء توسكانا، من أريتسو وبيستويا وفلورنسا ولوكا، يصب الألمان المنسحبون غضبهم على النساء والعجائز والأطفال، بشكل يتزايد يوماً بعد يوم.

نحن نعيش هنا خفية فى سان بياچو، أصيب أدو بالتهاب رئوى أدى إلى وفاته فى ثلاثة أيام، وحل ابنه، ماريو، محله فى المزرعة، بعد أن عاد من الجبهة فى حالة يرثى لها يستحيل معها أن يعود للقتال من جديد، وهو يعيش مختبئاً فى خزان المياه الفارغ، الخزان رطب وملئ بالفئران ولكنه مخبأ آمن، يقوم الألمان والفاشيون بتمشيط الحقول منذ شهور بحثاً عن رجال ثائرين متمردين لاستخدامهم فى أعمال ريفية ثم

بعد ذلك قتلهم رمياً بالرصاص أو نفيهم. لا نسمع غير حكايات من هذا القبيل. أمضت نينا سنين الحرب وهي تتظاهر بعدم الاكتراث، مثل كثير منا، ثم ودون سابق إنذار، أخذت قرارها. أعتقد أنه إذا سألناها ولا حتى هي نفسها تعرف كيف ولماذا قررت؟. فى وقت الحرب، نتعلم أيضاً أنه حينما يحين الصباح فأنت لا تعلم كيف ولا أين ولا إذا كنت ستكون موجوداً وقت حلول المساء.

لقد بقيت أمى وحدها. توفى والدى، بعد دخول إيطاليا الحرب بثلاثة شهور. لم يعد مثل سابق عهده منذ أن رحل أنريكو عن عالمنا، فقد نخر عظامه مرض السرطان، دون أن يلق منه أية مقاومة. بدا ذلك واضحاً جلياً أمام أعين الجميع.

تم تحرير فلورنسا، أول أمس.

لم يعد هناك وجود لمنزل أجدادى. وقالت لى إيريس إنه هناك حيث كانت توجد بوابة الدخول، يوجد الآن فتحة فى الأرض تنبعث منها رائحة كريهة لأن أغطية البالوعات قد اختفت أيضاً.

وتقول كذلك إنه إذا دققنا النظر بين الأنقاض فإنه لا تزال تُرى قطع من الخشب المذهب، من يدرى، ربما كانت بقايا المقاعد الصغيرة فى صالة الرقص، والتي لم ترد أمى نقلها؛ لأنها، على حد قولها، "قطع أثاث غير أصلية، لا يستحق الأمر عناء نقلها".

تكتب لى أمى من الفاتيكان وترجونى أن ألق بها وتقول:- هنا  
نشعر أننا فى أمان أكثر.

لقد هيا لها سيادة القس فينتورى فراشاً فى حجرة تشرف عليها  
الراهبات، وهى منذ شهور مقيمة فى حجرة مع عشر سيدات أخريات،  
وكهن معهن أطفال. وماذا عنى أنا؟ أين أنا، طفلتها؟

هكذا قالت لسيادة القس فينتورى:- هل من الممكن أن أجعل  
طفلتى تلحق بى؟

فى نظر أمى، لا يزال عمرى عشر سنوات، وليس خمسة وثلاثين  
عاماً.

رفضت طلبها؛ فأنا هنا على خير ما يرام. حاولت أن أشرح لها  
أننى فى الفاتيكان لن يكون لى ما أفعله، ليس لى أطفال أقوم  
بحمايتهم وأنا فى حال أفضل فى هذا المكان. هنا يمكننى أن أكون  
مفيدة.

لقد قصفوا المدرسة قبل عام، ومنذ ذلك الحين وأنا أجعل من بيتى  
ملاذاً لمن يحتاج، ليس البيت على وجه التحديد، إذ كان من الممكن قصفه  
هو أيضاً، وإنما غرفة كبيرة تحت الأرض تقريباً نطلق عليها "القبو  
القديم"، وهى واسعة، وجدرانها سميقة جداً واستخدمناها أكثر من مرة  
كملاذ ضد الطائرات.

تحاول المدرّسة أن تجعل الأطفال ينسون أننا فى حرب، وتدعى مارجرىت وهى من فلورنسا ويملاً وجهها النمش.

لا أدرى إن كانت تنجح فى مهمتها هذه، ولكنها حينما تقوم بشرح التاريخ أو الرياضة، تبرق عيناها وتلمعان. إنها، بالنسبة لى، سعادة كبيرة أن أستضيفهم هنا. فى منتصف النهار أقوم بإعداد شرائح الخبز والزيت، وأحياناً أخرى شرائح الخبز والسكر، فقط فى حال عيد ميلاد أحدهم أو حصول آخر على درجة مرتفعة، ثم أنزل لأقدمها لهم. ويمجرد أن يرانى، يجرى نحوى فيليب، أصغر الأطفال بالفصل، وقد بلغ لتوه ست سنوات، ويأتى من بعده على الفور متئى وأنا، وعمرهما عشر سنوات.

ثم مارتسيا، إداالبرتو، ليديانو، باولو وچوزيبه الذى فقد ذراعيه قبل عامين بسبب شظية من قذيفة مدفع. أما الطفلتان الكبيران سنأ، لوريتا وماريا، فهما تتظاهران بأن الأمر لا يعنيهما، لعلهما تشعران بأن جريهما وراء الوجبة السريعة مثل الأطفال الصغار يقلل من شأنهما هما اللتان تبلغان الثالثة عشرة من عمرهما. أحياناً أمكث معهم وأسمع الدروس، أو أجلس مع الكبار منهم وأحاول أن أعلمهم بضع كلمات بالإنجليزية، واحد، اثنين، ثلاثة، وفى كل مرة أندش من سرعة تعلمهم. وتقول مارجرىت:

- إنها الحرب التى أوجدت بهم الرغبة فى التعلم.

وهم يخافون من كل شىء فى الخارج، من القفز على لغم أو من سماع قصص لا تنقل عن العنف والمخاوف فى حالة بقائهم بمنزلهم، أما هنا فالوضع مختلف، فهم يتعلمون القراءة والحساب، ويستمعون إلى قصص وحكايات رومولو وريمو أو كارلو الأكبر، هنا كل شىء يصبح تسلية ومنتعة. من ذا الذى كان باستطاعته أن يقول إن الحرب بإمكانها أن تقدم خدمة للأطفال؟

لست أدري إن كانت الأمور تسير على هذا النحو بالضبط، فالأطفال يأتون هنا بكل سرور بسبب وجودها هى أيضاً، مدرسة تعشق مهنتها، ذات عينين ذكيتين وتمتلك موهبة القصص. وقد حولت قبواً رطباً إلى فصل مدرسى، حتى وإن غابت المقاعد والدك والسبورة، وسوف تترك أثراً لا يمحي فى ذاكرة هؤلاء الأطفال.

فى يوم من أيام شهر نوفمبر، تصل مارجرىت إلى المدرسة وهى لا تقوى على الوقوف، تدخل الفصل بعد أن تلقى بدراجتها عند إحدى الزوايا وقد خلت عيناها من أى تعبير، كمن أصابه زعر أو رعب. أدعها تجلس، وأخرج الأطفال خارجاً.

أما هى فتحتج فى وهن وتقول:

- لا، لا، لا، يجب أن ألقى الدرس. سوف يزول الأمر الآن، سوف يزول الآن. يجب أن ألقى الدرس.

لا أذعن لما تقول؛ فهي تحت تأثير الصدمة، وبعد برهة تغمغم أنهم قتلوا خطيبها. تشير إلى الحقيبة المصنوعة من النخيل والمليئة بالكتب، كان بداخلها خطاب مكرمش يحمل ختم الوزارة. لا حاجة لى أن أقرأه وأضم رأس مارجريت إلى صدرى وأربت على شعرها. نبقى هكذا، طويلاً، وبدون أن أنتبه أخذت أهدهدها، إلى الأمام وإلى الخلف، ببطء شديد.

امتنعت مارجريت عن الكلام. واستمرت فى إلقاء دروسها حتى شهر يونيو، دون أن تفوت يوماً واحداً؛ لم تعد تبتسم، ولكنها لم تستسلم. فهم الأطفال وكانوا يتبارون فى استذكار دروسهم بشكل أفضل، فى تعلم عمليات القسمة أو فى حفظ وإلقاء الشعر دون ارتباك أو تشوش. لكنهم لم يعودوا يرون ابتسامتها. جاءت مارجريت تسلم على، آخر يوم فى الدراسة وقالت لى:

- سوف أترك التدريس. سأعود إلى فلورنسا، عند والدى؛ فالتدريس يتطلب رغبة داخلية وأنا لم أعد أرغب فى التدريس بعد الآن. حضرتك كنت على حق. الحرب لا تصنع أموراً حسنة، ولا تؤثر أحداً. ماذا بيدنا أن نفعل؟ هكذا سارت الأحوال.

لم أعد أركب خيلاً؛ فقد بقى لى فرس واحد وقد أخذوه منى. تبدو أشجار الكروم والزيتون فى حالة سيئة للغاية، ولم يعد هناك أحد يهتم بها، ولكنى أقول لنفسى إن الحرب ستنتهى إن عاجلاً أو آجلاً.

أتنقل بالدراجة، كما كانت تفعل مارجريت.

لا أعلم شيئاً عن تروت.

منذ ذلك المساء فى تورينو، منذ ذلك المساء قبل الحرب، لم أعلم أى شىء عنه منذ ذلك الحين. ربما تكون قد انقضت ثلاثون عاماً، وتلك الأحضان وتلك الأفكار هى الآن بعيدة كل البعد.

أقول لنفسى إن أهم شىء هو الصبر والاحتمال.

٢

انتهت الحرب.

نقل المذيع الخبر وجاء شباب المزرعة القريبة يطلبون منى أن أقرضهم السيارة حتى يتنقلوا بها من بلدة إلى بلدة يحتفلون ويستعملون آلات التنبيه ويطيرون العلم.

أعطيتهم السيارة المرسيديس، على الرغم من أنه كان بها قليل من البنزين وقلت لهم إنهم سيتوقفون فى الطريق، فى وسط الحقول. رفعوا

أكتافهم لأعلى وقالوا إن النتيجة واحدة. لا ليست النتيجة واحدة على الإطلاق؛ فمعنى هذا أنهم سيتوقفون وسط الحقول يهتفون بفرحتهم ويطيرون الأعلام بين أشجار الكروم.

لم أشعر أننى أرغب فى الذهاب للاحتفال معهم. تنقلت من مكان إلى مكان داخل أرجاء المنزل، أحرك مقعداً هنا وهناك، والتحف والآنية، والسجاد، كما لو كنت أريد أن أحتفل بالسلام عن طريق إزالة بعض التراب وترتيب أثاث المنزل، ولم أتوقف إلا عندما بدأ البرد يتساقط واضطرت أن أجرى لأغلق مغالق النوافذ.

إن حبيبات البرد تحدث تصدعاً فى الزجاج مثل القنابل.

انتهى الضجيج الذى يحدثه البرد، وأنا الآن وحيدة فى المنزل وفى هدوء تام، لقد انتهت الحرب، وهذا يعنى أنه ينبغى على أن أتطلع إلى الأمام وأن أفكر فى المستقبل.

إنها عادة فقدتها؛ إذ قد عودتنى سنوات الهمجية والتوحش هذه أن أرشد حتى المستقبل فى شكل حصص أو جرعات صغيرة وهى طريقة أنيقة أقصد بها أن أقول إننى كنت أعيش يوماً بيوم.

والآن واجب على أن أنفض عن كاهلى كل إحساس أو معنى بالزوال والفناء وعدم الدوام وأن أعود لما كنت عليه من قبل، أن أشمر عن

ساعديّ، من أجل خاطر أَرْضِي الزراعيّة وأشجار الزيتون المنهكة ومن أجل القليل من الكرم المتبقى والذي يطالبنى بعناية واهتمام دؤوب ومستمر، لعلها تكون طريقة جميلة للاحتفال بالسلام ألا وهي الاهتمام بإنتاج النبيذ.

فى وقت لاحق، وعندما بدأ الظلام يحل، دخلت غرفتى وأغلقت بابها وفتحت صوان ملابس السهرة، خرج منه رائحة الكافور الممزوج برائحة العطن المثيرة للغثيان، آخر فستان على المسند، وهو المفضل لىّ، عبارة عن قميص طويل من قماش الشيفون الأخضر بلون الخس وكله مطرز باللآلىء الصغيرة.

وأنا شابة كان يبدو لى وقتها أنه رداء باهر ذو جمال غريب، أنيق بشكل لا نهائى. ومما كان يجعله عزيزاً لىّ أكثر فأكثر أنه لم يكن يعجب أمى، التى كانت تهز رأسها وتكرر مراراً هذه العبارات: «من يرتدى اللون الأخضر، يخلع عنه مظاهر جماله»، وأيضاً «إن فتحة الصدر العالية جداً لا تلائم المرأة»، وكذلك «إن تداخل بعض الأجزاء الشفافة مبتذل للغاية».

كان ثوباً من جهاز عرسى، واحداً من بين ثياب أخرى كثيرة، غير أنه كان يثير فى الذكريات بقوة مما يجعله مختلفاً، فى عينيّ، عن كل الثياب الأخرى.

كنت أتخيل أن ذلك الثوب كان ليجعل منى جنية صغيرة فى الغابات، أو نبتة الدفلى الصغيرة بأصابع من عشب اللورا، أو ربما شكلاً أبسط من ذلك بكثير، مجرد خسة صغيرة متحركة ترقص، فى خفة وعدم إعياء، حتى بزوغ الفجر، فى بستان عادت إليه الحياة بفعل سحر غير معلوم.

أما باقى ثياب جهاز عرسى، تلك التى اختارتها لى أمى، كانت عبارة عن كيلومترات من الأقمشة المهدة المتوقعة: قماش التافتاه الأحمر النارى الذى كان كفيلاً أن يصنع منى والكيرا وهى واحدة من الفارسات اللواتى يقررن مصير المعارك فى الميتولوجيا الإسكندنافية، وطقم رسمى من اللون الكحلى كنت بالتأكيد سأرتديه لإعطاء أوامر حادة لا تقبل النقاش، لا أدرى على وجه التحديد لمن، وكذلك ثوب من الساتان الأبيض كان ليعيقنى ليس فقط عن الرقص وإنما عن السير أيضاً وبه كل هذه الكمية من القماش وذلك التصميم من الثنيات والكرانيش والكشكشة.

لم أسقط فى مصيدة اعتبار أن اقتناء دولا ب كامل من الملابس، كلها ملك لى، لهو دليل قاطع على كرم أمى، كنت أدرك تماماً أن كرمها هذا يخضع لقاعدة اجتماعية محددة ومقننة وهى أننى كنت فى طريقى إلى الزواج وكان لابد من دخولى بيت فيللافورستا محملة بالصناديق والحقائب المليئة بالثياب لكل مناسبة، للصباح، لبعده الظهر، للعشاء،

للرقص، للمساء، وهكذا دواليك، وهذا كله للحفاظ على آداب المراسم وقواعدها والتقاليد المتعارف عليها. وكنت على وجه الخصوص أدرك أن أمى لا تختار لى ملابسى فحسب وإنما تلقننى، بفن وحنكة، مجموعة من التصرفات الاجتماعية الواجب على انتهاجها، هذا بينما كنا نشاهد السيدة الأولى فى مشغل ومحل خياطة الأخوات جامبينو وهى تتحرك بخفة حولنا وتستدعى عارضاتها للخروج علينا واحدة تلو الأخرى وهن يرتدين الموديلات المختلفة. كانت أمى تلقننى هذا السلوك لأنتى كنت على وشك أن أترك مرحلة الصبا وما يميزها من الملابس التى ترفل فى أمتار وأمتار من الزركشة والتطريز والجوارب المصنوعة من القطن الإنجليزى؛ لاقترباب موعد اقترانى بثيلالافورستا، ومن ثم كان على تخطى هذه المرحلة والدخول فى مرحلة تميزها ملابس داخلية من الحرير الخفيف والرقيق جداً لدرجة أنها كانت تثير اضطرابى لمجرد ملامستها، وكأن حدسى ينبئنى بأن هذه الملابس كانت ستعبر بى إلى عالم آخر، غامض ومغرم، مفعم بالدروب العثرة والجسور الهشة المعلقة أعلى وديان من البذاءات والأعمال غير المحتشمة.

كم كانت تكلفنى وقتها إطاعة أمى، التى كنت أحبها أيضاً بحنان بالغ، كم كان يكلفنى إدراك أننا متباعدتان إلى أقصى حد، نحن اللتان كنا أقرب ما يكون إذا تحدثنا عن علاقة الدم والمشاعر وحتى جسدياً؛ لأن لنا نفس لون الشعر الكستنائى الغامق والحواجب نفسها التى على شكل قوس غير قصير.

لكننى حسمت أمرى هذه المرة، ولا أنوى الاستماع إلى علل  
وأسباب، أصمم على رأيى وأتوسل وأشير إلى عارضة الأزياء ذات  
الوجه الصارم التى تتحرك هنا وهناك أمامى أنا ووالدى ونحن غارقتان  
فى الأريكة المصنوعة من القטיפه.

وأنتصر.

أنتصر لمرة واحدة.

فى النهاية تخفض أمى رأسها، وتومئ بالإيجاب. ثم تستدير نحوى  
وتبتسم.

لقد استدر شىء ما عطفها، ولا أعتقد أن تكون نظرة مديرة المشغل  
التي تغض الطرف، بقدر ما هو خاطر رقيق، همسة عطف وحنان  
خالص، طفولى؛ إذ قد رأت نفسها فى، هى الفتاة الأجنبية الجميلة التى  
راحت تبكى ليومين وليلتين متواصلتين ولا تريد أن تتعزى حينما تزوجت  
من والدى وانتقلت من فلورنسا إلى تورينو.

أحضر الساعى إلى منزلنا علباً وصناديق للقبعات من الكرتون  
تبرز منها ملابس بديعة رائعة وابقى مشدوهة ومفتونة وأنا أنظر الثوب  
الأخضر.

على أية حال، لم أقم إلا باختيار ثوب سهرة، غير أنني أرى فتاة، متدثرة بذلك الرداء، الذى يميل لونه إلى الأخضر الفاتح، سرعان ما اضمحل هذا الإحساس، ولم يتبق منه سوى أثر طفيف أوشك على التلاشى ولكنه مع ذلك مستمر، مثل بعض أنواع العطور، ذات الرائحة المعسولة التى ترشها السيدة وودروف والتى تبقى لفترة طويلة فى حجرة الصالون، حتى بعد أن تغادرها.

إن صورة الفتاة التى تتخذ من أوراق الخس رداءً لها، وهذا هو بالتحديد ما يعجبني كثيراً فى ذلك الرداء، اللون والخفة المطلقة، لهى صورة عزيزة على نفسى بدرجة غريبة، بل أكثر من عزيزة، فهى قريبة من نفسى ومألوفة.

نعم، بالتأكيد، إنه فقط مجرد ثوب من الشيفون ولكنه مطرز كله باللالئ الصغيرة، وعندما تسقط عليه أشعة الشمس، أنتبه إلى أنه يضيء بفعل انعكاس الضوء، مثل القمر.

هذا هو الثوب الذى أرتديه فى باريس عشية لقائى ب تروت.

هكذا بهذا اللون الأخضر المنتثر عليه الضوء يرانى تروت لأول مرة.

من يدري؟ ربما بدوت له هو أيضاً جنية من الغابات من يدري؟ ربما من أجل هذا لم يشعر أبداً بأية رغبة فى ملاحقتى. لا شك أنه فكر

أنه مجهود ومشقة لا فائدة منها، خشية منه ربما أن أتحوّل إلى عشب من أعشاب الغار، أو ربما كان يتخيل أنني سوف أهرب بعيداً جداً بحيث أفقد القدرة أنا نفسي على العودة من جديد.

لا يمكن ملاحقة شخص بعيد جداً.

٣

تناديني نوقيللا، زوجة ماريو.

- هناك من يريدك على التليفون.

- من يكون؟

- لا أعرف، لم أسأله.

أنزل لأسفل وأنا أشعر بالضجر.

أمقت المكالمات الهاتفية المفاجئة.

تمتلئ حجرة الصالون بأشعة الشمس، فنحن في منتصف فصل الصيف. أتعرف على هيئة أمى النحيلة وهى ممددة على الكرسي الطويل، أغلب الظن أن التعاس قد غلبها. مرت علىّ، وهى فى طريق عودتها من الفاتيكان، ومكثت عندى أسبوعين، ولكنها عقدت عزمها على العودة إلى

تورينو. وعلى الرغم من إلحاحى، فلا جدوى من إقناعها بالعدول عن رأيها وبقائها معى. قلت لها إنه لم يعد لها شىء فى تورينو، وفى الحال ندمت على هذه القسوة غير المقصودة منى.

كيف غابت عنى حصافتى ورقتى وحساسيتى؟

لست أنا الواجب على أن أذكرها بأنه فى البيت الكائن فى شارع ماچينتا، والذى علمت أنه ربما الآن يأخذ اسماً جديداً، لم يتبق أى شخص، سوى خادم عجوز وأنجيلو الطباخ.

ترمقنى أمى بنظرة تتم عن مفاجأة، تلك النظرة الثلجية التى كانت تصيبنى بالشلل فى وقت ما والتى أعزوها اليوم فقط إلى أفلاكها وعولمها الخاصة العميقة جداً والعالية كما هو حال السيدات الجميلات فى الغالب. تلوى شففتيها وهى تبتسم ابتسامة دهشة وتسأل بصوت خفيض:

- كيف تقولين إنه. "لم يعد لى شىء هناك؟ وأوراقى، وموسيقاى، وشئونى، وعمليات البيع الخيرية، والصديقات ولعبة الورق، هل حياتى هى لا شىء بالنسبة لك؟

عصر هذا اليوم، وهو من أواخر الأيام التى نقضيتها سوياً، تتركنى أمى بمفردى، إذ سبق أن وجدتها ناعسة فى المقعد الوثير، وجهها فى الظل وأكتافها مستندة على النافذة.

لا أريد أن أستقبل المكالمات الهاتفية من التليفون الذى بجوارها، لا أريد أن أزعج نومها الخفيف.

منذ أن جاءت لتمضى معى بضعة أيام، وأنا أعاملها برقة متناهية. لقد تقدم بها السن فجأة بعد الحرب، فى الماضى كانت تعتبر مجرد النعاس فى حجرة الصالون سلوكاً معيماً لا يغتفر. بالتأكيد هذا يرجع إلى الشهور التى قضتها فى الفاتيكان، والنوم فى غرفة كبيرة مع عشر سيدات أخريات لا تعرفهن، وتغيير ملابسها وخلعها خلف ستار موضوع هناك بصورة مؤقتة دون سابق إعداد، أثناء الحرب يخلع الإنسان عن نفسه كل شىء، يخلع مظاهر حياته وخجله وكذلك عوائده القديمة. أمر بالقرب منها وأعطيتها قبلة خفيفة، أما هى فتمسح خدها دون حتى أن تغير من جلستها وكأنها تطرد ذبابة من أمام وجهها.

أذهب إلى المطبخ لتلقى المكالمات؛ فالشخص الذى اتصل يمكنه الانتظار. إن نوم أمى أهم.

أهم بالرد ولكن لا مجيب. أوشك أن أضع سماعة الهاتف، فالخطوط لا تزال سيئة، غالباً ما يضع الاتصال دون أى سبب واضح، ولكننى أسمع نفخة، لا تكاد تصل إلى حد النفس، مجرد صوت خفيف للغاية. أنتظر.

يقول الصوت:

– أنا، أنا هو، تروت.

أنسى وقتها أن أتتنفس.

أعادت لى هذه المكالمات، الإحساس بكامل خفة الطم، والأمل فى أن يتحقق هذا الحلم يوماً ما، جرى كل هذا فى لحظة واحدة.

٤

إن تروت موجود فى سيينا.

وهو ينتظرنى فى بانسيون نينى حيث نزل.

أتصل بـ نوفيللا وأرجوها أن ترعى والدتى، وقتما تستيقظ. ثم أركض إلى حجرة النوم وأبحث بشكل محموم فى ملابسى عن رداء يليق. لقد انقضت ست سنوات منذ آخر مرة رأيته فيها. لقد بلغت أعوامى الستة والثلاثين، وهناك خيط رفيع من التجاعيد حول عينيّ وحول فمى.

لا يوجد فى دولا بـ ملابسى سوى كنزات صوفية وبنطلونات من قماش بسيط وقمصان على الطريقة الأمريكية.

أقول لنفسى إنه لا فائدة من تغيير هيئتى ومظهري. وهذا هو ما أستمر فى ترديده على مسامعى وأنا أركن السيارة، أغلقها ثم أدلف من باب البانسيون الدوَّار، وأسأل عن تروت عند الاستقبال ثم أتجه دون أى تردد نحو المكتبة.

إن ما يُطلق عليه المكتبة فى بانسيون نينى لهى غرفة ضيقة، ورق حوائطها على شكل خطوط ناعلة اللون. فى الوسط توجد طاولة مليئة بالمجلات، وبعض المقاعد المريحة المبطنه، وسجادة حمراء، وأشكال من الورود المطبوعة على الجدران. وبخلاف النافذة، يمكن أن يلمح المرء شرفة خاوية تعمرها الشمس.

إنه يوم حار، ويعود بانسيون نينى إلى استقبال أعداد من الأجنب الذين يبيتون فيه لفترة قصيرة.

انظر حولى.

أرى على المنضدة أيضاً صينية عليها زجاجتان أو ثلاث من خمر مصنوع فى المنزل، من النوع المعتدل أو ذلك المنقوع به حبات من الجوز، شىء من هذا القبيل.

تروت ليس بموجود.

أنظر حولى وأنا متحيرة.

هناك امرأة ورجل، هى تدخن سيجارة وياليد الأخرى تحرك قطعة من الورق على سبيل التهوية. أما هو فراسه منحنية على جريدة وبالكاد يرفع بصره نحوى. أراقبه بعدم اهتمام، شعره قصير جداً على الطريقة العسكرية، ويبدو لى أنه مهمل فى ملابسه.

أخرج وأتوجه ناحية مكتب الاستقبال كى أستفسر عن الأمر، وفى ذلك الحين أسمع أحدهم ينادينى فألتفت. نهض الرجل واقفاً، وظل بلا حراك وسط الغرفة وهو يكرر، بهدوء، اسمى. هذا هو ما وجدته فى بنسيون نينى: رجلاً يرتدى قميصاً أزرق وينطوئاً بيح، ازداد وزنه بشكل طفيف، وخلفه شرفة تغمرها الشمس ونبات الياسمين الأبيض المتسلق على شكل دائرة، وصمت شبه مقدس، وأنا، من انتظرت هذه اللحظة طوال ست سنوات، لم أتعرف عليه، ولا أقوى لا على التفكير ولا على قول كلمة واحدة، بل أشعر بأننى تحت وطأة الفراغ والصمت، وعدم تعرفى عليه الذى يبدو لى وكأنه خيانة، وقد أضنانى الدهول وأحسست بالتأثر من اضطرابى، من اضطرابنا، ومن هذه الحقيقة الملعنة والأليمة التى نختبرها، وهى أننا لسنا كما كنا من قبل.

قطب وجه تروت.

يقول، دون أن يبتسم:

- سلام.

ها هما، الواحد فى مقابل الأخرى، هذان العشيقان الخفيان اللذان لم يتقابلا سوى أمسية واحدة، ومع ذلك ظل كل منهما يتذكر الآخر، هذان الاثنان اللذان كان يبحث كل منهما عن الآخر بعينه، قبل الحرب، وسط جمع من المدعويين واللذان يتظاهران، فى هذا المساء شديد القيظ، بأنهما لا يزالان يتحابان ويرغب كل منهما فى الآخر؛ لأن هذا الماضى التافه الذى لا يرقى إلا لمستوى المجلات الرومانسية، ويجدر بنا أن نعترف بهذا! هو كل ما يملكاته.

ينظر كل منهما للآخر فى عينيه، ولكنهما فى الواقع ينظران إلى ما وراءهما وتتم نظرتهما عن خواء وارتياح. تبدو المكتبة الكائنة بـ بنسيون نينى صغيرة للغاية حتى تستوعب ارتباكهما واضطرابهما.

لقد انتظرت إيماءة، خطاب، كلمة طوال ست سنوات، ست سنوات.

- قدم لى سيجارة، لو سمحت.

هذا كل ما أستطيع قوله.

خمس كلمات بسيطة، تظل تطفو تائهة شاردة، عالقة بالهواء، مثل ذلك الغبار الذهبى الذى يتراقص فى حزمة ضوء الصيف.

يومئ تروت، يمسك بيدي ويقربها من شفتيه. نظرتة فقط هى التى بقيت على حالها، وهذا فى حد ذاته يكفى.

- تعالى هنا. اقتربى أكثر.

جلس على حافة الفراش، غير أننى بقيت واقفة. أشاهد ملابسى  
وهى تقع أرضاً دون جلبة. أشاهدها كما لو كنت لا علاقة لى بها.  
يلامس تروت أكتافى ثم يقبلنى.

أتركه يمرر أصابعه ونظره على جلدى وأن يقبل وجهى كله وفمى  
وعينى وجبينى.

فى الصمت.

عينا تروت.

أرتجف دون أن أدرك.

أرتجف من الرغبة.

كان باستطاعتى الهروب معه منذ سنوات طويلة. كان باستطاعتى  
إبعاد المقعد عن مائدة السفرة، وترك المنشقة بعد الطبق الأول أو الثانى،  
كان باستطاعتى أن أتأبط ذراع صديقى، صديقى ذى العيون  
المضطربة، وأن أخرج معه من ذلك البيت الكائن بشارع كامبون، تحت  
بصر زوجى غير المكترث فى ازدراء، وبالطبع، تحت بصر كل الآخرين  
الذين يجدون فى هذا متعة لهم وتسلية أكثر من استنكارهم له.

كم هو غريب أنه في بعض الأحيان يتطلب الأمر نفس القدر من  
الشجاعة والطيش والتهور للاستحواذ على ما يرغب فيه المرء بشدة!

وقتها كان كل شيء يحبذ تحديد ثمة موقف ويستلزم تحمل  
مسئولية معينة، ويلزمنا باختياراتنا.

لقد سلب كل منا الآخر، أنا وتروت.

ومن أجل هذا أنا الآن محبطة تماماً.

إن أمى على حق، حينما تقول: إننا لا نعيش أحداثاً تراجيدية وإنما  
نصاب فقط بحالات من الإحباط وخيبة الأمل والندم.

أدرك أنني على وشك أن أبكى. أتمنى ألا يلحظ تروت هذا.

لا داعى لأن يرانى وأنا أبكى فقد كان أنريكو يقول فى صوت

رتيب:

- يا لك من صريحة جداً وبديهية! فكل الفتيات يبكين.

كانت ميس وودروف لتقطب أنفها دليلاً على امتعاضها. أخفى  
رأسى تحت الوسادة. كان أبى يقول دائماً إن لدى وجهين، مثل  
الميداليات، أبكى بوجه وأضحك بالآخر. وأقول لنفسى، الآن أظهر الوجه  
الذى يضحك.

مارسنا الحب على عجلة، كما وإن كانت صفارة الإنذار على وشك أن ترن بين الحين والآخر، ولكننا بقينا متعانقين لفترة طويلة. لا يُسمع أى ضجيج سوى طنين نذابة كبيرة دخلت من النافذة، نذابة كبيرة غبية للغاية لدرجة أنها ظلت تتخبط فى الزجاج، دون أن تفهم أين هو المنفذ للخروج.

قرأت ذات مرة أن حياة الذبابة لا تدوم سوى ساعات قليلة.

- إن الذباب يعيش ليوم واحد فقط. على الأرجح، يولد فى الفجر ويموت عند الغروب. من يدري إن كان الأمر كذلك بالنسبة للذباب الكبير. أتعتقد أن الذباب الكبير والذباب الصغير ينتمى لنفس العائلة؟ أتعتقد أنها مسألة أحجام فقط؟

- ما هذه الأسئلة التى تسألينها؟

لا أدري ما هذه الأسئلة التى أسألها. ألتف حول نفسى تحت الملاءة.

- إنه يتطاير هنا وهناك. ويحمله الهواء فى كل مكان. ألتخيل كم هى مشحونة وملبئة. حياة الذبابة؟!

- ينهض تروت ليفتح النافذة على مصراعها.

تطير الذبابة الكبيرة بعيداً. ويقول تروت متهكماً:

- على الأقل هكذا لا تضيع وقتها هباءً معناً. فأمامها وقت قصير لتعيشه، إنها السادسة مساءً.

نظرة تروت يصعب فهمها، وبالنسبة لى، فكل ما يتعلق ب تروت طلاس يصعب فهمها لسبب بسيط وهو أنني لا أعرفه جيداً. أقول له هذا.

يضحك، وينبرة صوت خفيضة يسألنى، دون أن يكون راغباً فى سماع إجابة.

- كيف تقولين إنك لا تعرفيننى؟

لا بد وأنها حارة أيضاً ليلاً، هذه الغرفة الموجودة بالطابق الأخير، تحت السطح. قبل الحرب، كانت تصل أفواج من السائحات، ويصفة خاصة الإنجليزيات مديرات منزل أو معلمات بالمدرسة النهائية وقد أصبحن على المعاش، بفضل الأسعار الزهيدة وورق الحوائط المنقوش على شكل زهور. بالتأكيد، أولئك الأنسات نوات الألوان الهادئة الناعمة، بعد أن أغلقن باضطراب مزلاج حجرة النوم، قد أضناهن مشاهدة برج كاتدرائية الـ دوومو الذى يعلوه الجرس، وكذلك هذه الشرفات الإيطالية، الرومانسية للغاية، مثل شرفة جوليت؛ فكل هذا يبدو لهن ذا طابع إيطالى صميم. يجول بفكرى ألف خاطر من هذا القبيل؛ لأن تروت وأنا

ليس لدينا ما نقوله ولا بد من ملء هذا الصمت، أفكر فى أمى وصوتها الحاد، وهى على استعداد دائم لتويخى، وإلى كيفية تبرير عدم قضائى هذا العصر معها على غير توقع، دون إخطارها مسبقاً على الرغم من معرفتى أنها تتضايق من التغييرات التى قد تطرأ على البرنامج اليومى، ومن الأحداث المفاجئة؛ لأنها تخشى من خروج الموقف، أى موقف، عن سيطرتها. وقد حدث لها هذا بالفعل؛ فقد فقدت أبى وأخى، لقد انسابا من بين يديها، وبقيناً تعذب أمى نفسها؛ إذ تتساءل كيف عجز حبها وحنانها عن الإبقاء عليهما؟ وكيف تمكن الموت من أن يكون وقحاً إلى هذه الدرجة وصلب الرأى عنيداً إلى هذه الدرجة؟

أقول لنفسى، هكذا سارت الأمور.

لا أحد يستطيع أن يختار كيف يجب أن تسير الأمور.

ولا حتى أنا.

ثم يلتفت تروت وينظر إلى ويقول:

- حتى هذه اللحظة، لم أدرك أنتى أرغب فى البقاء، وأحتاج إلى مكان للإقامة. أيمكنك استضافتى لبعض الوقت؟

هكذا. يقول هذا الأمر هكذا. هل من الممكن أن تُقال هكذا أمور

مثل هذه؟

يقول تروت أيضاً:

- أحبك.

(أو يقول: حبيبتى، أو: يا كنزى، ها أنت هنا، أو ربما: أحبك لدرجة الجنون، أو لعله لا يقول أى شىء على الإطلاق، غير أنني مع ذلك أسمع كل هذه الكلمات، ليست هى بكثيرة الكلمات التى يمكن سماعها خلال الصمت).

أجيبه:

- لقد انتظرت رسالة أو مكالمة هاتفية طوال ست سنوات.

لا أقول المزيد، أنهض، أذهب للحمام لارتداء ملابسى ثم أخرج. أغلق باب الحجرة برقة، منتبهة إلى عدم إحداث ضوضاء، ويحدث المقبض المعدنى وميضاً فى الدهليز المظلم؛ إذ يتسلط عليه شعاع الشمس.

لم يحاول تروت حتى أن يستوقفنى.

أعود إلى المنزل يتملكنى إحساس بأننى ابتعدت عنه لأيام وأيام، ربما لأننى كنت فى جولة حول العالم، وعلى العكس لم يتعد الأمر سوى بضع ساعات من العصر، وإن كانت طويلة، ممتدة، كالحد الفاصل، كالحاجز، بل أكثر من ذلك، فهى وقفة عميقة لم يكن من الممكن تداركها أو تجنبها.

تركت تروت هناك، تلفه الملاءة البيضاء وهو ينظر إلى مَحدقاً، وعلى شفتيه شبه ابتسامة ولكن دون أن ينبس بكلمة واحدة.

## ٥

ألف وأجول فى البيت كالحىوان فى القفص. يقيم تروت منذ أسبوعين فى بانسيون نينى وثلتقى كل ليلة. أحياناً أنام عنده، ساعات قلائل من النوم المتقطع؛ لأننى مضطرة أن أعيش حياتى فى الخفاء، أن أخرج من البيت فقط حينما تنام أمى وأن أعود قبل الفجر بحيث لا تنتبه إلى الأمر. إن جوليانا نينى، صاحبة البانسيون، امرأة شجاعة. قُتل زوجها، لورينسو، عام ١٩٤١، إثر طلقة من مدافع الإنجليز والأمريكان، ومع ذلك لم تفقد ثقتها التى لا تخور فى الحلفاء. تكره الألمان من كل قلبها، وحينما قال لها تروت ياته نقل العديد من المعلومات المهمة إلى قيادة الحلفاء، لم تتردد لحظة واحدة فى إعطائه غرفة خلفية صغيرة، يمكن الوصول إليها من الفناء. لا يزال يجثم على مدينة سيينا جو كئيب. خلف الخوف رائحة تشرىت بها الحوائط والجدران، وتخيم على الضواحي والريف. كانت السنتان الأخيرتان من الحرب قاسيتين جداً. كانت الطائرات الأمريكية لديها أوامر بضرب كل ما يتحرك فى الحقول. بتينا، أخت ماريو، ماتت هكذا. كانت قد ذهبى لتأخذ بعض الزيت للمصباح من مزرعة الجيران، وكان ذلك فى إحدى الأمسيات التى بدت

هادئة. حتى الآن، وبعد انتهاء الحرب، تمسك النساء جيداً بأولادهن الصبية، فهم فتية يسيطر عليهم غضب الكبار وعدم إدراك الصبيان الصغار والأمهات لا يزلن يحملن الخوف فى قلوبهن. كان انسحاب الألمان عبارة عن حمام من الدم. فى خلال خمسة شهور، حدثت مائتان وثمانون مذبحة للمدنيين فى حوالى ثمانين بلدة فى توسكانا، فى الغالب تقع على جبل من جبال الألب. يقول ماريو إن القتلى قرابة الخمسة آلاف.

لقد عشنا فى رعب لزمان دام أكثر من اللازم. هناك من يعانى الجوع، ومن فقد كل شىء، ومن لا يملك شيئاً آخر ليفقده، وهذا هو الحال هنا فقط، فى هذا القطاع من الأرض الذى أعرفه وأحبه، والذى تحوطه التلال وكأنها إكليل. يروى تروت إن الشمال يماثل الجنوب، وإن أوروبا الآن عبارة عن كومة من الحطام والأنقاض والألم، وإن بيتى فقط هو قطعة من الجنة لم تطلها القنابل ونجت من العذاب، ولا أحد يدرى لماذا. لما ماتت بتينا، لم يتم ماريو ولم يأكل ليومين، وكان يكرر فى عند وإصرار على مسامح زوجته التى تحضر له القليل من الحساء، ويقول دون أن يذرف دمعة واحدة:

- خبزى هو الألم، نوقيللا، بعينى وشأنى.

كانت هى التى تبكى دون تعزية. وأنا أحاول أن أسرى عنها. وكانت تقول وهى تنفخ من الغضب:

- ألا تفهمين، ياسيدتى الكونتيسة، أنه لا ينجو ولا واحد هنا؟

لم تبرح هذه العبارة ذهني، وإنما بقيت تطفو على السطح، وكأنها تعليق من تعليقات السينما، لا ينجو ولا واحد، ولا واحد.

لا يتحدث تروت عن نفسه، وأنا أتردد في أن أسأله. فقد تعلمت أن أخشى الإيضاحات مثلما أخشى الصمت. لا يتحدث عن أى شىء على الإطلاق، فى الحقيقة. أشعر بقلقه بين الحين والآخر، ولكن لا أعلم مم ولا لماذا يقلق. ثم نمارس الحب ليلاً كمراهقين، دون أن نهدر ولا دقيقة واحدة فى الكلام، تماماً مثلما يفعل أولئك الذين يحسبون وقتهم بالدقيقة والثانية، وهم العشاق ومن يتوارون عن الأنظار، وفى كل مرة يكون حبنا مذاق مختلف. فأحياناً يكون عنيفاً، ويضمنى إليه تروت بشدة حتى يؤلنى وحتى يرى إن كانت عيناي تتمان عن الخوف، وأحياناً أخرى يكون حبنا عذباً حنوناً، ويسلم هو نفسه فى حنان طفولى يثير العطف. تحتوى الغرفة الصغيرة فى الطابق الأرضى بيانسيون نينى على نموذج كامل من الانفعالات الإنسانية، وهى محفوظة بداخل الغرفة حتى نجدها، تروت وأنا، ثمينة وسليمة كما هي فى انتظارنا نحن وليس سوانا. وحينما أسأله، بين الحين والآخر، عن زوجته وعن ابنته، يجيبني بإيماءة تصحبها واحدة من نظراته تلك الطويلة الصامتة، التى أعجز عن فك طلاسمها. ويكتفى بقوله:

- إنهما تعيشان فى فرنسا؛ فالأمور لم تعد كسابق عهدهما، لم تعد  
إيناس قادرة على الحياة معى. إذن، لقد انفصلا برغبتهما؛ فلم  
تعد إيناس مغرمة بتروت، هل سارت الأمور على هذا النحو  
بحق؟

لقد تغير كل شىء فى هذه السنين، ودمرت الحرب كل شىء، ولم  
تكتف بإخلاء المدن، وزرع القنابل بالحقول؛ قنابل انفجرت وقنابل لم  
تنفجر، حتى من قبع منا فى البيوت الصيفية، على جبال الألب، وفى  
الفاتيكان، أولئك الذين تظاهروا بأن هذه الحرب هى كمثلاتها الأخرى،  
واحدة من تلك الحروب التى تُدرس فى الكتب والتى يتم التقاتل فيها  
بالبنادق الصغيرة، حتى أولئك سلموا فى النهاية واعترفوا بأن هذه  
الحرب كانت بمثابة السم الذى تسلل إلى الرئتين.

لقد أسفرت الحرب عن باقين على قيد الحياة. فلا هم مصابون ولا  
هم ناجون من الجراح، هم باقون على قيد الحياة فحسب. إنه واقع  
مختلف، وجديد، علينا أن نتعامل معه ونتحسب له.

يشك تروت فى كل شىء، فى نفسه، فى مشاعره، ولا يدرى ولا يعلم  
أى شىء، فهو يضع مقدمة المركب فى مواجهة الرياح، ويبتظر ليعرف  
أين سيكون من المناسب أن ينعطف ويميل. وسط هذه الحيرة والشك  
تذكر فتاة ليست سهلة المنال ولكنها متألّة، ربما كان بينهما شىء ما.  
إنها ذكرى مهزوزة وغير محسومة، ذكرى زمن سلام بعيد جداً للدرجة

أنه يبدو مصطنعاً مثل بعض المشاهد المسرحية، أو لدرجة أنه لم يوجد أبداً فى الأساس، زمن من الخيال، خيالى، فهل قابلها بالفعل، تلك الفتاة، ولكن أين قابلها؟ فى المسرح، فى أحد معارض "جورتشينو"، أم ربما فى الأوبرا، أو عبر الطريق؟ أم قابلها فى حفل استقبال، أما هى فتبدو نظرتها زائغة شاردة، وإنما هى فى الحقيقة نظرة فارغة؛ لأنها اختارت، لا، لم تختَر، وإنما قُدر لها، أن تحمل على عاتقها عذاباً هائلاً ولكن تحتويه قبضة يد واحدة، فلا يرى من الخارج. هل انتبه تروت إلى مقدار الغطسة والخيلاء، اليوم، فى ارتداء الفراك لتناول العشاء خارج المنزل، وإرسال شخص ما إلى محل الزهور ليبتاع قرنفلة أو زهرة الجريدنيا ليثبتها فى عروة السترة؟

ومع هذا، تقول لنا الذاكرة إن هذا هو بعينه ما كنا عليه، وتغمرنا حسرة نعجز عن محوها. ربما كان هناك بعض من الحرج، وقليل من العار والخجل، وانزعاج أكيد، فأين اختفى، عالم بأكمله؟

يظن تروت أنه يحبني ويريدني، إنما يختلط عليه الأمر بيني وبين تلك الذكرى، ولا يعلم، ولا يفهم، أنه لا يسعى ورائي أنا بل يسعى وراء ذلك الرجل ذى الشنغز المعقود للخلف والنار فى عينيه والتي ليست إلا حبه لذاته، حبه للثلاثين عاماً، وحبه لمائة، بل ألف حياة جديدة تفتح له ذراعيها. من أجل هذا، جاء إلى هنا بحثاً عني؛ لأنه على الأقل أنا، بولائى وإخلاصى له، أعيد له هذه الصورة التي لا يعثر عليها فى أى

مكان آخر؛ فأنا بمثابة مرآة يرى فيها الشخص الذى اعتقد فى الماضى أنه هو. ينسب إلى تروت قدرة سحرية أنا لا أملكها. ولا أستطيع أن أقوده من جديد لذاته البعيدة تلك. إنه يسىء فهم هذا القصور الموضوعى، فلا أحد منا يمكنه أن يعود إلى ما كان عليه قبل الحرب، فلماذا لا يفهم هذا؟، ويفسره على أنه نقص فى الحماس. فهو يجدى ذابلة باهتة، مستسلمة، مختلفة للغاية، أين توارت وخبت المرأة الشابة التى يلفها معطف من الساتان، وتنساب من الباب الدوار فى أحد المطاعم الحديثة؟

ينبغى أن أجهز حقائب أُمى لأنها غداً سوف تعود إلى تورينو، إذ يمكن أن تقلها نينا التى تنوى الذهاب إلى تورينو لاختيار سيارة جديدة، عملية ومريحة هذه المرة، ولا أجد صعوبة فى ذلك، بل إننى أجهزها فى سرعة. ثم إننى أستفيد للصعود إلى أعلى البرج، وهو مكس بالصناديق، والمقاعد المنقوية وأغراض أخرى، إلا أنه عند التمكن من المرور من خلال هذا الكم الهائل من الأشياء التى لا قيمة لها، فالمكافأة هى نافذة صغيرة مستديرة، أعلى درجتين من السلم، تفتح على شرفة صغيرة ضيقة وطويلة. المنظر من هناك يحبس الأنفاس، أراضٍ زراعية وحقول منتظمة، مساحات من الغابات تتحول إلى اللون الأزرق والرمادى المائل للزرقة لأن الشمس وهى تغيب قد غطتها بالظلال. كان يوماً شديداً

الحرارة، مضيئاً، ودائماً ما أفاجأ عند ملاحظة كيف أن نور الغروب الناعم يعيد للمنظر عمقه وألوانه الكثيرة المليئة بالظلال والفروق في الدرجات، بل إنه يخفف من حدة النهار وضججه ويُعد كل شيء لسكون الليل. من يدري كم من الوقت أظل هكذا، شاردة أداعب بعينيّ هذه البانوراما الممتدة أمامي، ولا يبرح التفكير في تروت أعماق نفسي. كم كنت أود رؤيته يظهر من جديد في حياتي من أجلى فقط، دون أى سبب آخر سوى ملاقاتي، وليس من أجل الاختباء مثل هارب يتخفى. خائف، جبان، ضال الوجهة وتائه.

## ٦

يرحل تروت متجهاً إلى فلورنسا. قال لى إنه سيستقر هناك، حيث المكان أكثر أماناً. روى لى إن أعماله ساء بها الحال وليس هناك ما يربطه بباريس، بينما فى فلورنسا، كلفه ثرى أمريكى بمهمة يعلم جيداً أنه يمكنه القيام بها بكفاءة. ولما أسأله عن طبيعة هذه المهمة، يحرك يده بما معناه، أنها تقاهات، أمور لا قيمة لها، ونظراً لإلحاحى وإصرارى أتمكن من أن أدعه يقول لى إنه مطلوب منه أن يقوم بتجميع قطع من البرونز، أو من الفخار، لوحات مرسومة، رسومات جدرانية منفصلة، كل ما يجده.

يقولون في أمريكا إن حتى القساوسة والراهبات الخادمت في ريف إيطاليا يقومون ببيع قماش حجرة أواني الهيكل لكسب بعض المال.

يحلم الثرى الأمريكي بحلم وهو امتلاك مجموعة من القطع مثل تلك الموجودة بالمتاحف، وهو يملك وسائل اقتصادية ضخمة وصناعات ميكانيكية، ازدهرت جداً في زمن الحرب، وفي سنوات قليلة حظى بمكانة اجتماعية وبمنزل جميل في شيكاغو، لم يتبق سوى تأثيثه من أوروبا.

جمع الأمريكي بالفعل في القبول عشرات وعشرات من زجاجات النبيذ الفرنسية والإيطالية من أجود الأنواع، واشترى لزوجته الماس من صنع هولندا، ولكنه يحتفظ به في خزينته. وهو الآن يسعى وراء أعمال فنية إيطالية قيمة، غير أن أعماله لا تمكنه من السفر لذا فهو مضطر رغماً عنه للبقاء في أمريكا. وحينما يقابل تروت الذي يتمتع بذوق لا ريبة فيه وعين متمرسه خبيرة، يجد حلاً لمشكلته، وبالمال الأمريكي، سوف يأخذ تروت شقة صغيرة في فلورنسا كمقر لاكتشافاته، ويكفيه سنة أو أكثر بقليل، فالثرى الأمريكي على عجلة من أمره لأنه يريد أن يفتتح منزله مقيماً حفل استقبال تتحدث عنه المدينة كلها، بمناسبة زواج ابنته المخطوبة بالفعل. يحاول تروت جاهداً أن يشرح له أن تجميع هذه القطع والأعمال الفنية يحتاج إلى وقت وليس إلى المال فقط، إلا أن الأمريكي، الذي لا يتحدث كثيراً، يختصر الحديث قائلاً إن هذا المبدأ يتماشى فقط مع من ليس معه المال.

طلب منى تروت أن أصحابه إلى فلورنسا، فطلبت من ماريو أن يفحص المياه والزيت وإطارات السيارة. يرغب تروت فى أن نسير عبر التلال، ويختار الطرقات التى بها منحنيات ضيقة ومرتفعات بين حقول الكروم، حيث لا يعبر سوى بضعة فلاحين. بينما يحضر ماريو السيارة، أقترح على تروت القيام بجولة حتى مونتيتي.

احتج تروت:

- الآن؟ نحن على وشك الرحيل.

- لا يزال هناك بعض الوقت، لم تحن الساعة الخامسة بعد. سترى مفاجأة ومنظراً رائعاً.

إنها نزهة على الأقدام لمدة ربع الساعة، أعلى درب منعزل يفصل بين حقول الكروم. يلقي التل بظله على الطريق بمنحنياته البطيئة ويقاطع مطعم صغير بطول السكة. إنه يوم من أيام نهاية شهر أغسطس، أشجار الكروم ماثقة بالعنب ويتزايد الأمل فى سقوط الأمطار. وجود بعض السحب فى السماء، بعد حر الصيف، يعتبر هدية.

ينظر تروت حوله ويتعجب.

- إنه لشيء مذهل كيف أن الطبيعة التى تعيد للذاكرة أعمال ليوناردو دافينشى لا تموت أبداً، فى هذه المناطق، وكيف أن الحضارة لم تستطع خدش جمال هذه الطبيعة.

وأجيبه:

- ولا حتى الحرب، بكل ضراوتها.

يلاطفنى تروت على وجنتى ويقول:

- يروقنى النظر إلى شىء لم تستطع الحرب إفساده، وأنت أيضاً  
لم تتغيرى.

- أرايت؟ لقد قلت لك. أعرف دروباً تعطى متعة خاصة للنزهة.  
يطيب العيش هنا.

أخذ يضحك ثم سألنى مازحاً:

- أتقترحين على أن آتى لأعيش معك؟

أجبت:

- لم لا؟

- اسمعى، لست أدرى. أنا الآن هنا. لا تفكرى فى الغد.

- هل سترحل مجدداً؟

- تذكرى أنك وعدتني بأنك لا تريدين أى شىء منى. وبأنك لن  
تسألينى عن شىء البتة. لا تنسى هذا، من فضلك.

- يمكنك أن تنتقل للعيش هنا، المرة القادمة سوف أصحبك إلى لاجواكواتو، سنذهب بالخيول.

- تعالى أنتِ إلى فلورنسا.

- لا أستطيع، فعلى الاهتمام بمصالح العزبة، إنه بمثابة العمل بالنسبة لى، هل تفهم؟

- عمل؟ أنتِ حتى لا تعلمين ماذا تعنى كلمة عمل.

بدا تروت أكثر صرامة، واستطرد:

- أنتِ تثرثرين، تركيبين الجواد، وتصلحين شيئاً ما هنا وهناك، دون أى تخطيط ودون حزم. أنتِ على قدر من الثراء يتيح لك أن تحافظى على عزيتك، على هذا النحو، وهذا ليس بعمل. فأنتِ لست بحاجة إلى أرضك الزراعية إلا كى تشاهدها من النافذة، تستخدمها كمنظر طبيعى جميل، كما كان الحال يوماً من حولك.

- كان والدى يقول إن الأرض الزراعية تجعلك تخسر المال ولا تجعلك تريحه.

- وهو محق، كل أمثاله خسروا مالاً، وسوف يحدث لك هذا أنتِ أيضاً، عندما ينفد منك المال ستقومين ببيع قطعة أرض، ثم قطعة أخرى وهكذا.

أنظر إليه في دهشة؛ فهذه أول مرة يكلمنى فيها بهذه النبرة.

يستطرد تروت بصوت أكثر نعومة وهو يسدل جفونه:

- كم تدر عليكِ العزبة من ربح؟

- لا أعرف... لا أعرف إن كانت تدر على ربحاً.

أرى أنها تكلفنى...

- أترين؟ أنتِ لا تعلمين شيئاً، وتحتاجين إلى.

ودون أن أستدير قلت له:

- لا أعلم شيئاً وأحتاج إليك، بالضبط هكذا.

لكنى أعتقد أنه حتى لم يسمعنى.

لم تتبادل الحديث طوال الرحلة، فى فلورنسا، تركنا السيارة وقال

تروت إنه يعرف مقهى توجد به قاعة خاصة.

- انتظرينى، لن أتأخر كثيراً، لابد أن أرى صديقاً، يساعدى فى

الاستدلال على ما أبحث عنه.

- تاجر عاديات؟

- شىء من هذا القبيل.

ثم بادر بإشارة تحية لرجل ضخم، وجهه طويل وسمين. ابتعدا  
سريعاً وهما ينزويان عند الناصية، بينما اقتربت أنا لأطلب ماءً وليموناً.  
وبعد نصف الساعة، ظهر تروت من جديد بمفرده وعلى وجهه ابتسامة.

- عودى إلى "المجمية"، قبل أن يحل الظلام. فالطرقات ليست آمنة  
ليلاً.

أشعر بالحنن. يؤسفنى أنه قرر العيش فى فلورنسا، غير أننى لا  
أريد أن أطلب منه أى شىء، كما وعدته.

افترقنا بعد عناق سريع، مشحون بالعطف والحنان.

يقول لى تروت وهو يضمنى إليه بقوة:

- عودى لزيارتى.

- نعم.

- بعد أسبوعين. سأنتظرك هنا. لتقابل بعد العصر.

- أعدك يا تروت.

أركب السيارة إلى جوار ماريو والدموع تملأ عيني، وانظر من  
نافذة السيارة. لا أريد أن يرى ماريو كم هو صعب على الانفصال عن  
تروت.

انقضت الأيام فى سرعة خاطفة، أسبوعان كل شىء، وها نحن فى شهر سبتمبر. أستعد بعناية للذهاب إلى موعدى مع تروت، أريد أن أكون جميلة ومغرية كما لم يرنى من قبل. أطلب من ماريو أن يتركنى أمام المقهى نفسه. تروت ينتظرنى ومعه لفة تحت ذراعه.

سألته لمجرد السؤال:

- ما هذا؟

- كتب.

- من أى نوعية؟

- كتب وجيزة، حديثة وأخرى عتيقة، مجموعة صغيرة لكنها ثمينة.

- مجموعة مختارة؟

- أحضرهم لى صديقى، إنها لك.

- دعنى أراها.

- لا. انتظرى. إنها هدية، ولكن أولاً يجب أن تعدينى بشىء.

- أخبرنى.

- أتوافقين على بذل الجهد والتعب؟ على الدراسة والفهم وتحمل

إحباطات، ولكن بالأخص على عدم التعجل وإنما التحلى

بالصبر؟

- لست أدرى، أتخيل أنه يمكننى أن أفعل هذا... إن كان الأمر يستحق.

- الأمر يستحق، ثقى فىّ.

- إذن نعم.

- امسكى يا حبيبتى، اقرئى، ادرسى، إنها أفضل الكتب التى نشرت بخصوص هذا الموضوع.

إنها أول مرة ألتقى فيها هدية منه. اللفة بداخلها خمسة كتب، كتابان طبعتهما عتيقة وثلاثة أكثر حداثة.

ثلاثة كتب باللغة الفرنسية، وواحد بالإيطالية وواحد باللغة الإنجليزية. إنها كتب موجزة عن علم الهندسة الزراعية، تاريخ النبذ الفرنسى، حزمة من الوثائق التى تشبه التقارير الطبية. أنظر بانتباه أكثر، فأكتشف أنها دراسات تحليلية عن التربة وعن المياه وهناك أيضاً خريطة عسكرية مثنوية. أتعرف فيها على شكل "المحمية"، فى وسط شبكة من الخطوط الغامقة التى أجهل قراءتها. لا أفهم قصد تروت من كل هذا.

- لماذا...؟

ينظر إلى وعيناه تبرقان ويقرب وجهه من وجهى. أشم رائحة جلده، وهو قريب منى هكذا. يطلب من النادل إحضار طبق به عنب. ينزع

الحبيبات ويدسها فى فمى بكل رقة، واحدة بعد الأخرى، أضحك وأنا  
أشعر بالحرّج.

- أتعرفين ماذا يوجد فى شمال غرب نقطة التلاقى بين خط  
جريتتش وخط عرض ٥٠ الموازى لخط الاستواء؟

- لا، لست أعرف حتى مكان خط عرض ٥٠ الموازى لخط  
الاستواء.

- أغمضى عينيك.

أغمضهما، شىء ما ناعم ومنعش ينزلق على جبهتى، بين الحاجبين  
ويطول عظم الوجنتين، يداعبنى تروت بحبة عنب وهو يقول لى، بصوت  
منخفض:

- أنت طائرة، أو عصفور السنونو العائد، أنت فكرة تطير وتحلق  
عالياً فوق "المحمية"، تأملى كم هى مستديرة التلال وكم هو ناعم  
السهل، قطعة من المخمل أحياناً يكون أخضر، وأحياناً بنياً  
فاتحاً... تأملى ضلوع الألب القاتمة والهواء المنعش الآتى من  
الجبال، وصوت روافد جبال الألب ومسطحات الجليد البيضاء،  
تأملى حافة البحر الزرقاء الصافية، خليج يلاحق الآخر فى  
اتجاه إسبانيا، وحول كل هذا المزيد من الجبال والسهول التى

تشقها الأنهار والترع، وحينما تشعيرين بكل أرجاء أوروبا وراء  
أكتافك، تتكهنين بأنك بعد برهة سوف تجدين نفسك أمام أمواج  
المحيط الأطلنطى فى ذروتها...

أسند حبة العنب على شفتى. يحركها إلى الأمام وإلى الخلف.

- لقد حان الوقت الذى تتوقفين فيه، كما تفعل الطيور عندما ترتاح  
من الطيران على التيارات الصاعدة. لقد وصلت إلى نقطة التلاقى بين  
خط جرينتش وخط عرض ٤٥°، وأنت موجودة الآن فى مربع مساحته  
ألفان كيلومتر فى اتجاه المحيط، حيث تُنتج أفضل أنواع النبيذ فى  
العالم. للهواء عطر لا يمكن أن تتخيليه. هكتارات وهكتارات من الكرم  
على مرمى البصر. رياح لطيفة معتدلة، أمطار خفيفة تسقط وقت اللزوم.  
معجزة من صنع الطبيعة والإنسان.

تنقبض معدتى بفعل الغيرة. أفتح عيني وأنا غاضبة. ولدت زوجته  
وترعرعت فى مدينة بوردو وهى سليلة عائلة من صغار مزارعى الكروم  
الذين قضت عليهم الحرب. ما الذى يريده منى، أن يحولنى إلى إيناس  
جديدة أكثر هشاشة وأكثر وحدة؟ يبدو على تروت الاستمتاع  
والحماس، وتلمع عيناه من الإثارة. لم أره هكذا منذ فترة طويلة.

- قبل خمسمائة مليون عام، فى الدهر الرابع، جرفت الترسيبات  
النهرية إلى حوض الـ جبيروندا، البقايا الصخرية من منطقة

جبال الماسيف البركانية ومن جبال البرنس مكونة بذلك تربة عملياً غير ملائمة لأي نوع من المزروعات سوى زراعة العنب. خلاصة القول، حصى مخلوط بالأرض، وهذه هي النقطة الأولى. لقد طلبت تحليل نوعية التربة عندك. فأرضك تصلح لإنتاج النبيذ.

- ماذا إذن؟

- ثانياً نقطة هي مناخ المحيط الأطلنطي والذي يؤثر فيه تيار الخليج فيأتي بشتاء معتدل، قصير المدة، يتبعه ربيع منعش وصيف حار بوجه عام ومشمس.

تروت، الشتاء بارد عندنا، شديد البرودة.

- ولكن ليس لديك الجليد في الربيع، فهو خطير جداً بالنسبة للكروم. سقوط الجليد نادر جداً عندك، فالغابات تشكل شيئاً ما يشبه القمح حول مزرعتك وهذا من حسن حظك. فأنت تتعرضين لمخاطر ثلجية أقل ممن هم حولك، غير أن الصيف لديك حار وجاف. وتسقط أمطار قليلة في أغسطس، النقطة الثالثة هي العنب. في الماضي كانت تُعطى أهمية ضئيلة لنوعية الكرم وجودته. كان الجميع يرضى بأشجار كروم تعطى حبيبات عنب ذات نسبة مناسبة من السكر تسمح بالتخمير. كل شيء مكتوب هنا.

فى فرنسا، يتم تدريس علم صناعة النبيذ منذ أربعمائة عام وبأسلوب علمى، يمكن أن نقوم بصناعة النبيذ فى توسكانا أيضاً، أنت أيضاً تستطيعين إنتاج نبيذ جيد. وإن راق لك الأمر، يمكنك أيضاً إنتاج نبيذ عالى الجودة، لكل تربة، نوع الكرم الخاص بها. ولا توجد أراض حولك تشبه أرضك من الناحية الجيولوجية، ولكن لديك وادياً واسعاً جوانبه مغطاة بالغابات، وتغمره الشمس لشهور طويلة فى السنة. عندك المياه اللازمة. عندك قيو كبير، من الممكن أن تجلبى الأيدى العاملة، أناساً يعرفون عملهم، عليك فقط تنظيمهم بعض الشيء. جربى، اخلطى أنواعاً ببعض إلى أن تجدى نوع العنب المضبوط الملائم لتربتك. وهكذا تصنعين نبيذاً كالمخمل مثل عينيك.

يغشى فلورنسا ضباب يشبه السحابة فتغدو شبه غير مرئية. أغمض عيني فتتنساب من بين أهدابى ألوان جديدة، غير واضحة مهزوزة فى ضوء العصر.

قد تكون الساعة السابعة أو الثامنة مساءً وبالفعل يغطى الظل جزءاً من النهر. تنصهر كل ألوان البنفسجى والبنفسجى الفاتح وكل درجات اللون الرمادى، ويصبح الرصيف الذى نسير عليه شريطاً من الفضة. المدينة وضوء الصباح هما الحديقة الساحرة، حيث كل شيء يمكنه أن يحدث. يمكننى أن أزرع أشجار كروم. ليس هكتاراً أو

هكتارين، وإنما عشرة أو عشرين، حيث تكون مدة التعريض للنور  
أنسب. يمكننى أن أحول "المحمية" إلى مزرعة كبيرة وحديثة. يمكننى أن  
أجعل تروت يتعلق بى وبالأرض، يمكننى أن أفكر من جديد فى البناء،  
بعد أن رأيت دماراً كثيراً.

يقوم تروت بحركة ما، وكأنه يلمس كتفى، ثم يمسك بكوعى فى  
إصرار أكثر. ألتفت إليه، فى انتظار أن يتكلم، لكن لا يحدث أى شىء.  
يكتفى بالنظر إلى. ثم يقول فجأة:

- اسمعى، فلنذهب.

- إلى أين؟

- لنعد إلى المنزل. سأتى للعيش معك، وسأعلمك صناعة النبيذ.

## ٧

انتقل تروت إلى "المحمية".

لم تعلق نوقيللا، ولكن كما لو كانت قد فعلت ذلك، وبصورة لاذعة.  
لا بد أنها ترانى امرأة غير صالحة. هذا أمر مفهوم، فهى لا تزال فى  
الثانية والعشرين من عمرها وسبق لها الزواج ثلاث مرات. وهى تقول:  
"الأشياء إما أن تكون أو لا تكون"، بما معناه أن المرأة المتزوجة لا تعيش

فى بيت مع رجل آخر غير زوجها. الأمر بسيط ولكنه صارم، مثلها. ولكن بعد مضى بضعة أسابيع، لم يعد وجه نوقيللا متجهماً. لقد أدركت أن وجود تروت أزاح عن ماريو التزامات وأعباء كثيرة، يعمل طوال اليوم داخل القبو، يطلى السقف بأكسيد الرصاص لمنع الصدأ، ويصلح ظلمبة البئر. شيئاً فشيئاً، يزداد إعجاب نوقيللاب تروت وحينما تراه داخل البيت تحييه بابتسامة وتحضر له كوباً من النبيذ.

عاد كل شىء إلى الحركة من جديد. بعد الحرب، كنت أحسب أنه ستلزم سنوات وسنوات لإعادة كل شىء إلى ما كان عليه. على العكس، نحن نخطو خطوات عملاقة ونسعى بكل الجهد. نعمل من الفجر وحتى المساء، سبعة أيام فى الأسبوع. نحن فى الخريف، ولا يزال هناك وقت، قبل أن يصل هدير الأمطار التى تجعل من المستحيل العمل فى الحقل. حدد تروت الأراضى حيث مدة التعريض للنور أفضل من غيرها بالنسبة لأشجار الكروم الجديدة. يجب علينا أن نحرت الأرض بعمق متر تقريباً، ونستغل ميل الأرض لخلق مصارف تسمح للمياه بأن تجرى دون ركود. يقود ماريو فريقاً من العمال يحفرون الصخور ثم يكومونها فى أكوام ضخمة سوف يستخدمونها فى ملء الحفر الخاصة بالمصارف. يقول تروت إن النبيذ الطيب يبدأ من أشجار تغرس بعناية ويشرح لى فى صبر كل ما يعرفه. يقول إنه يعرف منتجين للنبيذ يستخدمون نوعية الأشجار نفسها ولكنهم مع ذلك ينتجون أنواعاً من النبيذ مختلفة تماماً.

ويقول إن هناك شخصاً من إقليم بيمونتى يقوم بتجارب على الساحل على أشجار كروم فرنسية على بعد أمتار قليلة من البحر، وهو يشك تماماً فى النتائج، ولكنه على الأقل ينهج نهجاً جديداً. يجتهد ليشرح لى أن النبيذ هو نتاج الحدس، والوقت والعناية بالتفاصيل والتقنية المناسبة. يحدثنى لساعات طوال عن أشجار الكروم الموجودة هنا فى الـ سان چوڤيزى وهى كلمة معناها "دم كوكب المشترى"، وفى الـ تريبانو والـ مالقاسيا، وعن أولئك الذين ينتجون النبيذ الأبيض غير المسكر فى العصور الوسطى فى سان چيمينيانو، وعن الإغريق واللاتين الذين ابتدعوا إلهاً للنبيذ خصيصاً. يقول إنه، بالنسبة لنا نحن المسيحيين، يتحول النبيذ إلى دم المسيح. يقف هناك، مستنداً على شجرة اللوز بجوار البئر، ويحكى، يحكى دون توقف. يتجول على الدراجة ويذهب لزيارة كبار السن المقيمين هنا حتى يحكوا له عن الأرض، وعن طريقة قطف العنب وأوانه، عن عصره وعن الأمراض التى تصيبه. ثم يعود، أحياناً متعباً وقد غطاه التراب، وخبا بريق عينيه فلا يبدو عليهما سوى الإنهاك، ويقول إنه وقت ضائع، وإن الناس هنا ليس لديهم ثقافة حقيقية عن النبيذ لأنهم فقراء جداً. تختزن نوقيللا كل هذا، فى صمت وهى تشعر بالإهانة، وكتفاها النحيلتان يغطيهما الشال الصوفى، ورأسها منحنية تنظر إلى الأرض ويستغرب ماريو كذلك، ويقول إنه لا ينبغى أن يبالغ فى الأمر ويطلق من أمده، فالنبيذ مشروب أزلى فى هذه النواحي. يؤكد تروت أن الناس معتادون دائماً على شرب النبيذ ولكنه نبيذ ردىء.

وإذا جربنا أن نعتق هذا النبيذ الرديء، فلتجرب هذا يا ماريو وسترى بنفسك النتيجة.

فى المساء، وبعد تناول العشاء، نجلس أنا وتروت حول مائدة مليئة بالأوراق. ندرس الكتب التى أهداها لى، ونتحقق من أننا أقمنا المصارف بطريقة صحيحة، بطول خطوط الميل، بحيث تجرى المياه دون أن تتسبب فى أضرار بالجذور. يقول الأهالى هنا إن الحصول على حقل كرم جيد، يستلزم أن يكون لدينا ليس فقط أرض جيدة الحرث، وإنما أيضاً زاوية تحسب مقدار التعرض للشمس. ثم سنغرس قضيب الكرمة وأوتاد الكستناء على رأس صف الأشجار، ثم الأسلاك الساندة، ثم يتحتم انقضاء ثلاثة أعوام قبل جنى بعض العنب. أما بالنسبة للنبيذ،...

أقول لتروت:

- الأمر يحتاج إلى وقت طويل للغاية يا تروت لعمل النبيذ، ولصبر لا حدود له.

- إنما أنتِ لديكِ صبر، وصبر طويل أيضاً.

من وقت لآخر، يكون تروت سيئ المزاج. يبتعد ويبقى بعيداً ليومين أو ثلاثة، ويعلل ذلك بما يسميه "شئونى فى فلورنسا" والتى يعود منها فى الغالب مكتئباً عبوساً. نحن لا نتحدث أبداً عن أعماله، ولا عن زوجته. ونادراً جداً ما يتحدث تروت عن ابنته، كما وإن كانت ابنة شخص آخر،

يتحدث عنها بتجرد لا أعرف إلى ماذا أعزوه بالتحديد، إلى أله أم إلى  
حنيته. وحينما أسأله، لا يتكلم عن هذا الموضوع بل ينقلب على نفسه  
كالقنفذ، ويبدو الموضوع وكأنه قد دفن لأيام وأيام. ثم، يعود ليصحو من  
جديد، دون أن يدري أحد كيف؛ لأن تروت لا بد وأنه أخفاه في مكان ما  
بعيد، فهو هم وفكر لا يكاد يرى ولكنه صار أمراً يستحيل حله، لا  
بطرحة ومناقشته ولا باختفائه إلى الأبد. أحسب أن قوة العاطفة التي  
توحد بيننا تكمن في كل هذه الأبواب المغلقة التي تفصل بيننا والتي لا  
نحاول أن نفتحها البتة.

لا يزال تروت نائماً هذا الصباح ولم ينتبه إلى أنني تسللت من  
الفراش. الوقت مبكر جداً. أمس مارسنا الحب طوال الليل، تخلل ذلك  
فترات توقف قصيرة استسلمنا فيها للتعب والنعاس، ولكن كانت تكفي  
دعابة أو ملاحظة بسيطة واحدة لنبدأ من جديد. لا يهم أنه قد مرت  
حوالي عشرون سنة منذ لقائنا في باريس. أقول لنفسي إن هناك  
أشخاصاً يعتبرون أن قوة المشاعر وعمقها تُقاس بطول الوقت ومروره  
البطيء وليس بسرعه.

أجمع ملابسى دون إحداث ضوضاء، أنزل إلى المطبخ وأعد لنفسي  
فنجان قهوة. نوقيللا تركت كل شىء فى مكانه، مساء أمس. أفتح علبة  
البسكويت، وهو نوع مسطح لذيذ جداً تبرع فى عمله وأنا أكسره فى  
القهوة كى أخفف من مذاقها المر.

يجب أن أعبّر قطاعاً من الحديقة، لم تعد الحديقة الواسعة على الطريقة الإنجليزية مثلما كان يعمل لدينا الجنائني، وإنما قد تطلق عليه أمي "دغلاً"، وهو مشبع بالندى والطل ويترك بقعاً على حذائي الطويل. أجد الفرنسيين البلبيين في انتظاري.

أريد أن أمتطي الفرس مونريجالي هذا الصباح؛ لأنه ينبغي أن يتحرك قليلاً. أقترّب منه، ألاطفه ثم أمسح وجنتي على منخاره. يحنى مونريجالي رأسه؛ كي أستمّر في ملاطفته ومداعبته.

أفكر في تروت الذي لا يزال نائماً. وفجأة يتملكني يقين، يقين مطلق بأن هذا هو أسعد أوقات حياتي كلها.

-٦-

كل شيء كسابق عهدہ



إنه مساء الأحد الموافق ٢ يونيو ١٩٤٦. طال النهار كثيراً؛ إذ يستمر النور الطبيعي حتى حوالى التاسعة مساءً، وصل الجميع اليوم فى فترة ما بين العصر والمساء.

قال أودونى وهو ينزل من السيارة:

- تبدو تلك التلال أكثر قرباً.

- وانظر لون السماء، أزرق بلون زهر القَضاب أو العناقية مثلما فى سانت موريس.

فى العصر، طلبت من نوقيللا أن تعد القُرَاص المقلَى فى الزيت وأن تضع الزهور فى الزهريات.

سألتنى نوقيللا التى تساورها الشكوك:

- ما هو سبب الاحتفال، يا سيدتى الكونتيسة، هل هو الاقتراع؟

ولما لم أجبها، استنتجت بمفردها "أننا لا نحتفل بشيء على وجه الخصوص، مما هو أفضل".

بعد العشاء، بقينا أسفل في حجرة الاستقبال نثرثر حتى وقت متأخر من الليل.

وقمنا أيضاً بالرهان.

اليوم، طُرح علينا السؤال العصيب: ملكية أم جمهورية؟ ولأول مرة ذهبت النساء للاقتراع، كلهن باستثناء نوفيلا، التي رفضت أن تذهب لأن الأمر سواء، على حد قولها.

تريد نينا أن تشرب نخب هذه المسألة، وهي بالفعل ثملة بعض الشيء وتخطر كارلينو أنها طلبت تفصيل تايير خصيصاً لهذه المناسبة، ولونه بطبيعة الحال أزرق ملكي كاللون المنتشر في عائلة ساقوى؛ حتى يليق بالموقف...

من الواضح أنني ذهبت للإدلاء بصوتى لمجرد المتعة فى أن أكون هناك. لكننى لن أقول لكم لمن أعطيت صوتى. حاولوا أن تتكهنوا. إن ماريا جوزيه امرأة لطيفة جداً، أنيقة ومرحة ومرموقة. قد تصبح، أخيراً، ملكة ذات أناقة خاصة... ألا يبدو لكم هذا؟

هنا يقاطع أودونى فى شىء من العبث ويقول:

- أرأيت كم تبدو صورها التى يرسمها لها جيتا كاريل متألفة وجميلة؟

نعرف جميعاً أن نينا غير راضية عن صورة الوجه التى رسمها لها  
جيتا كاريل.

- إنها حقاً امرأة جميلة، أصيلة جداً، لو امرأة أخرى مكانها  
لكانت قد وهنت واختفى جمالها تماماً ومعها كل هؤلاء الأبناء  
واحد تلو الآخر... أما هى على العكس فقد احتفظت بقوام  
ممشوق.

يعقب أودونى بقوله:

كل هذا هباء، من المعروف أن الملك...

- يقاطعه كارلينو بنبرة حادة لاذعة:

- لا أفهم ماذا تقصد، يكاد الأمر يصل إلى حد الكارثة الحقيقية.  
للملك ولنا جميعاً. تخيلوا إن فاز الجمهوريون. يا لها من مصيبة.  
سيفجرون الثورة.

قاطعه نينا وجعلته يصمت إذ قالت:

- ما هذا الحديث عن الثورة، الثورة، يا كارلينو! يا لك من  
ميلودرامى، عندما يطيب لك الأمر. الحرب أيضاً كانت كارثة، ألا  
تعتقد ذلك؟ غير أنك كنت تقول إنها سوف تكون حرباً مجيدة،  
سريعة وبدون توابع أو تبعات. وإنما كانت لتصنع من إيطاليا

بلدًا عظيمًا، وملك بلادك لم يكن عند حسن الظن به... أليس كذلك؟

- إنه أيضًا ملكك، حتى يتم فرز الأصوات، يا عزيزتى. لا تحسبى أنك أفضل منا، لمجرد انضمامك إلى جماعة من المتمردين على الجبال، ونظرًا لأننى أعرفك جيدًا، أقول إنك ربما أمضيت أيضًا وقتًا ممتعًا معهم.

- لطالما كنت أحمق يا كارلينو. قبل الحرب ويعده.

يا له من إحساس مريح ومغرٍ أن يبقى شىء ما ثابتًا وسط هذا التغير العام الحاصل هنا وهناك! يشرع أودونى فى الضحك بصوت هادئ وفى النهاية نضحك كلنا. ثم ينهض واقفًا. وتحت ضوء الثريا، يبدو وأنه ممثل على خشبة المسرح. ينفث كارلينو غضبًا، يشعر أنه مستهدف، غير أن أودونى يقتصر على إخراج صفحة جريدة أجنبية يحتفظ بها مطوية بعناية فى محفظة نقوده. يرفع صوته ويترجم.

- سنحتاج إلى أعوام كثيرة حتى يتسنى لنا أن نحصى أمواتنا. يندر أن تكون هناك بيانات رسمية، مع ذلك نستطيع أن نقول، وفقًا لإحصاء تقريبي للغاية، إن القتلى قد بلغوا نحو خمسين مليونًا، يُضاف إليهم ملايين من المفقودين. لا توجد فى ذاكرة

التاريخ حرب سجلت هذا العدد الضخم من الخسائر البشرية  
والمدينة ما يقرب من الخمسين بالمئة من الإجمالى.

الهجوم بالطائرات، الترحيل الجماعى، العمليات الانتقامية والإبادة  
المستمرة فى معسكرات العمل والمعتقلات لم ترحم أحداً، لا النساء ولا  
الأطفال، لا العجائز ولا المرضى... ما رأيك يا كارلينو؟

سأله فى صوت خفيض.

ما رأينا جميعاً؟

المسئولية. ألم يخطر ببال أى أحد منا أننا قد نكون شركاء فى  
المسئولية؟

تلوذ كلنا بالصمت.

يحنى كارلينو رأسه، يرفع كتفيه وبالكاد يظهر على وجنتيه احمرار  
خفيف.

- كان كل شىء يبدو هكذا بسيطاً ومنطقياً.

من كان يقدر أن يتخيل هذا... كل أولئك الموتى، وكل هذه البشاعة.  
كيف كان بمقدورنا الاعتقاد بأن كل شىء حقيقى...

يفكر كل منا فى الشىء نفسه، تُرى ماذا ستكون نتيجة الاستفتاء؟!

فيما عدا أودوني، فالكل مقتنع أن إيطاليا ستبقى ملكية. فالجمهورية تناسب شعباً عملياً ومنظماً، تناسب أمماً حديثة مثل أمريكا أو فرنسا.

أنا لا أعرف فيم أفكر، اللهم إلا في أن عاهلنا الجديد - فيكتور إيمانويل الثالث تنحى عن العرش قبل بضعة أسابيع، في الأول من مايو - يبدو عليه الفزع والتكشف. لكنهم يقولون "لديه وقت كاف، وقت كاف كي يبني نفسه" وسيفعل، نأمل في هذا، أما بالنسبة لى، فرأى أن الملك أى ملك يجب عليه أن يكون قد تشكل بالفعل، وأن يكون لائقاً بالعرش الذى يعلوه يوم تنصيبه، على الرغم من أن تروت يذكرنى بأن يوم التتويج كانت إليزابيث الأولى والملكة فيكتوريا مجرد فتاتين ومع ذلك صنعنا مجد إنجلترا، فلنأمل أن يكون ملكنا أومبرتو من نفس هذه العجينة. أو على الأقل نأمل فيمن هم يحيطون به.

ذهبنا للنوم، جميعنا، ونحن مضطربون، ها هو ما سوف يحدث، من كثرة ما تحدثنا عمّا سوف يحدث، ومن كثرة ما شربنا، وفكرنا فى الحقيقة هذه السنين التى انقضت فى الحرب وفى التشويش، يتأرجح كل منا فى معتقداته وقناعاته، طبيعى أن يحدث هذا، فى حقيقة الأمر؛ فنحن لم نتلق تربية تسمح لنا بأن يكون لنا اهتمام وشغف بالسياسة أو بالمجتمع المدنى. فنحن بالأحرى خائفون أن تتغير الأوضاع، وأن تغدو

بلادنا دولة اشتراكية، كما يقول كارلينو. إن أفكارنا تلازمنا منذ الأزل بشكل غير مستقر، فلنسمها بالأحرى عادات وتقاليد ندافع عنها بكل حماس وشغف. نعرف أن نحافظ على الأشياء كما هي، ولا نعرف التغيير. نهتم أكثر بالخيول، وبالنيبيذ، وبأن تتزوج الفتيات زيجات حسنة، هكذا سارت الأمور في بيتي، وهكذا أتخيل أنه حدث أيضاً في بيوت آخرين.

هذا ما يحدث لجيل، مثل جيلي، أن يضبط تردد المذيع ويشرب الكونياك، دون أن يعلم ماذا يخبئه له الغد.

يروح ويجيء أودوني في حجرة الصالون، وهو يتجرع من كأسه رشقات قليلة. يبدو أنه مهموم يفكر. ثم ينفجر قائلاً من حين لآخر:

هذا تاريخ! هذه مسرحية! ومن أفضل المسرحيات! ها نحن هنا. كلنا أنفاسنا معلقة.

تُرى هل سنظل على حالنا ماركيزات وكونتات غداً أيضاً؟ أليس هذا أمراً فريداً؟

ربما نحن نغرق، مثل منكوبي الباخرة تيتانيك، نستغرق في سماع الأوركسترا وهي تعزف بينما تغرق السفينة. يا لها من استعارة لا مثيل لها...! ونحن أيضاً، في هذا الصالون الجميل، نثرثر وإذ ربما، بف!، في خلال بضع ساعات سوف تتحول ألقابنا إلى كلمات عفا عليها الزمن، لا

تنفع إلا فى قص الحكايات والحواديت للأطفال، وماذا سيكون مصير القط الذى يرتدى الحذاء طويل الرقبة، هل فكرتم فى مصير ذلك القط التمس وحده دون ماركيز كاراباس؟

بدأ كارلينو يتعصب:

- بحق الشيطان، يا أودونى، من ذا الذى يجرو أن يسلبنا ماركيز كاراباس؟ سوف يبقى حياً أيما كانت نتيجة التصويت، على عكسك أنت، صدقتى.

انظر حولى، وأرى إيريس منهمكة فى ضفر شراشيب الشال الذى تضعه على ركبتها، وكارلينو يدهق الكونياك فى الكأس، أودونى يروح ويجىء أما نينا فتجلس القرفصاء فى ركن الأريكة. ليس أمامهم سوى تمضية يومين معاً فى الريف، فى ضيافتى، يركبون الخيل، يتنزهون، يثرثرون. هذا كل ما فى الأمر.

ألا يبدو لى الأمر أنا. أيضاً، بسيطاً بدرجة عجيبة؟

أودونى على حق. قد تكون هذه آخر أمسية فى النظام الملكى. هل هذا يعنينى؟ أحاول جاهدة أن أفكر وألا أحكم حكماً متحيزاً، تحت تأثير الذكريات والمخاوف، غير أنتى لا أتمكن من المشاركة فى التوتر الجماعى كما أود. همى الوحيد، الذى أحفظ به لنفسى، هو أنه إن لم تجف الأرض غداً، بعد الأمطار التى هطلت أمس دون توقف، فلن أستطيع أن

أصطحب أصدقائي للقيام بنزهة. درست طريقاً جميلاً للقيام بهذه  
النزهة يستغرق ساعتين في الأقل. لكنني لا أريد المخاطرة بالخيول على  
أرض زلقة.

أشعر ببعض الخزي من استخفافي بالأمر، تورينو هي مسقط  
رأسي، لا أنسى هذا. كيف لي أن أنسى هذا؟ لسنوات طوال كان والدي  
ثم من بعده فيللافورستا يرددان علي مسامعي هذه العبارة:

- تورينو هي مهد العائلة.

كما لو كانت هذه الحقيقة جديرة بأن تزيد من معزة هذه المدينة.

إن زوجي وأبي هما من فقدوا بصرهما؛ إذ لم يفهما أنني بالفعل  
كنت أحب تورينو بالقدر الكافي وليس بوصفها مهداً لأي كان، كنت أحب  
طرقها الفسيحة المزينة بأشجار الدُّب والظلال تحت ممراتها المقوسة.

هل يجب علي أن أشعر بارتباطي بتورينو لمجرد أن عائلة زوجي  
فيللافورستا تنتمي إليها؟ لمجرد أن لقبى وأنا فتاة غير متزوجة هو لقب  
صميم من تورينو مثل قطع الشوكولاتة الصغيرة ونيذ القيرموت؟

يقول زوجي فيللافورستا، بينما أنا أغلق باب الشقة الكائنة بشارع  
أسيستا:

- أنت ولدت في تورينو، وتنتمي إلى تورينو، فضلاً عن انتمائك  
إلي. لا يمكنك الرحيل. فأنت لا تزالين زوجتي، لا تنسين هذا. لن

تنجى فى تولى شئون المزرعة، ليست لديك المقدرة على ذلك.  
أنت لست مزارعة، والأرض ليست لعبة، سوف تفرقين فى  
الديون، ولن أكون أنا الشخص الذى ينتشلك منها، تذكرى هذا  
جيداً.

جاء حينها كى يرانى وأنا راحلة، كانت هناك سيارة تنتظرنى فى  
الشارع، محملة بكل أمتعتى وأغراضى؛ كى تقلنى إلى فلورنسا، ومن  
هناك إلى "المحمية".

السفر بالسيارة هى هدية متأخرة من والدى.

ترى، أقررت أنها رأتنى أعانى معاناة بالغة، أو أنه بلغ إلى  
مسامعها أن السيدة فيلافورستا الحالية هى عاهرة ترتدى ملابس  
ابنتها؟

أرسلتنى إلى "المحمية" مع سائق سيارتها، غير أن سبارتنا ليست  
جديدة، ولا سريعة، سوف تكون رحلة شاقة جداً، ليست هذه هى  
الكلمات الدقيقة التى يستخدمها زوجى وهو يسلم على، إذ يبدو لى  
بالأحرى أنه قال:

- فلتذهبى إلى الجحيم.

وأينما كان هذا المكان، سأذهب إليه بكل سرور.

كل شيء يبدو لى اليوم أفضل من البقاء هنا، فى "مهد العائلة".

حينما كنت طفلة، كان يوجد على البيانو الكبير صف من الصور ذات البراوين الفضية أو المخملية، والمزدانة بتاج فى أعلاها. صور لأميرات حقيقيات يحملن على ذراعهن كلاباً صغيرة شعرها مجعد، وأمراء من الشباب ودوقات فى الزى الرسمى، وتعبيرات وجوههم جادة، وتغلب عليهم جميعاً الكآبة والنحافة. كما لا أنسى أن جدتى وأمها كانتا وصيفتين فى بلاط الملكة والعديد من الدوقات، كانتا تتبعانهم إلى ستريزا، وروما وأجلييى، وتحتملان تصرفاتهن وأهواءهن فى صبر واستسلام، ومكافأة لهما، كان اسمهما يظهر فى تقويم البلاط.

ما زلت أحتفظ فى الحافظة الصغيرة المصنوعة من الجلد بالأقراط الزفير التى أهدتها لى الأميرة ماريا أديلايدى بمناسبة زواجى. وفى المراسم الدينية، التى تلى الزواج المدنى بثلاثة أيام، كان هناك مجموعة من الشخصيات الملكية: سمو دوق چنوة تومازو وسمو دوق ودوقة بيستويا، ودوق برجامو والأميرة ماريا أديلايدى، كان شاهداى على الزواج هو دوق بيستويا الذى لم يرفع فرنشيسكو عينه من عليه طوال مدة حفل الاستقبال، أعتقد أنه كان يحسده على تفصيل بدلة الردنغوت المتقن. (ينتبه أنريكو ويسخر منى بصوت غير خفيض قائلاً:— يتهياً لى أن عريسك يفضل محاسن دوق بيستويا على محاسنك).

أظن، فى الواقع، أن الحساب قد تم تسديده؛ فأجدادى حاربوا من أجل أفراد عائلة ساقوى، لدرجة أن أجدهم لقى حتفه، أو تحول إلى مقعد كسيح. كما أنهم دفعوا، دعماً للمناوشات الملكية الصغيرة أو الكبيرة مع الجوار، والتي كانت لازمة لبناء مملكة وإقامتها.

وامتناناً لمجهوداتهم أعطيت لهم إقطاعات، واستتبع ذلك حقهم فى تطريز تاج الكونت وخطاطته على بياضات حجرة النوم أو طبع شكل التاج على البطاقات الشخصية وإضافة اسم أحد المواقع الجغرافية إلى اللقب مثل اسم التالانجا أو مونفيرأتو.

ويأتى أولاد عم الملك إلى حفلات زواجنا وحناناتنا، وأحياناً تظهر أميرات القصر الملكى فى دعوات العشاء التى تقيمها والدتى، مما يخلق نوعاً من الارتباك فى تحديد الأماكن الملائمة يرجع لمسائل خاصة بآداب اللياقة والإتيكيت. فالشخصية الملكية تجلس عادة فى مكان صاحب المنزل المضيف، وبهذا الشكل يتعين إعادة ترتيب الأماكن على المائدة، تنفخ أمى ضجراً غير عارفة إن كانت تشعر بالإطراء لتلبية دعوتها، على حد تعبيرها، أم يضايقها هذا الاضطراب.

أما أنا، فقد أعطيت اسمى مونفيرأتو ومونريجالى لجوادين من أكثر جيادى تعنتاً وعتداً وهما عندى منذ إقامتى هنا، وهما الآن أسفل فى الإسطبل، جاهزان للركوب غداً.

تم ضبط المذياع منذ صباح اليوم. كلنا فى الانتظار. فى المر  
الخارجى، أسمع وقع أقدام شخص ما يتحرك. لابد أنها نوقيللا، التى  
تسند صينية الإفطار على الأرض، كما يفعلون فى الفنادق. فهى لم تعد  
تدخل إلى حجرتى؛ لأننى لا أنام بمفردى. يُسمع وقع أقدام أخرى أخف  
وأقل انتظاماً من وقع أقدام نوقيللا.

تهمس نوقيللا لأحدهم:

- شه!

يُسمع صوت بكاء خفيف يتبعه اصطدام كما لو كان صوت وقوع  
شئ ما مبطن على الأرض. أغلب الظن أنها طفلة نوقيللا التى يزيد  
عمرها عن سنة وهى تتبع أمها كظلها.

مرة أخرى تهمس نوقيللا:

- شه!

وتطيع الطفلة هذه المرة.

- كلهم نيام، فهم ليسوا مثلك، تستيقظين مع شروق الشمس.

تضحكان، الأم وابنتها، ثم تبتعد الخطوات. لست أدرى هل أحاول  
أن أستسلم للنوم مجدداً.

أثقلب فى الفراش.

لا أنجح فى مواصلة النوم، يتسرب من بين مغالق الشباك ضوء شديد.

يصلنى صدى أصوات مختلفة بفعل المسافة، فربما هى نوقيللا تصيح خلف طفلتها أو ربما تنادى ماريو ليشرب قهوته.

سنذهب لعمل نزهة على ظهر الجياد فى وقت لاحق. لا أريد أن أمكث ملتصقة بالمذياع طوال اليوم، ولا أنوى التنازل عن نزهة بالخيل فى الغابة مقابل أى شىء آخر فى الدنيا، فى يوم جميل مثل هذا، فى الهواء الذى يبشر بقدوم الصيف.

أما الآخرون، فليقطعوا ما يحلو لهم، إما أن ينتظروا الأخبار، ساعة بساعة، والمذياع يبث بلا هواده. وإما أن يخرجوا معنا، فى اتجاه مونتيتى. حينما نصل إلى القمة، نلتفت ونرى سيينا بأكملها وسان جيمينيانو، وذلك النهر البعيد الذى يميل للزرقة وهو نهر قولتيرا. أقول لنفسى إن هذا هو معنى ما تتمتع به من امتياز؛ أن نكون قد بلغنا أعتاب النضوج دون حتى أن نعى أو ندرك، حتى هذه اللحظة، أننا كنا يوماً أصحاب امتياز.

لا أزال مستلقاة على الفراش. أرغب فى أن أمارس الحب. هكذا، دون مساحيق تجميل وشعرى غير ممشط، ولم يزل جسدى فاتراً بفعل النوم.

أضع رجلاً على رجل تحت الملاءة وأستدير لأنظر إليه، لكننى لا أنبس بكلمة. أشعر بقليل من الإحراج. إنه يوم سيذكره التاريخ، فسنعرف قريباً ما نوعية النظام الذى اختاره الإيطاليون لبلادهم وأنا أرغب فقط فى أن تكون لى علاقة حميمية معه. كانت الأشياء الصغيرة هى موضع اختيارى دائماً، كمن ينظر إلى تفاصيل اللوحات الجدارية فحسب. يلاطفنى تروت فأتصلب. أشعر بتصلب وتوتر كل جزء فى جسدى، العضلات، الصدر، أبسط رجليّ اللتين لا تزالان مختبئتين تحت الملاءة.

أسأله بصوت منخفض:

- ألا تعطنى قبلة؟

لا يجيبنى. ولكنه يستمر فى ملاطفتى وهو ينظر إلىّ.

فى الخارج، أرى قمم أشجار التفاح فى وضح الشمس، وأسمع أصوات الريف الصيفية، وصوت الدراسة الرتيب فى أحد الحقول.

أبقى بلا حراك، فلا أريده أن يكف عن ملاطفتى. إنه بارع فى أن يظهر كل شىء بسيطاً للغاية.

أحبس أنفاسى.

- أنتِ ترغيبينى لدرجة كبيرة، أليس كذلك؟

يسألني ثم يميل نحوي، أبحث عن شيء أقوله.

شيء من هذا القبيل:

- بالتأكيد أرغب فيك، فهذا ليس اختياراً، إنه يحدث فحسب،

ولكن على العكس لا أجد سوى الصمت على شففتي، مما يجعلني

أبدو امرأة متعثرة مرتبكة وليس امرأة مغرية كما أود أن أكون.

يقبلني ثم يبتعد، يداعب شعري، ينظر إليّ نظرة متفحصة ويقول:

- كنت أعلم، من المستحيل ألا أفطن إلى هذا، فأنت تتكلمين

بعينيك.

### ٣

انتظرت طوال الصباح، قبل أن آخذ قرارى بفتح الرسالة التي

أحضرها دينو إليّ.

تعرفت على الخط الذي أصبح مهزوزاً بعض الشيء، بعد مرور

حوالى نصف قرن.

ثم استجمعت قواى.

قرأتها.

بعد سطور قليلة، أدركت أنني لم أستجمع قواى بالقدر الكافى.

تبدأ الرسالة هكذا "عزيزتى الغالية"، إنها كلمة مثل باقى الكلمات وإن كانت تبدو لى الآن وكأنها ضربة سوط.

عزيزتى الغالية،

هل من المسموح لى أن أتأديكِ هكذا، بعد كل هذه السنين؟

لا أحب أن أثير اضطرابك، بخروجى عن الصمت كأحد الأشباح الكئيبة التى كانت تجعلك تقفزى من على مقعدك فى المسرح. إننى أشعر بخطئى بالفعل؛ لأننى أستفيد من السلام الروحى الذى قد تتمتعين به كى أطرح أمامك مسألة شخصية تتعلق بى.

سأنوه سريعاً عن التفاصيل؛ لقد كشفوا على الأسبوع الماضى، بسبب بعض الأمراض التى وجدوا مشقة فى علاجها، ووجدوا بجسدى كل الأسقام الممكنة.

لا أشكو من شىء فأنا واع وأعتمد على نفسى نسبياً، ابنى إيمونى محامٍ بارع. توفيت يولى قبل عشر سنوات، وربما علمتِ أنتِ أيضاً، و، إن كنت لا أستطيع أن أقول إننى أستعجل اللحاق بها، فإننى لا أستطيع كذلك القول بأن فكرة الموت تصيبنى بالرعب.

باختصار لم يبق أمامى سوى بضعة شهور فى هذه الحياة، وأنا استسلمت للأمر الواقع. يمكننى أن أرحل فى هدوء، وأن أرتب أحوالى، وها هو الدافع من وراء كتابتى لهذه الرسالة.

أحب أن أؤكد أولاً وقبل كل شىء أنه إذا بدت بعض التعبيرات التى سوف أستخدمها فى خطابى لك لازعة قاسية، فالأمر ليس كذلك. فبينما أنا أكتب، ينم وجهى بالتأكيد عن الطيبة كما هو حال قلبى أيضاً. بل أقول لك أكثر من ذلك، فحينما أجد الوقت الذى أكتب فيه رسالة لزوجتى الغريبة، فأنا أجد أيضاً ودوماً الوسيلة كى أشرد بعيداً عن همومى، لا تتعجبنى، أرجوك، إن كانت هذه الجملة الأخيرة قد جعلتك تدرकिन أننى كتبت لك أكثر من رسالة، على مدار الخمسين عاماً. لم يمسك الجنون بعد، ليس بعد، فهذه هى الكلمات الوحيدة المكتوبة التى وصلت منى. لكنها لا تعد ولا تُحصى الرسائل التى كتبتها لك فى فكرى، على مدار هذه السنين.

كانت كلماتها تتراوح من مرة لأخرى بين الغضب المرير أو الحنان والعطف أو الألم الحقيقى، أحياناً كانت صفحات وصفحات من الاحتجاجات على الأسلوب الذى رحلت به، على الطريقة التى تركتني بها، دون أن تعطينى أبداً، أبداً، فرصة لناشدتك أو مناقشة الأمر وسماع دفاعى. قد يقول إيمونى إن الرسائل التى نفكر فيها دون أن نكتبها لا تساوى شيئاً، وربما يخطئ؛ لأنها غالباً ما تمتص طاقة أكبر

من تلك الرسائل التي تولد على الورق وعلى الورق تموت بمجرد إرسالها، فالرسائل التي كتبتها لك في مخيلتي، امتصت ساعات وساعات كنت على العكس سأهدرها في مشغوليات لا فائدة منها. أنت لا تعلمين، لكنني كتبت لك وأنا أسير على الرصيف، بينما كنت أشرب القهوة عند "بلاتي"، أو حينما كنت أستحم، أو في الحفل الراقص السنوي في الأكاديمية الموسيقية، أو وأنا أستمع إلى حفل موسيقي.

الآن أيضاً، وأنا مضطر أن أبلغك بأشياء غير مستحبة، فالكلمات تنساب بسرعة رهيبة من قلبي، دونما أي تعثر، وهو ما قد لا يحدث، في اعتقادي، إن لم أكن قد كتبت لك من قبل. أيكفيك هذا، كدليل على وفائي؟

ومع هذا أتطرق الآن إلى النقطة الأساسية.

بالطبع أنت تتذكرين أننا تزوجنا في تورينو، في أكتوبر ١٩٢٨، وربما لم تنسى أيضاً، في اعتقادي، أنه بعد انفصالنا المفاجئ، قررنا بالاتفاق معاً، وقلما يحدث هذا، عدم إضفاء الصفة الرسمية على هذا الانفصال. مما يعني، يا عزيزتي، أنك لا تزالين زوجتي شرعاً. اطمئني، فقد بلغنا من العمر نحن الاثنان، ما يمنعني من أن أقول لك هذا على سبيل التهديد، وإنما أقوله كملحوظة بسيطة، هذا يجعلك وريثتي الشرعية، على الأقل في النصيب الذي لا يخص ابني، بموجب القانون ويمحض إرادتي.

لا أطالب على الإطلاق بأى شىء تملكينه، إكراماً للسماء؛ فأنتِ قد رحلتِ تاركةً مجوهراتِ عائلتى على المكتب، وملابسك فى صوان الملابس، وكان يجدر بكِ أن تأخذى هذه الملابس، وخصوصاً ثوب السهرة من تصميم "سكيا باريللى" الذى أهديته لكِ فى باريس. كنتِ تبدين فاتنةً فى هذا الثوب الذى كان يضىءُ عليكِ نوراً وكأنك صورة عذراء ترجع إلى القرن الخامس عشر، أبدأً لم أركِ جميلةً مثلما كنتِ وأنتِ ترتدين هذا الثوب، وغالباً ما كنتِ أتخيلك هكذا، على الرغم من أننى أعرف أنكِ على العكس قضيتِ جانباً كبيراً من عمركِ وأنتِ ترتدين بنطلونات الصيد والحذاء الجلدى ذا الرقبة الطويلة.

فى النهاية، دعينى أقول لكِ متملقاً لذلك، إن كان لا يزال باقياً، إن هذا الرداء لم يكن يليق أبدأً بيولى كما كان لائقاً عليكِ حتى وإن كانت تقول إنها فى حياتها كلها ما لبست شيئاً أفخم ولا أبهى من هذا الثوب. حتى الولاة الصغيرة التى حُفر عليها اسمك، وكانت بحق هدية شخصية!، تركتها بكل استنكار على مائدة الكونسولة عند المدخل. أتعرفين ماذا فعلتِ بها؟

هل كنتِ تعرفين، بالمناسبة، أن اسم زوجة عمدة فيرتشيللى، مثل اسمك ولذا أرسلت لها الولاة كهدية بمناسبة عيد الميلاد، اعتقدت أننى طلبت حفر اسمها خصيصاً على الولاة وتأثرت لذلك كثيراً لدرجة أنها

جعلت زوجها والحاشية التي تتبعها يتركوننى وشأنى، فلا يزعجوننى  
بوجوب حضور هذه التجمعات الفاشستية الهزلية.

أحسب أننى لا أؤذى كرامتى الروحية، ولا مبادئك الأخلاقية إن  
رجوتك أن تتنازلى، كتابة، عن البقية القليلة المتبقية من ثروتى والتي  
تخصك شرعاً وقانوناً، لا أنوى الانحدار فى فضاظة مقارنة وضعك  
الاقتصادى بوضعى أنا؛ فكل واحد منا عاش حياته كما تراءى له، أو  
كما كان فى وسعه أن يعيش، وهو بالطبع ليس الشئ نفسه؛ لذلك فهو  
مسئول أمام نفسه وأمام الله القادر على كل شئ، غير أننى أعطى  
حساباً أيضاً أمام إيمونى، والذى أصر على أن أدعوه فتأى على الرغم  
من بلوغه الأربعين من عمره، ولست فى حاجة لأن أقول لك إن، إيمونى،  
لم يأخذ من أمه سوى الطبع المرح الفرح والنقرة فى الذقن، وكل الباقي  
كان من المفترض أن يأخذه منى، وإن لم أستطع أنا أن أدير أملاكى  
بعناية وحرص، وأشعر بالخزى لهذا، فأنا أعتبر اليوم رسالتى لك من  
أكثر العقوبات إذلالاً ومهانة؛ لأنه، صدقيني، لم تمر لحظة واحدة فى  
حياتى كلها، شعرت فيها بعدم استحقاقى اللقب الذى أحمله. أرجوك أن  
تتحلى بشئ من الصبر والتسامح تجاه زوج انحدر فى هوة الاندراء،  
غير أننى أفطن، بعد كتابة هذه العبارة أنه لم يمر يوم واحد فى حياتك  
نظرت فيه بعين التقدير والاحترام لزوجك، كما أرجوك أن تصدقنى أننى  
دُفعت لهذا الطلب المخزى بمحض إرادتى فى عدم سلب إيمونى المزيد

من الأملاك، فضلاً عن تلك التي أنا بنفسى سرقتها وأهدرتها على مدار أعوام كثيرة قمت فيها بإدارة أموالى بهذيان وإسراف.

إيمونى ابن غير شرعى، وقد يذكر البعض هذه الحقيقة فى أيامنا هذه بشىء من الاحتقار. لم نتزوج أبداً، أنا وأمى، كما هو واضح. لكن ربما لا تعلمين أنها كانت رفيقة حنونة محبة ومخلصة، تتمتع بعطف الأمومة كما كانت هادئة وذات شخصية دمتة لطيفة.

أكن حباً لا حدود له، مطلقاً وكاملاً لابنى هذا غير الشرعى، منذ اليوم الذى وضعت فيه الداية المولدة بين يديّ، وبالنظر إلى وجهه، وجدت نفسى أفكر فى أننى أريد أن أمنح هذا الطفل الذى لا أعرفه كل شىء، ليس فقط كل ما أملك، بل أى شىء يطلبه منى، أى غنى أو ثروة موجودة على الأرض، وكان يُبقى على عينيه مغمضتين، كمن لا يريد حتى أن يسمع أى شىء يتعلق بالنور، بالعالم وبالأسرة.

لا تعتبرى هذه الرسالة مجرد تخريف شخص مسن، أو، إن أردت، فافعلى، لكن احسبى هذا التخريف محملاً بالاحترام والولاء الذى أكنه لك بعد مرور كل هذا الوقت، وأرجوك أن تعتبرى هذا المكتوب بادرة تكريم تجاه حساسيتك كامرأة ذكية، فأنت واحدة من نساء قليات يفهمن الكلمات المكتوبة بشكل غير مألوف عند العامة. هذا فضلاً عن أنك أنتِ نفسك لم تعتادى الأشياء المألوفة، منذ صباكِ وأنتِ تمقتين حفلات الشاى الراقصة؛ حيث كانوا يرغمونكم على تعلم رقصة الثالس

أورقصة الكدريل. على العكس كنتِ تهرعين خلف كل ما هو غير تقليدى، وكنت تعرفين نفسك بالسيدة الغريبة المميزة، ولكن سامحني إن كنت الآن، ولرة واحدة، أقول لك إن تلك خدع وحيل ممثلى أحد مسارج البلدة.

إن مكافحة التقاليد ومظاهر الرياء، كما كنتِ تسمينها أنتِ، كانت تأخذ طرقاً أخرى مختلفة ولا تزال. ففى تورينو، فى الثلاثينيات كانت الطرق التى كان من الممكن أن تُفتح أمامك لا نهائية ولا حصر لها، إن كنت تريدين أنتِ الخوض فيها بحق، فقد كنتِ شابة فى مقتبل العمر وجميلة وثرية وذكية. كنت تتظاهرين بأن لا والدك ولا أنا كنا نفهمك، وأنتِ تخطئين. كان والدك يفهمك جيداً، ولكن طبيعته الشخصية كانت تجعله يميل إلى مراقبة وملاحظة العاصفة من بعيد، بدلاً من أن يجد نفسه غارقاً فى لجتها. كنتِ ستصفين ذلك بأنه جبن، إنها لكلمة ضخمة، كان والدك رجلاً من القرن التاسع عشر يعيش ويتكيف مع القرن العشرين، بأحزانه وغوغائه، دون أن يكون له دراية به أو اعتياد عليه. لم يكن يعلم ماذا يعمل معك. وعلى وجهك الجميل كان يلاحظ تموج رياح تنذر بقدوم العاصفة، وكان يغير من طريقه حتى يقود السفينة إلى بر الأمان، كما يتعلم البحارة فى سلاح البحرية. كان يهديكِ فرساً، يرسلك إلى جديك فى توسكانا، كان يتغاضى عن الأمر عندما يخطرونه أنك،

بدلاً من أن تذهبي على العشاء عند فلان الفلانى، كنتِ تتحدين المناخ السيئ لتقومى بنزهة على الجواد فى مونكاليبرى، فى بيتشيتو أو أينما كنتِ تذهبين خفية. أما بالنسبة لى، فقد كانت غرابة أطوارك تثير فضولى، كنتِ أنظر إليكِ، كما يُنظر للخيل الصغيرة التى تبرهن على أنها ليست سهلة الانقياد بل مليئة بالطاقة وهى ممتعة للأنتظار. كنتِ أنظر إليكِ وأفكر أنه فى يوم ما سوف أفهم، يوم ما سوف أروض هذه الجرأة الوقحة، وأن هذه المرأة غير الاعتيادية سوف تحلّى حياتى. لم تسر الأمور على هذا النحو، فأنتِ لم تحلى حياتى، بل سممتها، كما فعلتِ أنا الشئ نفسه معكِ. متى تحولت الشمس إلى زفت قاتم، وأمسى بيتنا مثل بابل التى يتحدث عنها الكتاب المقدس، حيث لم نعد نستطيع أن يفهم كل منا كلمات الآخر؟

أرجو أن تغفرى لى هذا. إننى دمرت حياتك، بكل ما أوتيت من قوة وحرص شيطانى، والغريب فى الأمر أن كل شئ حدث بالصدفة. لم يكن لدىّ أية نية أن أصبح كالسيف المصلت لا على رقبتك ولا على رقبة أى شخص آخر. لم يكن من طبعى. أتتذكرين أنتى كنتِ أحب الخيول؟ كان هذا هو كل ما كنتِ أرغب فى عمله، الاعتناء بالخيول والحياة فى سلام. أنتِ أيضاً كان بودك أن تعيشى هكذا، غير أنكِ كنتِ تعتقدين أنه لبلوغ هذه الحياة، كان ينبغى عليكِ إسقاط حواجز كثيرة. ولكن أين كانت هذه الحواجز؟ ألم تنتهيه أبداً أنكِ كنتِ تعتقدين أنكِ تعيشين تحت حصار،

على الرغم من أنه لم يكن حولك أى سور من أى نوع؟ انظري للخلف،  
وتذكرى حقيقتك وأنت فتاة شابة، انظري إلى محاربتك للتقاليد بهذه  
العيون الحكيمة التى تتحلين بها اليوم يقيناً. ماذا ترين؟

أيمكننى أن أقول لك أنا ماذا ترين؟

إنك ترين فتاة تصارع وتجاهد من أجل حماقات. تشعر بحدسها  
أن هناك من حولها شيئاً ما لا بد من تغييره ولكنها كسولة للغاية حتى  
تمارس ذكائها بالكامل؛ فهي تحب ما تتمتع به من مزايا ولا تستطيع أن  
تتخيل الاستغناء عنها.

عزيزتى، إن معركتك السابقة ليس لها قيمة تذكر. قد يمكننا أن  
نلخصها فى اثنين أو ثلاثة محاور رئيسية وهى عدم الخروج من البيت  
وعلى الوجه مساحيق تجميل أو ارتداء الملابس غير اللائقة للانتباه، أياً  
كانت المناسبة، وبالطبع رفضك أن تنامى معى فى نفس الفراش. اغفري  
لى قساوتى، ولكننى وصلت لمرحلة من حياتى يجب فيها أن أصيب  
الهدف مباشرة (اعتبريها ضرورة طبيعية وبيولوجية). أرجوك، إذن، أن  
تقرئى رسالتى هذه بهدوء وحيادية، وأن تأخذى شئى الحسبان أنك بينما  
تقريئين هذه الكلمات، أنا أنظر إليك بعيون ملؤها الحب والمودة، حتى وإن  
كانت نظرات أختلسها، فكما هو معروف دائماً عن منزل فيللافورستا  
الممانعة التى تصل إلى حد الكره والنفور من إظهار الحنان والعذوبة  
الكامنة فى القلب. لقد تعلمت أن أحرص جداً على قسوة الوجه

والتصرفات ومنذ صباى أبلغ راحتى فقط فى الوحدة والسكون، لذا كانت طبيعتى وتربيتى تفرضان على إخفاء حبى ومشاعرى، ولكن هذا يرجع أيضاً إلى أن روجى وميولى الطبيعية تقتضيان تعبيرات ملائمة للأحاسيس التى أكنها لك، لم ترغبى أبداً فى سبر أغوار عيوبى الكثيرة، لم تشئى حتى أن تفترضى مجرد الافتراض أنه كان بإمكانى أن أكون أفضل صديق وحليف وسند لك.

منذ اليوم نفسه الذى طرح فيه والدك اسمى عليك، غدوت فى نظرك العدو الذى يتعين هزيمته، بأسلحتك طبعاً ولقد قمت باختيارها بعناية، كما كانوا يفعلون قديماً قبل الشروع فى المبارزة، حينما كان اختيار السلاح يعتمد على مهارة الخصم، وظروف المناخ والمواهب الخاصة لكل شخص. لم يكن هناك سبيل للمخاطرة وإلا فسيكون البقاء على قيد الحياة على المحك.

ويكل براعة ومن خلال الصمت وعدم الاكتراث والبرودة فى الأحاسيس أطحت بى أرضاً بالضربة القاضية، ما كان بوسعى أن أفعل أى شىء كى أعلن تمردى واحتياجى، بالشكل الذى تسمح به طبيعة متعالية حادة مثل طبيعتى.

ماذا تريدان؟ كان المبدأ الذى يسود على أنذاك هو:

إما الكل أو لا شىء على الإطلاق، وبين الكل أو اللا شىء على الإطلاق، أعرف اليوم أنه هناك درجات متفاوتة لا نهاية لها. أعرف أنه،

بدلاً من محاولة شقّ تحصيناتك المصفحة، كان الأجدر بى أن أكتفى وأرضى بالثغرات البسيطة التي كان من الممكن أن تتفتح أكثر مع عنوبة نظراتى لك، متى تعلمت أن أفصح عنها وأظهرها. لكن لا يمكن أن نطلب من جوادٍ منهنك القوى أن يفوز فى المسابقة الوطنية الكبرى، وأنا على يقين من اتفاقك معى حول قوة وتأثير هذه الصورة المجازية...

ربما قد يكون من السهل عليك اليوم أن تكتشفى أنه، بغض النظر عن الرأى القاتم والكاريكاتيرى الهزلى الذى كونته عنى، يوجد على العكس عقل وروح أقل تفاهة مما كنت تعتقدين. لكن، بالطبع، فات أو ان هذا اليوم، بل إنه قد فات الأوان منذ أكثر من خمسين عاماً. ربما لا يكون من كرم الأخلاق أن أذكرك الآن بتصرفاتك وسلوكك هذا، على الرغم من أننى أعتقد أن مواقفك السابقة حيالى كانت أقل كرمًا بكثير، كنت ترفضين أن تأخذى فى اعتبارك إمكانية، مجرد إمكانية، أن أكون رجلاً مختلفاً عن الشخص الذى كنت تتصورينه، وعن ذلك الشخص الذى كنت ترقيبينه بكل نفور واشمئزاز حينما كان يقترب منك ليلاطفك ملامساً وجنتك، أو ليعانقك بقوة. كم كان كبيراً الاحتقار الذى رأيت فى عينيك الجميلتين، احتقار عميق لا حد له، ربما لا يماثل سوى كبريائى وغرورى المستنكر الذى كان يهدأ نوعاً ما، فقط نوعاً ما، حينما كنت أوجه إليك بعض الأفعال التى تتم عن شر وضيع. كنت تعتبرينها إهانات، الآن يمكننى أن أفسر لك برصانة وهدوء أنها كانت وسائل

دفاعية بسيطة. تراودنى رغبة فى الابتسام وأنا أفكر أن هذه الرسالة قد تسبب لكِ بعض الارتباك، لا أريد أن أقول بعض الاضطراب؛ إذ قد تبدو هذه مزاعم لا أساس لها، وهنا أختتم قصة مشوارنا الشخصى، من يدرى؟ لعلى أبدو لكِ، فجأة، نسخة مراجعة ومصححة من ذلك السفاح الوحشى الذى تشرف بالفعل بالزواج منك.

عيناك! كم تواترت عليهما أحداث مشحونة بنفاذ الفكر والإعتماد، وعلى مدار أعوام تُعد على أصابع اليد الواحدة.

على اعتبار معاملتك لى فى الماضى، أنا لا أكن لكِ، ولا أعرف أن أكن لكِ، حتى إن أردت، أية بغضة أو حقد. تحفظك الجليدى الممزوج بالاحتقار وعدم الاكتراث تسبب فى جروح التأمّت الآن بمرور الزمن. فالشيخوخة نافعة على الأقل فى أنها تخفف من حدة الخلافات القديمة.

أطلب صفحك عن الانطباع الذى قد يصل إليكِ بسبب بعض كلماتى القاسية فى هذا الخطاب الطويل. وأزداد إدراكاً أن الكلمات المكتوبة نادراً ما تنقل نعومة وحرارة العفو المرجو، حينما نطلبه أو نمناه.

أتطلع بكل شغف أن تكتبى لى الرسالة التى أنتظرها، وألا ترفضى، بسبب كرهك لى، الطلب الذى طلبته منكِ حباً فى ابنى، فالحياة

غالباً ما تضطربنا إلى طول وسط فيما يخص مشاعرنا وأحاسيسنا، ولا محالة أنك أدركت هذا أنت أيضاً أثناء حياتك فى الريف. وتبدو هذه الحلول غير محتملة الوقوع حتى فى الروايات المسلسلة. وهذا الحل الوسط الذى أرجوه منك هو واحد من بين تلك الحلول. أعمد على ذكائك فى الحكم على كلمات رسالتى. أقبّل يدك.

فرنشيسكو

٤

فكرت ملياً وطويلاً.

نمت نوماً متقطعاً وهذا الصباح أعانى من ألم فى الرأس. تحضر لى لاسانتا قرصين من ساريدون وتطلب منى أن أخذهما على مسافة بضع ساعات، إلا أننى أعرف دواء أكثر فاعلية. أناذى على دينو وأخبره ألا يقلق إن عاد ولم يجدنى جالسة على مكتبى، فأنا لم أهرب، وسوف نقوم بعمل الحسابات فى وقت لاحق. دائماً ما يردد على مسامعى ساخراً "لا داعى للعجلة، فهناك دائماً متسع من الوقت للدفع". أما أنا فأذهب عند المحامى ريكورسى.

تحسنت حالته، وعاد نشيطاً ومرحاً كسابق عهده. مر جيرانه عليه لتحيته وأحضروا له بعض الحلوى من مدينة لوكي، لا تعجبه، على حد تعبيره البسيط: "ولكن الشيء الجميل أنهم فكروا في".

لا وقت لدى للمجاملات وأقول له هذا صراحة، يلزمني رأى مهني متخصص. ينظر إليّ، مندهشاً، وهو يبتسم ابتسامة مخيفة؛ ربما تكون قد مرت عشرة أعوام لم يستشره فيها أحد. أمد يدي له برسالة، كتبها على عجلة على ورق مربعات من الكراسة، وكتبتها بالقلم الجاف. لا أعرف الكتابة على الآلة الكاتبة ولست أريد أن يعرف أي شخص آخر، فيما عدا المحامي ريكورسي، ما هو مكتوب بالرسالة.

- اسمع، يا متر، وانظر إن كنت قد تصرفت حسناً، لا أدرى إن كان هذا ما يجب عمله، إن كان يتحتم عليّ أن أوقع أمامك كشاهد، أم لا، إن كان يجب عليّ أن أذهب للموثق، خلاصة القول لا أعلم. قل لي أنت من فضلك.

- كيف؟ ماذا تريدان أن تعرفني؟ تكلمني من فضلك.

- اقرأ لو سمحت. هنا مكتوب ما هو الشيء الذي يؤول، وإلى من يؤول.

- يقول ريكورسي وهو غير مصدق:

- ما المقصود؟ هل هذه وصية؟

ثم يستطرد قائلاً بكل فضول:

- حضرتك؟! -

ثم يبتسم ابتسامة عجوز خرف.

- هيا، لا تهزأ كثيراً من الأمر. على الأقل، حاول حضرتك أن تأخذ

الموضوع مأخذ الجد، وحتى أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا.

- ربما فعلت هذا بسبب السن. اغفرى لى، ولكن أحلى سنين العمر

قد انقضت بالنسبة لى ولك.

أوجه إليه نظرة صاعقة.

- لا تؤاخذينى. من يدرى لماذا أسمح لنفسى بحرية الخوض فى

بعض الأمور...

- بالضبط، من يدرى لماذا تسمح لنفسك بهذا.

أتظاهر بأننى لم أر إشارته لى بالجلوس. أريد أن أضع نهاية

سريعة لهذا الأمر. يلقي ريكورسى بنظره على محتوى خطابى، ثم ينظر

إلى مباشرة ويقول:

- كيف هذا! وأنا الذى كنت أعتقد... كنا كنا نعتقد... لا

تؤاخذينى، لكن...

- حضرة المحامى، لقد مضى وقت طويل حقاً على عدم ممارستك المحاماة! لقد نسيت حتى القواعد الأساسية لآداب وأخلاقيات المهنة، والآن تصل إلى درجة التعقيب... هل أصابك الجنون؟

تحول وجه ريكورسى إلى اللون الأحمر القرمزى، لدرجة أننى للحظة تخيلت أنه سيصيبه أذى، ولكنه تماك نفسه وأكد لى أنه سيتولى الأمر برمته، حتى لا يكون هناك لبس أو سوء فهم بخصوص ما أريد أو ما لا أريد أن أفعله. تبادلنا التحية، بشيء من البرود. وعلى الباب قال لى ريكورسى محاولاً التغلب على حرجه:

- سامحيني من فضلك... لقد خانتى الذوق العام وأصول المهنة... كل ما فى الأمر أننى كنت أعتقد... كنا كلنا نعتقد... نظراً لحبك بـ دينو... أقصد أن أقول... "المحمية"...

هذا المحامى ريكورسى لديه المقدرة على إثارة غيظى وغضبى أكثر من أى شخص آخر.

- لا. ليس الأمر هكذا. "المحمية" ملكى. أكثر من أى شىء آخر، صدقتنى. لقد وصلت هنا وأنا أناهز الثلاثين من عمري، ومن وقتها لم أترك هذا المكان أبداً، أترى هذه التلال، والغابات وحقول الكروم؟ سبق أن قلت لك إنها ملكى، إنها أكثر من كونها ملكاً لى، إنها أنا.

– كيف؟

– انظر بانتباه، يا حضرة المحامى. حسناً، إنها أنا التى تنظر إليها، وليست منظرًا طبيعياً. أنا هى هذه التلال، وهذا البيت والبرج، والبئر وأشجار الزيتون. أنا هى الكرم والتبيز فى الزجاجات الموضوعه فى القبو.

يستند ريكورسى على قائمة الباب، كما لو كان يريد الاحتماء من برد هذا الصباح القارس.

يسألنى بلهجة نائحه تقارب التوسل:

– ألا تريدين قليلاً من القهوة؟

تحت فتحى الأنف، يلمع وميض ضوء وكأنه على وشك أن يصاب بالبرد، وفجأة أشعر بالشفقة عليه، فى شيخوخته هذه ووحدته وأسلوبه المجامل المتذلل وكأنه مستضعف خانع. لماذا لا يطردي، ويتخلص من وقاحتى ولهجتى الحادة الخشنة، كما أستحق؟ ها هى، معجزة ريكورسى، إنه عاش حياته كلها مثل غواص فى غواصته، يحميه من شرور العالم فلتر غير قابل للاختراق يخفف صوت كل ما لا يرغب فى سماعه، ويغشى كل ما لا يرغب فى رؤيته، ويضعف الحواس ويبطئ من حدة الانفعالات.

أقول له:

- نعم، أشرب قهوة بكل سرور، لكن دعنى أنا أحضرها.

خطابى موضوع على مكتبه غير المنظم. يشير إليه ريكورسى قائلاً:

- هل أنتِ واثقة؟

أجيبه:

- أتعرف، يا حضرة المحامى، أنه حينما أتيت إلى هنا بمفردى...

أود أن أحكى لـ ريكورسى عن شقيقى الذى كان يتمتع بعيون سوداء وضحكة مرحة لم يُسمع صداها أبداً فى بيتنا. أود أن أحكى له عن ذلك الألم الذى لم تنجح أبداً فى إخراجه خارجاً، لا أحد منا كان يستطيع ذلك، لم يكن من المسموح إظهار أية انفعالات أو أحاسيس، حتى بعد أيام قليلة من مراسم الدفن الرمزية؛ إذ كان قد وصل من أفريقيا بعد شهور كثيرة من وفاته؛ لاستيفاء إجراءات بيروقراطية وأمور أخرى، على متن باخرة شحن إنجليزية، كانت تحمل طرود بضاعة من القطن المصرى، وجوز الهند وبضائع أخرى قادمة من المستعمرات الإنجليزية، لم يكن من المسموح البكاء أمام الناس، ولا حتى إظهار احمرار العينين.

لو كان يفهم، لشرحت له أن كل الدموع، وليس فقط التى أذرفها من أجل أنريكو، و التى لا تُحدث تجويفاً فى الوجنتين، تذهب إلى مكان آخر، تحفر بداخلك، فى أعماق نفسك مثل بعض الأنهار، بل على

العكس، فهي تجرى فى قنواتها بقوة وعنق تحرق وتستنزف وتستهلك القلب والعقل مثل فاكهة الكاكا غير الناضجة.

- ... كان يوم أحد. كان أدو، المهتم بشئون المزرعة آنذاك قد صعد إلى قمة البرج ليدق الجرس. كانت هذه طريقته كى يخبرنى بمقدار سعادته بوصول سيد إلى "المحمية" أخيراً. كنت قادمة من تورينو، على متن سيارة غير مريحة بصحبة كومة من الأمتعة ومن المخاوف، يعلونى التراب بفعل طريق فى غاية السوء، قلما كان مسفلتاً. كنت ميتة أكثر من كونى حية، يفزعنى ظلى. كان كل شىء من حولى يعجبنى، كنت أفكر أن هذا المكان يوجد هنا من أجلي، دائماً ما كان موجوداً من أجلي، كنت أعتقد أننى أشعر تجاه هذه الأماكن بنفس الجاذبية غير المفسرة التى يشعر بها المرء تجاه محبوبه، وصدقنى أنا أعرف عما أتحدث.

- لكننا هنا كنا نموت جوعاً، يا كونتيسة، وإن اتجهنا نحو الجنوب، تجاه الساحل، فى ماريمّا، كان الناس يموتون من الملاريا.

- انظر يا ريكورسى، لقد تقدم بى العمر وشخت سريعاً، تسرب قرن كامل من بين أصابعى فى نفخة. بالنظر إلى الورا، يبدو لى أن عمري لم يتجاوز العشرين حتى أمس الأول. ولكن على العكس عمري يزيد عن الثمانين سنة، على الرغم من أن الجميع يتظاهرون بعدم التفكير فى هذا. وكما يُقال فى لغة كرة القدم،

نحن لاعبون احتياطيون، حضرتك وأنا، فى انتظار الخروج وليس اللعب. يتعين على أن أقول لك، مع هذا، وبكل صراحة، إن التغيير الأعظم، وغير المتوقع على الإطلاق، هو ذلك التغيير الذى حدث هنا. هل تتذكر كيف كانت "المحمية"؟ انظر إليها الآن. منظر بديع. أحياناً كثيرة فكرت أننى لن أنجح أبداً فى مهمتى؛ فالعمل شاق جداً جداً، عمل خشن، يتطلب تضحيات لا حد لها. وعلى العكس... فى النهاية كنت أشتم رائحة الهواء، مثل كلب صيد. كنت أشاهد كيف يغير ضوء الشمس الألوان، وأستمع إلى كل الأصوات المختبئة فى السكون؛ فهى كثيرة للغاية، هلا عرفت؟ لا يمكن أن تصدق كم عددها. أكثر من روائح النبيذ الطيبة.

حينما أشرع فى الحديث من جديد، بعد وضع ماكينة القهوة على النار، يحدق فى ريكورسى.

- أعتقد أننى غير واعية إلى هذا الحد حتى لا أنتبه بعد مضى وقت طويل أن دينو أيضاً يشاركنى حبى "للمحظورة"؟ أعتقد أننى لا أدرى، وأن المياه البيضاء (الكتاركت) قد أظلمت نكائى أيضاً، فضلاً عن البصر؟ أنت تخطئ. أنا أعرف ذلك جيداً، وأفضل منك. أنا أعرف كل شىء عن دينو. كل شىء.

يفرك ريكورسى يديه ويقاطعنى:

· سامحيني إن سألتك هذا السؤال، لكن لماذا لم تذهبي للبحث عن السعادة في مكان آخر، وكنتِ تقدرين على ذلك؟

· ريكورسي، إن السعادة والرضا يتلخسان في حماقات ويريضيان بحماقات ويعتمدان على حماقات... و... إنها مسألة ميول طبيعية واستعداد مثل الميل الطبيعي للموسيقى... أو للعثور على المشروم الثمين بين أشجار السنديان مثلك. هذا كل ما في الأمر. تولّ الأمر بحيث تجعل رغباتي تُحترم، واستخدم كل التفاصيل الدقيقة التي تراها مناسبة. أريد تقسيم "المحمية" عند وادي سانتا ديلفيينا، وأن يكون حوالى مائتى هكتار ملكاً لـ دينو، وبوابعها من العزب والأراضى، ومائة هكتار لـ إيمونى فيللافورستا، والذي لم أره أبداً شخصياً. ضع كل القيود والشروط التي تراها ضرورية، أنا أعطيتك كارتاً أبيض للتصرف بكل حرية، على ألا يستطيع فيللافورستا أن يبيع أرضى الزراعية لآخرين، فيما عدا دينو نفسه أو أبناءه من بعده. من الضروري أن يكون هناك شرط أو مانع يسمح بذلك، لا مفر من التصرف هكذا.

لكن...

ياحضرة المحامى، لقد أدركت أنه يوجد احتمال - لا أقول يقيناً - ولكن احتمال أن أكون قد تسببت في أضرار كثيرة، ونحن

تتقدم فى العمر ومع الشيخوخة نلين ولا أستطيع أن أنعم  
بالسلام والسكينة.

- ليتك تعرفين مقدار الظلم والقسوة التى رأيت الناس يمارسونها  
خلال خمسين عاماً من مزاولتى للمهنة. صدقيني حضرتك، غالباً  
ما تَقْتَرِفِ يحسن نية.

يتمتم ريكورسى بصوت منخفض، وينظر حوله كما لو كان لا يعرف  
أين يجب أن يستقر بصره.

- ماذا دهاك يا حضرة المحامى؟ لا تجعل منه أمراً شخصياً.  
فأنت تمدتى بعون مهنى، أظن أنها مهنتك. فماذا يقلقك؟ السيد  
فيللافورستا؟ إنه زوجى، كما تعلم. لا بد أنه ورد عليك حالات  
زواج كارثية، أتخيل هذا. لم يحالف زواجى الحظ، وأنت تعلم  
هذا. فماذا إذن يثير قلقك؟ هل هو فيلافورستا من يثير ذعرك؟  
هيا، إنه ليس إلا سيدياً كهلاً، مستكيناً فى بيته فى تورينو، ولم  
يره أحد خلال خمسين عاماً. على الأقل حتى أول أمس.

ارتعد ريكورسى واحمر وجهه.

- ما الأمر، يا حضرة المحامى، هل لى أن أعرف؟

- لا شىء على الإطلاق، لا شىء على الإطلاق. هل أنت متأكدة أنه  
لم يظهر البتة طوال هذه المدة؟

- متأكدة يا حضرة المحامى، بل على يقين تام.

- خمسون عاماً زمن طويل. لعل زوجك حاول... لا أحد يستطيع أن يجزم بشيء... ولم ينجح...

لا أعرف كيف أشرح لـ ريكورسى حقيقة ما أشعر به حينما أغلق عيني وأرى فيللافورستا أمامى ساكناً لا يتحرك، وأنا أخبره أنني ماضية.

ينظر فيللافورستا فى ساعة جيبه، هديتى له بمناسبة الخطوبة، ولا يقول سوى هذه الكلمات:

- إنها السادسة والنصف بالفعل. لقد تأخرت. هل هناك المزيد من الأمور التى تستدعى المناقشة؟

- أعتقد أنني سأرحل من تورينو. أفكر فى الانتقال إلى "المحمية". إنه، فى رأيى، أنسب شيء أفعله.

- يسألنى فرنشيسكو متهكماً بينما يقبل يدي لتحتيتي:

- أنسب شيء تفعلينه؟

وعلى باب البيت، يرفع ياقة الباطو، ويلتفت لينظر إلى. لا أرغب فى أن أروى لريكورسى هذه التفاصيل. حينئذ أقول له إنه ربما أتصرف لأسباب ودوافع مختلفة تماماً.

على العكس تماماً، أنا لست بواهنة ضعيفة لا حول ولا قوة لى؛  
فأنا لا أزال أشعر بجسارة الأسد، بل بوحشيته، ومن خلال هذه الهبة  
والمنحة غير المستحقة أريد أن أبرهن لشخص ما أنه أخطأ فى حقى،  
مرة، مائة مرة، ألف مرة، وأنه لم يفهم أى شىء عنى، عن كيف كنت، لا  
شىء البتة. أو...

-- أترك لحضرتك الاختيار فى أن تعتقد كيفما شئت يا حضرة  
المحامى. ولكن لا تأخذ فى تقصى الأسباب والتحرى عنها،  
اكتفِ بالنتائج والآثار المترتبة عليها. ها أنذا أسلم بموجب هذا  
المكتوب شيئاً ما لشخص كان قد طلبه منى، قبل وقت طويل  
مضى.

يرقبنى ريكورسى، وقد امتقع وجهه، ثم يبادر بعمل شىء لم يفعله  
أبداً طوال سنين كثيرة؛ إذ يقترب منى، ويمسك بىدى ويضمها ويشد  
عليها بين يديه.

أنا أكره التآثر، أى نوع من التآثر، وبالتالي أهرب، منتزعة يدى  
من قبضة يد ريكورسى وأرتدى المعطف دون حتى أن أستدير  
لتحيطته. بيدولى أننى أراه، من ورائى، وقد ارتبك وقطب جبينه  
وهو يرى يده شبه معلقة فى الهواء لا يدرى إن كان عليه أن  
يتبعنى أم يتركنى أذهب، ومع ذلك لا أتوقف ولا أنطق بكلمة.

بعد خروجى من عنده، وبينما أنا أقود سيارتى ببطء وأصعد منحنيات الطريق للعودة إلى المنزل، أدرك أن ألم الرأس قد زال، وهذا معناه أنني أستطيع، وبطاقة لا بأس بها، أن أفرغ للترتيبات الأخيرة الخاصة بحفل الاستقبال الذى أقيمه. توقف المطر لتوه وتحول لون السماء إلى لون داكن كما فى لوحة تصور القرن السابع عشر. بينما أقود السيارة وبينما أهبط من سيارتى المرسيديس وأتجه ناحية المنزل، أشعر بأننى خفيفة وهشة وشفافة كما لو كنت بأجنحة بدلاً من الذراعين وبذهنى أفكار مرحة كتلك التى تتمتع بها فتاة صغيرة.

أركض نحو المنزل لأكتب رسالة.



-٧-

الحفل



ينحنى تروت على، يلامس بأحد أصابعه جبهتي وأنفى وكتفى بخفة كما رأيتَه يفعل وهو يكتشف إحدى اللوحات التي يتيم بها ويمرر سبابته على سطحها كي يحس بطبقات الطلاء والدهان، فيتوصل إلى أى رتق أو إعادة طلاء مما لا يرى بالعين المجردة. يتبع نفس الطريقة معى وبإصبعه الخفيفة، بينما لا أزال عارية وفاترة، يساير جانب وجهى، يحصرنى فى صورة خيالية ويقتطعنى خارج نطاق حجرة نومنا. أمسك بوجهه بين يدى، عظام وجهه رقيقة، وقسماته دقيقة، وحاجباه الشديدا التقوس يمنحانه نظرة عالقة، كنظرة دهشة شديدة. تظهر عليه علامات الزمن وأراها متمثلة فى التجاعيد الصغيرة حول عينيه، وتشقق الشفاه وعلامة غائرة فى جبهته تبدأ من بين الحاجبين وحتى بداية الأنف، وكأنها علامة بالقلم أكثر من كونها تجعيدة حقيقية. أجد نفسى فى هذه التجاعيد، كما وإن كنت أشاهد نفسى فى المرأة، أنتظر طفلاً، أعرف هذا الخبر منذ أسبوعين ولكننى لم أملك الشجاعة كي أخبره.

- هل أنت سعيد معى؟

تروت لا يجيب، بل يبدأ من جديد فى تحديد إطار وجهى بأصابعه،  
ويداعب بطنى ويقبلها. أسأله مجدداً، يساورنى قليل من القلق:

- هل أنت سعيد بأنك وجدتنى ثانية؟

- وجدتك ثانية؟ يسألنى تروت وهو يرفع رأسه وينظر إلى،  
مندهشاً. ويكرر قائلاً:

- وجدتك ثانية؟ أنا لم أفقدك أبداً. فأنت كنتِ دائماً معى.

أنا الآن التى أنظر إليه فى استغراب. ماذا يقصد بقوله هذا؟  
أتركنى أنتظر كل هذه السنين، عالماً أننى لن أتحرك أبداً، مثل الحجر أو  
العمود الذى يدل على الأبعاد بالأميال عند منعطف الطريق، والذى التفت  
من حوله، على مدار السنين، عربات نقل اللبن والتبن، ثم سيارات الألفا  
روميو الزرقاء لصاحبها الكونت مارتينى وعربات الجيب الأمريكية  
وحافلات الألمان واليوم السيارة النقل الصغيرة الخاصة بماريو  
والأوتوبيسات المتجهة إلى فلورنسا؟

انتبه تروت إلى نظرة الاستغراب فى عيني، وهو يضمنى قريباً منه:  
يعانقنى بشدة وبقوة حتى يجعلنى أحبس أنفاسى، ثم يهمس فى أذنى:

- إننى فقدت أشياء أخرى، لكن لم أفقدك أنت. هيا، ارتدى  
ملابسك. لننزل عند ضيوفنا؛ فهم ينتظروننا.

ينقل المذيع هذه الكلمات:— لقد قال شعب إيطاليا كلمته.

يريد أن يقول فقط إننا ذهبنا كلنا تقريباً للإدلاء بأصواتنا.

صوت المعلق على الأخبار عال وحاد ولا بد أنه تنقصه المفردات والتعبيرات الملائمة؛ إذ أنه كرر لأكثر من عشر مرات هذه العبارة "إن نسبة التصويت تبرهن على نضج الشعب الإيطالي السياسى ووعيه"، فبعد نصف ساعة من تكرار هذه الكلمات، نفقد صبرنا جميعنا ونغلق المذيع. لقد ذهبنا للإدلاء بأصواتنا أمس الأول فقط. وإن كنا قد قمنا كلنا "بواجبنا"، فالأمر يستلزم على الأقل نصف أسبوع لإحصاء كل الأصوات.

فلنذهب فى نزهة على ظهر الجياد إذن.

يتفق ضيوفى معى فى هذا الرأى.

ذهب ماريو إلى سينا، وسوف يقضى هناك اليوم كله. عهدت إليه نوقيللا بابنتها؛ لأنها مشغولة بالطهى لنا.

أما بالنسبة لتروت، فهذا الصباح أيضاً، صباح يوم الثلاثاء، بدلاً من أن يأتى معنا للقيام بنزهة على الجياد، فإنه يفضل البقاء والقيام ببعض الأمور المنزلية التى لا أعلمها، فأراه يبتعد بصندوق العدة ويختفى ناحية الجراج. لا يرتدى ملابس سيد المنزل الأنيقة، ولا يتوقف للحديث مع الضيوف، بل إنه يجد أعذاراً وحججاً مستمرة كى يبقى وحده. لست

أدرى إن كان الأمر عبارة عن لياقة ورهافة حس، فإثناء الليل ينام معى،  
غير أن الليل يُعد منطقة حرة. فى الصباح، يفضل الترترة مع ماريو  
ونوقيللا ويقضى ساعات طوال عند حقل الكرم.

يؤسفنى عدم مجيئه ولكننى لا أستسلم، أذهب وراءه وألح حتى  
يلحق بنا، على الأقل فيما بعد، لكن تروت يقول لى إنه سيذهب فى وقت  
لاحق لزيارة ذلك المحامى الذى ينجح دائماً فى تعكير صفو مزاجه.

وبسؤالى عن السبب، يرفع كتفيه ثم يطبع قبلة على وجنتى ويبتسم

ويقول:

- اذهبى أنتِ واستمتعى بوقتك.

يعتقد أودونى أنه ينبغى على أن أزيد فى إلحاحى وأجعله يغير رأيه،  
فاليوم السماء صافية جداً، غير أن أودونى لا يعرف أن تروت ليس من  
أولئك الذين يغيرون رأيهم بسهولة.

٢

يتعين على أن أقوم بنزهة فى الغابة، ولكننى أشعر ببعض  
القشعريرة. لا أريد أن أمرض، فأنا قد رتبت ونظمت لإقامة حفل.

قررت أن أدعو زوجى أيضاً كتابةً. أكتب سطوراً قليلة، لطيفة مهذبة

دون خشونة.

أحسب أن كلاً منا يدين للآخر ببعض التوضيحات.

لا أرى قبيلافورستا منذ قبل الحرب، فأنا لا أعتبرها زيارة ذلك العناق السريع الذى تبادلناه وقت جنازة أبى، حالما كانت عيون المدينة بأكملها موجهة نحونا تراقبنا وترصدنا، ويتخيل الجميع عاهرة "تشيريه" اللافطة للانتباه ذات الشفاه المصطبغة التى أخذت مكانى. لم يتكبد فرنشيسكو مشقة الحرب كثيراً؛ فهو لم يحارب ولم يختبئ فى الغابات على حد علمى.

بالكثير، أزعجوه وأثاروا الارتباك فى مواعيده بسبب حظر التجوال، وربما أوصدوا أبواب أماكن لقاءاته المفضلة؛ إذ أحرقوا النادى واضطر أن يلعب الورق فى بيت أحد أصدقائه. نما إلى علمى أنه أبداً ما رحل من منزلنا، وإنما مكث على الأكثر فى القبو أو فى ريفيلياسكو، أثناء أوقات القصف العنيف، كان القانون يتيح له أن يبقى فى أمان ويرعى مصالحه؛ لأنه كان يندرج تحت فئة "الأبناء الوحيديين الذين يعولون أمهات أرامل" (على الرغم من أن حماتى إيرينى لا توحى أبداً، لأى شخص، لأى شخص فعلاً، أنها امرأة ضعيفة تتشح بالسواد).

أما فيما يتعلق بى، فكل مرة، طوال هذه السنوات، وجدت نفسى مرغمة على العودة إلى تورينو إما لدواعى عزاء وجنازات لا يمكن تأجيلها أو إهمالها، وإما لشئون ميراث أو تقسيم التركات، كنت دائماً ما أحاول جاهدة أن أتجنب أى لقاء محتمل.

لا تزال رسالة فيللافورستا هناك على المكتب حيث تركتها مفتوحة منذ بضعة أيام، وأراها كلما ألتفت يميناً أو يساراً، كل تلك الأوراق الصلبة ذات الأطراف المسننة، وهل يمكن ألا يكون هكذا ورق الرسائل الذى يستخدمه فيللافورستا؟، كما لو كانت طلقة إنذار وتعنيف حاد، ومع ذلك لا أقرر أن أضعها فى المظروف وإيداعها أحد الأدراج أو تمزيقها، فلنقل إننى لا أرغب فى أن أمسك بها بيدي، لا أرغب فى أن أكون مضطرة ومجبرة على التذكر.

فأنا أغوص بالفعل فى الذكريات. لقد انكسرت حواف الذاكرة وبالكاد أطفو على السطح وقد تزايد إنهاكى وتعبى. وبين الحين والآخر، أغطس برأسى لأسفل.

تتكهن لاسانتا بالأمر.

لا أدرى كيف تنتبه أحياناً للتو واللحظة إلى أن هناك شيئاً ما لا يسير على ما يرام، وفى سرعة السرعوب، تعمل ما ينبغى عمله، تتنادى ابنها بأى عذر وتتركه يجرى ويتسكع من حولى. بيتى كله، بالنسبة لذلك الطفل، هو عبارة عن قلعة ساحرة، مليئة بالأماكن الغامضة والمفاجآت، طيور محنطة، رؤوس خنازير برية ذات أنياب مصفرة غير أنها لا تزال مرعبة، مفاتيح ضخمة من البرونز لا أدرى طبيعة الأقفال التى تفتحها، وحتى أن هناك سيفين مقبضهما من الفضة معلقين فى كأس على

الحائط، ويندس تومازو فى كل مكان وتعيدنى ضحكاته إلى الأرض التى نعيش عليها. أسأله:

- ما الهدية التى تريدها على عيد الميلاد؟

يرد رداً جاهزاً:

- بندقية تحت الماء.

بندقية على عيد الميلاد؟ هل أنت متأكد؟ لا تحسب أنه يمكنك الصيد فى عيد الميلاد.

يجيبنى:

- لا أحد يدرى، من الأفضل أن يكون لدى بندقية.

### ٣

نحن ثمانية أشخاص، نينا، حفيدها، إيريس وكارلينو، أودونى وتروت، ثم ريكورسى وأنا. سنصبح تسعة إن تسلم فيللافورستا دعوتى فى الوقت المناسب وقبلها.

أخرجنا خارجاً منضدة مستديرة حيث يمكن لعشرة أشخاص الجلوس على راحتهم. أعتقد أننى سأستخدم الشمعدانات الفضية التى

أحضرها أبى من بيرو وورثتها عنه، ليست جميلة ولكنها عالية بدرجة تكفى لحمل الإكليل الصغير المصنوع من الأوراق والصنوبر الذى تنتهى لسانتا من ضفره. لم تقم أبداً بضفر تاج، ومع ذلك تعلمت سريعاً بحق، بمجرد أن كشفت لها عن الحيل التى أستخدمها. على أية حال، أعتقد أن لسانتا تعتبر أن ضفر التيجان لهو علامة أكيدة لا ريب فيها على هطلى، فهى على الأرجح لا تفهم المقصود، فيمكننى الاتصال ببائع الورود فى المدينة وطلب دستتين من الورود، أو، وهذا أفضل، أن أعهد إليه بالشمعدانات، على أن يجهزها هو ثم يعيدها إلى منزلى، قبل الدعوة بساعتين، بعد أن يكون قد أعد تشكيلة جميلة ورائعة من الورود. بالطبع، لن أقوم أبداً بعمل شىء من هذا القبيل، فالفرق بين باقات الزهور الفخمة تلك وبين أوراق البلوط الأخضر المتواضعة التى أعدها أنا بنفسى يساوى العالم بأسره.

جارى العمل فى الجراج، حيث ركب دينو محوراً على حامل وممر لبتين صغيرتين للحصول على قدر من الضوء. أحب أن أضع تاجاً من الزهور على باب المدخل أيضاً، فأوراق البلوط الأخضر والسنديان والفلين مبهجة جداً. يجىء دينو ويروح فى صمت، فهو دائماً أبداً مزدهم بالأعمال، يفحص سخان المياه حتى لا يحدث به سدد مرة أخرى، كما كان الحال فى الخريف الماضى، يتأكد أن البيت لا ينقصه شىء، الخشب للمدافىء، لمبات، فدائماً ما يحدث عطب بها فى اللحظة

الأخيرة، ويأتى ليتحقق من أننى لا أحتاج لشيء، وهل يلزم سلك حديد آخر أو مقصات أخرى أو دلو مياه آخر.

قررت أن نأكل الديوك البرية التى يصطادها دينو، والتى تمتلئ بها الثلاجة، سنقدم بطبيعة الحال النبيذ والزيت اللذين ننتجهما، والخنازير الصغيرة والبيض والخضروات والكستناء، والخلصة، أن هذه الأرض تعد جنة وبها كل ما يلزمنى حتى وإن أردت أن أجهز لوليمة ملكية.

قامت لاسانتا بتقديم طاقم النساء الذى يعمل معها، «مساعداتى»، كما يطلو لها أن تدعوهم بكل فخر. وهى ابنة خالها، امرأة قوية البنيان، ذات وجنات حمراء وتدعى جيمما، وأوليتا، ابنة جيمما، وهى فتاة بديعة كان من المفروض أن تعمل كعارضة أزياء بميلانو بدلاً من أن تبقى ملازمة لأمها لا تفارقها.

- اعرفى أن ابنتك هذه رائعة الجمال.

- لا تحدثينى عن هذا، فحالتها ميئوس منها. تقضى طوال يومها أمام المرأة ولا تأكل أى شيء مما أطهوه ويقول إنه يؤذيها! انظرى إليها، تبدو نحيلة كالعصا، وإن كنت أقر وأعترف بجمالها فهى بحق جميلة، ولكن كل الفتيات جميلات وهن فى الخامسة عشرة من عمرهن.

- لا أعتقد أن كل الفتيات جميلات يا چيما. إن أوليتا باهرة، وهى ليست نحيلة، دعينى أقول لك إنها تعرف مصلحتها.

- لست أدرى، فإن كان هذا هو رأيك ربما صدقت. هل سيكفى كيلو من الكستناء أم أجهز كمية أكبر؟

تقوم لاسانتا بالتفتيش على نضارة الزهور فى الزهريات داخل كل غرفة وعلى نظافة البياضات، ثم تقسم وتوزع المشتروات فى المطبخ، من يقطع البصل إلى شرائح ومن يقشر أبا فروة، وترسل چيما ودينو وأوليتا وواحدة اسمها دولوريس، ليست من البرازيل وإنما من كاريچى وكل حروف الـ C فى كلماتها تنطقها مثل حرف الهاء وهى مخصصة لتنظيف الفضيات.

أصبح اليوم أى شخص يلمع الفضيات، هذا إن كانت هناك فضيات أصلاً، ولكن حينما كنت طفلة، كان عالم المنزل يحكمه قواعد صارمة؛ فالخادمت يلمعن النحاس والخشب، ويمسحن الأرض بالشمع، وينفضن السجاجيد ويلمعن بالريشة فى كل مكان. أما الخدم فمهمتهم تلميع الفضيات، وزجاج النوافذ والجلد؛ أى الحقائق وأحذية سيد البيت. كانت القمصان تُكوى فى الخارج، وكان وجهاء القوم قبل الحرب يرسلون قمصانهم إلى برلين أو، للحصول على خدمة أسرع، إلى القاتيكان إن كانت لهم معارف هناك حيث يوجد مكوجيات ماهرات، مدربات جيداً على كى مفارش الهيكل وملابس الكهنوت.

كان المطبخ عالماً وحده، محظوراً دخول الأعراب فيه، لا أمى ولا جدتى كانتا تطانهن بقدميهما، وحتى السيدة وودروف كانت تدخله عن غير زغبة منها، حينما كانت مضطرة أن تأتي لتأخذنا من المطبخ، لما كنا ندخله لنأكل السكر من خزانة الأطعمة، كان أنجيلو هو الذى يعد قوائم الطعام الأسبوعية وقوائم حفلات الاستقبال المهمة طبقاً لتعليمات وإرشادات والدتى بصفة عامة. كان هو الذى يقرر نوعية أطعمة الخدم؛ ففي العادة كانت أنواعاً دسمة من الشورية، والبطاطس، وقطع من لحم الخنزير مرة أو مرتين أسبوعياً، وكثيراً من الأطعمة التى كان يُعاد استخدامها وتقدم لنا نحن أيضاً على موائدنا.

كانت أمى تشرح لأبى فى صبر، أثناء الأعوام العجاف، وهى تنظر إليه وكأن أمامها طفلاً غيباً قائلة:

- التوفير الحقيقى هو أن يكون عندك طباخ مثل أنجيلو، يعرف إعادة تدوير المتبقى من الطعام الفائض واستخدامه، وطهى الكفتة، والسوفليه، والميرينج، والصلصة الهولندية.

كانت الميرينج والسوفليه والصلصة الهولندية بالنسبة لأمى هى "الطعام الاقتصادى" لأنها أطعمة تُجهز من الفائض من اللحم والبيض المخفوق.

أمس ذهبت إلى سيبينا لشراء شيء ما من الصيدلية.

أراد دينو أن يصحبني بسيارته.

لا يروق لى أن أعامل كسيدة عجوز، حاولت مراراً وتكراراً أن أرفض عرضه، ثم أننى أكره ركوب سيارته الكبيرة غير المريحة التى يفخر بها كثيراً.

أمقت أن يعتبرنى أحد شيئاً هشاً، وهذا هو الإحساس الذى أشعر به حينما يرمقتى دينو ولاسانتا بهذه النظرات المتألمة المغتمة. يبدو أنهما هناك، وقد تجمد نظرهما وتسمر على ذراعى وساقى يلققان من أن أقع على الأرض فتتفتت عظامى لأنهما على يقين من أن مرض هشاشة العظام قد أصابنى أنا أيضاً على الرغم من نزهاتى الصباحية وعلى الرغم من أنتى لا أزال أتسلق السلم المؤدى لسطح المنزل، إن اقتضت الضرورة. بالطبع، خفف دينو من ملاحظته الدؤوبة المثابرة لى، وأصبح يقضى وقتاً أطول فى البيت يصلح ما يحتاج تصليحاً هنا أو هناك. لكن أحياناً لا أستطيع أن أقول له لا، وأن أتخلص من اهتمامه الزائد بى. أسخر منه، أنتهره، وأقول له إنه لديه بالفعل زوجة وابن وأراض زراعية عليه أن يعتنى بها وأظن أن هذا كله يكفى. حينئذ ينظر إلى مبهوتاً، بل مفاجئاً ويقول لى فى استنكار خفيف:

- ماذا تقولين، كلها أمور فى مقدورى الاهتمام بها!

هكذا هو منذ أن كان طفلاً، فهو دائم الجدية، دائم التأنيب لنفسه، لا يسمح لنفسه بقدر ولو قليل من المزاح والسخرية، مأخوذ تماماً بمهامه ومسئوليّاته. كان يرشق بالمقلاع بتركيز شديد وكأنه لاعب شطرنج، تماماً كما يفعل اليوم مع الأرض، فهو يدير ثلاثمائة هكتار من الأرض الزراعية وكأنه يدير العالم بأسره.

لما هبطت من السيارة، كان دينو يريد أن يرافقنى ولكننى جعلته يتجمد فى مكانه بنظرة واحدة لم يتحرك بعدها.

بمجرد أن دخلت الصيدلية، تراجعت للخلف، فقد تغير كل شيء بالداخل. الطاولة الخشبية العريضة اختفت وحل محلها حامل مطلى باللون الرمادى وكأننا فى مستشفى. على الأرفف اختفى ذلك العدد الذى لا حصر له من الأدراج والأدراج الصغيرة ذات المقابض الصغيرة من الصينى الأبيض، وصف البرطمانات الزجاجية الزرقاء أو الشفافة، بعضها بالسداة الفل والبعض الآخر عليه غطاء من الصفيح وبعضها أيضاً مصنوع تماماً من الخزف ولونها سماوى، ومجموعة المدقات، المصطفة جيداً فى نظام تبدأ من الكبير إلى الصغير، والموازين الصغيرة... أين اختفت الموازين الصغيرة وموازين الجرامات، والصف

المنظم من الكرتون الرفيع مثل خبز المناولة الذى يُستخدم فى غلق علب الدواء البودرة التى سبق تعييرها؟ من كان يتوقع ثورة مماثلة؟ وفى وقت قصير هكذا... قلت هذا كله للصيدلى، وأظهرت احتجاجى، هل من المعقول أن يغفل الإنسان للحظة واحدة فيتغير كل شىء، لم نعد نفهم أى شىء، امنحونا وقتاً على الأقل كى نتعود على هذا التغيير، على الأشياء المستحدثة التى تتلاحق دون هوادة، ثم ما الداعى لتحديث وتجديد الصيدلية القديمة؛ لقد كانت جميلة، جميلة بالفعل، كما كانت عليه، ولكن متى قمتم بتجديدها؟

أجابنى الصيدلى وقد بدا عليه الضجر:

- فى يناير القادم يكون قد مر ثلاثون عاماً على تجديدها.

ثم أضاف دون تغيير نبرة صوته:

- مرنى.

أحسست أننى أموت.

- لا أريد شيئاً على الإطلاق.

ثم خرجت مسرعة، حتى تخف حدة سخونة وجهى من كثرة الإحراج. دلفت داخل العربة وأنا مرتبكة مذهولة، فى حال أسوأ من تومازو عندما يتسبب فى مصيبة دون قصد.

سألنى دينو:

- ماذا هنالك، ماذا أصاب حضرتك؟

أجبتُه:

- لا شىء، لا شىء.

لم أفصح له عن الأمر إلى أن وصلنا البيت. ثم، دعوته للدخول واحتساء فنجان شاي معى، حينها فقط استجمعت شجاعتي وحكيت له عما جرى فى الصيدلية. بكل التفاصيل.

بقى صامتاً، إلى أن قلت له:

- الواقع أننى أصبحت كهلة يا دينو وأجد مشقة فى التذكر.

ابتسم آنذاك، بعينه فقط.

- ماذا تقولين؟ حضرتك الوحيدة، من بين كل معارفى، التى تتمتعين بذهن متقد ونشط.

هذا هو دينو، ينجح دائماً فى تعزيتى. غير أننى لم أقل له إن واقعة الصيدلية ما هى إلا نقطة فى محيط، حيث إنه منذ فترة تتشابك وتتداخل خيوط الماضى والحاضر فى ذاكرتى، وذاكرات نُسييت؛ لأنها تعود إلى ستين عاماً مضت، أجدها حية يقظة فى ذاكرتى وكأنها حدثت هذا

الصباح أو صباح أمس، أود لو نظمت أفكارى فى عقلى كما أفعل مع  
جواربى ومناديلى الصغيرة.

لم أعد أركب الخيل منذ أعوام طوال وكذلك توقفت عن شرب  
الكونياك وعن التدخين، وإذا أنهكت نفسى كثيراً أثناء اليوم، يصبح الليل  
جحيماً والملاءات خانقة والأغطية ثقيلة تتحرك من مكانها أو تقع على  
الأرض، حتى الوسادة المصنوعة من الريش تتحول إلى شوال أُلِّبته مئات  
المرات حتى أجد جانباً بارداً يطفئ سخونة وجنتى.

لا يعرف الشباب ولا يدري نعمة ورفاهية أن تنام ليلتك نوماً هادئاً  
عميقاً.

-٨-

رؤى وإعلانات



ندرت رحلات تروت إلى فلورنسا بصورة كبيرة. أتكهن بما تفكر فيه نينا، إيريس وكارلينو هذا الذى لا يمكن التعامل معه والذى وصل إلى حد أن يقول لى:

- أنت لا تعلمين أى شىء عنه، وأحضرتة إلى منزلك. انتشرت أناس غريبة كثيرة هنا وهناك بعد الحرب ألا تقرئين الجرائد؟ مغامرون، مخادعون، ناس لم يرها أحد من قبل، وما كنا لنعرفها ونتردد عليها أبداً، وماذا لو كان جاسوساً؟

أجبتة أنه، مع كل الارتباك السياسى الذى تشهده حالياً والعالم كله يعج وينقلب رأساً على عقب كحالته الآن، قد يكون من الأفضل له أن يتفكر ويتساءل عن شىء آخر، بدلاً من التحرى عن طبائع أصدقائى. ومع ذلك، على أن أعترف أن تروت أحياناً ما يكون شديد التباعد.

لا أفصح عن هذا لأى شخص.

كما لو كان غامضاً ليس له شخصية. رخواً تقريباً. كواحد يترك نفسه للأحداث تحمله وتحركه، بدلاً من أن يقودها هو. ففي كل مرة أكون فيها على وشك أن أقول له إننى أنتظر طفلاً منه، تراودنى مخاوف لا حصر لها. كيف يكون رد فعله؟ هل سيتقبل الخبر بحنان وتفهم، شغوفاً بأن يجد حلاً مشرفاً لنا نحن الاثنان، فلا أنسى أننا لا نزال متزوجين، أم سيغضب ويثور؟ كيف سأخبر كل الناس من حولي؟ وكيف سأخبر أمي؟

تثير حيرتى لامبالاته وعدم اكترائه الهادئ الرصين. كما يقلقنى بالقدر نفسه سكوته المفاجئ، ربما يريد أن ينتزعى من بعض الأفكار فحسب، حتى لا يتسبب فى أى هم لى.

بالتأكيد هذا هو السبب الذى يجعلنا نتجاهل مواجهة بعض الموضوعات مثل طريقة سير أعماله. وهو يفضل أن يعمل فى المزرعة أو يمتطى الخيل، على أن يهتم بتمشيط توسكانا لحساب تلك الشخصية الأمريكية المهمة التى لا تزال تدفع له راتباً. أتساءل كم يلزم من وقت حتى يمل الأمريكى من بطاء تروت فى القيام بمهامه ويمنع عنه الامتياز الشهرى الذى يتيح له العيش بكرامة.

جاء عندنا هذا الصباح، المحامى ريكورسى، وهو شاب ماهر نو أنف مدبب كالنسر ويميل إلى محاكاة الطبقة الراقية، جاء عندنا بعد أن كان تروت قد زاره أمس. قال إن لديه صفقة من أجله. أتخيل أن يكون

هذا المحامى المغمور الفاشل يعرف سيدة عجوزاً يعتزم أن يجردها من اللوحات ومن تحفها الفضية الثمينة فى مقابل بعض النقد.

ظل كل من تروت وريكورسى داخل غرفة المكتبة لما يقارب نصف ساعة أو أكثر. وحينما هم ريكورسى بالانصراف، كانت تبدو عليه علامات الرضا كمن أنجز الصفقة. أما تروت على العكس فكان سيئ المزاج طوال اليوم. اقتربت منه وحاولت مداعبته وملاطفته. نهض واقفاً وذهب ليتمشى قليلاً فى الحديقة، بمفرده. لم أره تائراً إلى هذا الحد أبداً من قبل.

## ٢

عدت إلى المنزل مبكراً هذا الصباح من نزهتى مع الكلاب، وبمحاذاة درب حقل البندق وجدت ثعلباً ميتاً.

لم تكف الكلاب عن الدوران من حوله، غير عارفة ماذا تفعل به، هل تشتمه أم تبتعد عنه؟ فقد كانت، فى اعتقادى، تشعر بشيء ما مروع ومفزع.

يقولون إن الحيوانات أيضاً تخاف من الموت، حينما يتعلق الأمر بموت عنيف وغير طبيعى، ومن المرجح أن هذا الثعلب، وهو صغير ويبدو من مظهره أنه قوى، قد مات بسبب وجبة مسممة تسببت فى نزيف

داخلى حاد وآلام رهيبه، خلاصه القول أن الكلاب كانت تشتمّ فيه رائحة الرعب. لفترة طويلة تملأ رائحة الخوف الهواء والأرض وأوراق الأشجار الجافة، والمسك الذى يكسولحاء الأشجار.

كنت أعلم جيداً أنه، إن عاجلاً أو آجلاً، ستكون الغلبة لغريزة كلاب الصيد، وأنها كانت سوف تقترب من الثعلب، داسّة منخارها فى كل مكان ولعلها تلعق شيئاً ما خطراً فى تلك النواحي؛ حيث من الممكن أن يكون الثعلب المسكين قد وجد وجبته المسمومة. على أية حال، تأثر جمال الصباح بهذه الحادثة وكان من الأجدى العودة واستدعاء الكلاب وتركها تجرى بالقرب من البيت، فى الأمان.

لم أكد أرتدى المعطف الواقى والقفازات الصوفية حتى رن جرس التليفون، من الصعب أن يرن جرس التليفون فى وقت مبكر هكذا. تخيلت على الفور أن الأمر يتعلق بمكالمة خاصة.

من يدرى، قلت لى نفسى، من يدرى فأنا أنتظر ضيوفاً. وقمت بإرسال دعوات، ربما يكون هناك شخص لن يستطيع المجيء. وربما يكون هناك شخص سوف يأتى. قد يكون دكتور سكورى البشع، يتحدث ليخبرنى بخبر غير سار ("لقد مات فلان، أو فلان الفلانى").

أمسكت بسماعة التليفون ويدي القفاز، سمعت صوتاً خشناً، خفيضاً يقول:

- ألو.

- أهلاً، فرنشيسكو، كيف حالك؟

لم نلتق منذ عشرات السنوات، ويرغب فرنشيسكو فى زيارتى، على حد قوله بالضبط، إذ استخدم بالفعل لفظ "يرغب"، إلا أنه لن يبقى حتى حفل العشاء. هناك دوافع لا يمكن تأجيلها تدعوه لأن يعود سريعاً إلى تورينو، ولكن يمكنه أن يكون هنا غداً وقت تناول الشاي، هذا إن لم يكن قد فاجأنا بموعد مجيئه.

أسأله قائلة:

- غداً؟ ودون أن أنتظر إضافة منه أجيبه:

- حسناً، فى حوالى الخامسة.

أوافق لأنه فاجأنى.

بعد أن أضع سماعة التليفون، أسأل نفسى هل أنا أصبحت غبية إلى هذا الحد، أغضب جداً مع نفسى، وفى الحال أتصل بدينو ولاسانتا حتى يأتيا سريعاً، فهناك غرفة أخرى يجب تجهيزها، ولا بد من القيام بمشتريات لحفل الغد، ينبغى أن أقدم لفرنشيسكو ما يأكله حتى وإن كان شيئاً بسيطاً وغير معد مسبقاً بعناية، أتصل أيضاً بريكورسى، وأعلم جيداً أننى لن أنجح فى أن أجعله يترك الفراش؛ لأنه يعانى من

الأرق الشديد شأنه فى ذلك شأن القطط بل أسوأ، لا يصدق ريكورسى  
ما سمعه بأذنه وتسيطر عليه حالة من الإثارة المزعجة بحق:

– ماذا؟ زوجك؟ المقيم فى تورينو؟

أذهب لإخراج البياضات من الخوان لتحضير غرفة النوم، ومناشف  
الضيوف وغطاء آخر يوضع فى نهاية الفراش.

بعد حوالى نصف ساعة، تصل لاسانتا أخيراً وتساألنى فى ضجر:

– هل سدت المدفأة من جديد؟

أجيبها:

– لا، فهى تعمل بصورة جيدة جداً.

تساألنى فى ريبة:

– لماذا إذن تلتفتين بكل هذه الملابس؟

أفطن إلى أننى لا أزال بكامل ملابسى، المعطف والقفازات والقبعة  
الصوفية. أشرع فى الضحك، وتضحك لاسانتا هى أيضاً.

بالتأكيد إنها تفكر فى أننى أصبحت شاردة أو أن هذا الخبر قد  
أصابنى بالدوار، فهى خائفة من أن أفقد ذاكرتى فى يوم من الأيام،  
وأقرأ هذا الخوف فى عينيها.

أما أنا فأضحك من شدة التوتر والعصبية، فقد أدركت أنني أشعر بالفضول، بل ربما بالرعب من لقاء زوجي من جديد.

### ٣

أجلس على مائدة الطعام، سواء في فصل الصيف أو في فصل الشتاء، في تمام الثانية عشرة والنصف ظهراً.

إنها مسألة عادة، اكتسبتها منذ الطفولة، منذ أن كانت زوجة المارشال المصنوعة من البرونز، والتي أحتفظ بها حتى الآن على خزانة الأدراج، تدق دقات الساعات بصوت لا يكاد يُسمع لو لم تكن معتادين عليه ومتأهبين له. في تلك الساعة، كنا نقف أنا وأنريكو بالفعل منذ بضع دقائق بجوار باب صالة الطعام، في انتظار وصول أبي وأمي. أما السيدة وودروف، فكانت تختار دائماً هذه اللحظة كي تصلح لي الشريط الحريري الذي يحكم الضفيرة، فتعيد ربط العقدة والفيونكة أو تضبطها. بالطبع، كانت تراجع على نظافة أيدينا وأظافرنا.

كان أبي وأمي يجلسان على رأس المائدة، الواحد في مقابل الآخر، سعيدين، في رأيي، بالنظر إلى بعضهما بعضاً. كنا أنا وأخي نجلس جنباً إلى جنب، وأمامنا وجه السيدة وودروف المدبب، التي كانت توجه

إلينا، بين الحين والآخر، نظرات حادة، أعتقد أنها من دواعى المهنة، أكثر من كونها لضرورة معينة. كنا ننتظر فى صمت أن يبدأ والدانا الحديث ونستمع، كان يبدو لنا أنذاك أن الكثير مما يقولانه هى أمور خاصة بالفعل، مع أنها كانت تتعلق بمحادثات تافهة بشأن أمور منزلية، أو آراء واعتبارات اجتماعية عامة.

كان صوت أمى يشبه الغناء الذى تتعاقب فيه النبرات العالية والمنخفضة، مما يجعله محبباً جداً ومستساغاً للأذن. أحياناً، كان والدائ يتحدثان بالإنجليزية، كظرف منهما تجاه السيدة وودروف (وهى إيماءة لطيفة ولكن لا داعى لها، من وجهة نظرنا أنا وأنريكو؛ حيث إن السيدة وودروف صارت تفهم الإيطالية والفرنسية بشكل جيد جداً، على الرغم من أنها كانت تتظاهر بعكس ذلك، دون أن يدرى أحد لماذا).

فى أحيان نادرة كانت السيدة وودروف تعبر عن رأى ما، ودائماً ما كنا نشعر بأنها لا تعير ما نقوله أى اهتمام. كان أبى يعتبر هذا السلوك شكلاً من أشكال قلة الذوق وعدم اللياقة. أما أمى فكانت ترد بأن الأمر عكس ذلك تماماً؛ إذ هو إعلان رفيع الذوق عن طبيعة بريطانية مهذبة فائقة الاحترام تجاه حرية المبدأ لدرجة اعتبار حتى المشاركة الصامتة فى محادثة ما تدخلاً غير مقبول.

كانت صالة الطعام تلك هى أقل الحجرات التى تعجبني؛ إذ كانت مظلمة، وينبغى إضاءة لمبتين متماتلتين طوال الوقت، لمبتين عاليتين،

مزدانتين بورود وزهور تيوليب متضافرة من السيراميك كنت أراها بشعة (لكن أمى كانت تقول، وكأنها تبرر نفسها: - "آه، نعم، إنهما تعودان إلى مطلع القرن العشرين").

كنت أحسد ابنة عمى ليتيتسيا، "الطفلة المتمردة"، كما تسميها أمى، إذ كانت تسحرني البساطة الحديثة التي تتميز بها شقتها الكائنة فى شارع كورسو فيتوريو إيمانويلي، والنوافذ التي تنبعث منها الشمس والضوء، وذلك البساط الناعم تحت مائدة الطعام التي لم تكن مغطاة بأى مفرش.

أما فى بيتى، فعلى العكس، كانت المقاعد غير مريحة، صلبة ومستقيمة الظهر، وهى عبارة عن مزيج من الخشب المطلى وقش وارد قبيحا يوخز الظهر، وكانت المائدة عالية جداً، والضوء المنبعث من اللمبات المزينة بالزهور لونه أصفر يثير الكآبة. علاوة على ذلك، كان ينبغى ترك الأنوار كلها مضاءة على الدوام؛ لأن أمى كانت قد ابتكرت ستارة من النباتات أمام قوس النافذة مما سد الفتحة التي يتسلل منها النور بما فى ذلك فصل الصيف أيضاً.

كانت السيدة وودروف تقول إن غرفة المائدة جميلة مساءً، حينما تُضاء الشموع. عندئذ كانت الستائر المخملية ونخيل الزينة، والشمعدانات المصنوعة من البرونز المذهب، كل هذا كان يعيد إنتاج أحد ميادين العصر الكلاسيكى الحديث التي تتميز بالعمدان والمسلات التي

تعود بالأذهان إلى مصر القديمة وتنعكس صورتها على بلاط زجاجى  
كالمرآة. هى إذن مجموعة من الصور والرسوم والتماثيل المتجانسة التى  
تحاكى ميدان كونكورډ (كان أبى يدمدم: "ذلك الميدان، فى رأى، ثقيل  
على النفس بفعل تلك المقصلة، وكان الأجر بكم أن تعتبروه مثيراً  
للشعريرة ومنفراً")، أكان يمكن ألا يثير كل هذا دهشة طفلة فى  
التاسعة أو العاشرة من عمرها؟

كانت الشموع، والصوانى الكريستالية الصغيرة ذات الطوابق  
المتعددة التى كانت أمى تملؤها بالحلوى وقطع الشيكولاتة الصغيرة  
بالحلوى وقطع المسكر وكذلك التماثيل البرونزية التى تقوم مقام  
الشمعدانات، كل هذا كان يُرى فى ذلك الميدان الاعتبارى المتخيل. كنت  
أتفق تماماً مع السيدة وودروف على أن هذا الميدان كان له سحر  
خاص.

أنا وأُنريكو غالباً ما كنا نتجسس على الاستعدادات التى تسبق أى  
حفلة عشاء، كنا ممنوعين من حضور هذه الحفلات، وعلى الأكثر كنا  
نأكل ما يفيض من الطعام فى اليوم التالى، حينما يكون السوفليه قد  
صار عبارة عن قطاع رفيع مطاطى أصفر اللون وقد ساحت القشطة  
المخفوقة كالثج، لكننا كنا مجرد أطفال، وكانت تلك الامتيازات تنتمى  
لعالم الكبار.

كنا قد استسلمنا واعتدنا على عدم المناقشة أو الجدل؛ لأن هذه هي القواعد. كان يُسمح لنا بالبقاء في غرفة الطعام مساء يوم ٢٤ ديسمبر فقط.

كانت قائمة الطعام عشية يوم عيد الميلاد تدعو للكآبة، فهي عبارة عن حساء الخضراوات الذي يطفو على سطحه قطعتان أو ثلاث من لحم الضأن غير الدسم وسمكة مسلوقة، توضع بأكملها على المائدة، بجلدها وذيلها والعين البيضاء التي كانت تثير رعبنا، ولكن أسوأ ما في الموضوع هو باقة البقدونس التي تبرزغ من فم السمكة، غير أن ضوء الشموع المذهب ورعشة الشعلات كانت تضيء جواً من البهجة على غرفة الطعام فتبدو مختلفة، وكنا نرى بريق الصواني متعددة الطوابق المليئة بالفاكهة والحبوب المسكرة المجففة التي كنا سنأكلها في اليوم التالي.

حتى ستائر المخمل الحمراء، الكئيبة صباحاً، كانت تصير مختلفة، مثل ستار مسرح وكشأن الستار كانت تُعد بعجائب لا يتخيلها أحد.

تحضر العمات وأبناء العمات ولما كانت الأمسية هي عشية عيد الميلاد، فقد كنا نأكل في التاسعة والنصف بدلاً من تمام الثامنة كالعادة. كان من الضروري، على حد قول أنزيكو، مد الأمسية وإطالتها؛ لأننا كنا نذهب كلنا بعد ذلك إلى قداس العيد، في منتصف الليل، بما في ذلك الأطفال.

إن تذكر تلك السنوات واستعادتها من حين لآخر يجدد شبابي؛ فتدريب الذاكرة يكافئنا ويفاجئنا على حين غرة، بذكري ما لم نكن حتى ندري أننا فقدناها، فيثير فينا ذلك رضا من نوع خاص. بينما في أحيان أخرى يكون هذا الرجوع بالذاكرة للوراء غير مطمئن بالمرّة، وليس مسلياً، يتهياً لى أننى تهت فى مغارة تحت الأرض مليئة بالمرات الضيقة شديدة الانحدار والخطورة وكهوف كالمتاهات لا أعرفها، وشقوق من الممكن أن أنزلق فيها. هذا يحدث لى الآن، عندما انظر للأمام وأدرك أنه لم يعد هناك وجود لطريق، حينئذ ألتفت للوراء وأجد أنه ليس من طريق أيضاً.



### رأيته من النافذة.

وصل فى تمام الساعة الخامسة عصرًا، لا يزال فيللافورستا يملك هذا الحس القديم الذى يتسم بالدقة السويسرية، أرى سيارة غامقة تتوقف عند قمة المطل، ويقفز منها شاب، يفتح شنطة السيارة الخلفية ويخرج منها حقيبة صغيرة، بينما ينزل ببطء من الباب الأخرى، سيد طويل القامة جداً ومستقيم، يرتدى معطفاً وأقياً داكن اللون وقبعة من البباد.

يتبادل الشاب والرجل العجوز بضع كلمات وبالكاد يلمس العجوز  
كتف الرجل الذي يركب السيارة محيياً إياه تحية سريعة خاطفة.

لا أستطيع أن أجزم، من هذه المسافة البعيدة، إن كان فيللافورستا  
قد جعل ابنه يصحبه حتى هنا، وأنه صرفه سريعاً حتى لا يضطر أن  
يشعر بالإحراج وهو يقدمه لي، أو أنه مجرد سائق قام فيللافورستا  
باستئجار سيارته من سيينا. قد يدفعني الفضول لأن أفتح النافذة  
وأدعوها للدخول إلى البيت هما الاثنان، لكن تحفظي المترفع نوعاً  
والذي لم ينفصل عني منذ صباي، وشيئاً من الكرامة وعزه النفس، التي  
ربما تفهم على نحو سيئ، كل هذا يمنني من أن أرفع صوتي منادية  
على إنسان لا أعرفه من النافذة. أرى فيللافورستا من وراء الستارة  
التي أختبئ خلفها، وهو يجتاز بخطوات بطيئة كل الفناء، وكذلك الكلاب  
التي تنبح عليه، ولكنه لا يتزعزع لأنه يحب الحيوانات وعلى دراية كاملة  
بطبائع الكلب، أسمع باب الدخول يُفلق بصوت دينو وهو يطلب من  
ضيقي التفضل بالجلوس في حجرة الاستقبال. وفيما يدور وقع أقدام  
دينو على درجات السلم، تونك، تونك، تونك، تماماً كوقع خطوات والده،  
أبتعد عن النافذة لأضع قليلاً من أحمر الشفاه، وأحمر الخدود على  
وجنتي. أعتقد أنه ينبغي أن أخجل من هذا التجميل الفاني التافه، ولكن  
جلدي أصبح الآن رمادي اللون، ذابلاً لدرجة كبيرة. يدق دينو بلطف على  
الباب وأنا شاكرة له لأنه لم يقل:

- زوجك ينتظرك فى حجرة الاستقبال.

وإنما قال ببساطة:

- إنهم فى انتظارك فى الدور السفلى.

أجيبه:

- وهو كذلك.

حسناً.

أخذ نفساً عميقاً، وأنتصب. فى ببطء أشرع فى هبوط درجات السلم بانتباه، واحدة تلو الأخرى.

## ٥

قدمت له شايًا وقطع البسكويت، ولكنه لم يكلف خاطره حتى النظر إليها. سمعنا صوتًا عند الباب ثم ظهرت لاسانتا وشعرها غير مرتب، كما لو كانت قد خرجت من المنزل وهى تركض.

- ميساء الخير. اسمح لى، لعل السيد الكونت يرغب فى قليل من

الشاي.

أقول لها:

- لا، لا يرغب فى شرب الشاي.

- كما يريد. الآن أذهب إلى المطبخ لأحضر شيئاً ما للعشاء.

تدلف لاسانتا إلى المطبخ، ثم تعود إلى حجرة الاستقبال بعد أن تحوم قليلاً هنا وهناك.

- كنت أفكر... معذرة لقطع حديثكما... لقد نسيت أن أقول لك، إننى أريد أن أستدعى قيرى.

- ومن يكون؟

- قيرى، ابن جيرفازو، الشاب الذى يصلح الغسالات.

يبادرها فيلافورستا قائلاً:

- الفتى.

- هو بالضبط. لابد أن يأتى لعمل صيانة. منذ يومين تتسرب المياه من الغسالة، قليل من المياه، ولكن إن ساءت الأمور أكثر...

أومئ بالإيجاب. تسحب لاسانتا دليل التليفونات من على الرف وتعود إلى المطبخ.

نسمعها وهى تتصل. انظر إلى الساعة وأتساءل بعد كم دقيقة ستعود. خمس دقائق. خمس بالضبط.

- ساعد شورية الـ ستراتشاتيللا وقطعتين من لحم السكالوب  
لهذا المساء... سوف يأتى الفتى يوم الأربعاء، حوالى الساعة  
العاشرة صباحاً.

تعود لاسانتا إلى المطبخ. ومن نافذة حجرة الصالون أرى دينو،  
وبيده المقص يقطع الوردة المتسلقة. أصلى فى قلبى ألا يفتن  
قيللافورستا إلى دينو، فمن ذا الذى يقطع الأغصان والورد فى شهر  
نوفمبر، بينما قد حل الظلام تقريباً؟

يرن جرس التليفون. إنه ريكورسى، يقول إنه فى حال أحسن وإنه  
يود أن يقوم بنزهة ولما كان الجو قد أصبح بارداً وبدأ الظلام يهبط  
بالفعل، فبدلاً من الذهاب إلى سيينا، يمكنه أن يمر على فى البيت ليتبادل  
أطراف الحديث معى.

إن قدوم قيللافورستا يخلق نوعاً من الحراك على نطاق واسع. فأى  
عذر يصلح فى سبيل إمكانية رمقه بنظرة.

تظهر لاسانتا من جديد فى حجرة الصالون كى تخبرنى بأن دينو  
نسى أن يشتري لها البيض؛ لذا فهى لن تتمكن من إعداد شورية الـ  
ستراتشاتيللا.

- لا يهم، أى حساء يمكن أن يفى بالغرض جيداً جداً، أليس كذلك؟

أوجه كلامى لـ فرنشيسكو الذى يبتسم ويقول:

-- بل على العكس، هذا أفضل.

تومئ لاسانتا وتعود إلى المطبخ.

تُرى هل ستبقى فى المطبخ لمدة طويلة؟

انتبه فيلافورستا إلى أن دينو وهو مشغول بقطع الورد خارج

المنزل وقد رآه من النافذة.

يبتسم ويقول:

-- تأخر الجنائنى الذى يعمل عندك فى قطع النباتات هذا الخريف.

-- إنه ليس الجنائنى، إنه دينو. يقوم بعمل كل شىء، وإن لم يكن

موجوداً هنا، لصار الوضع كارثياً. إنه بمثابة يدي اليمنى، بل

يديّ الاثنتين.

-- نعم، أتخيل، هذا المكان جميل بحق.

-- نعم.

إنه مجرد تبادل عبارات تأفهة ومعتادة.

من الصعب تجاذب أطراف الحديث، بعد فترة زمنية طويلة. من

الصعب عدم الكذب، من الصعب أن نقول إننا فى أروع حال، بينما آخر

مرة تقابلنا فيها كنا شباباً وعلى قدر من الجمال، من الصعب تحديد طبيعة توجه الحديث. رسمى بما يتناسب مع الوضع؟ أم حميمى، يتسم بالعاطفة وبالفاهم التقريبي المشترك؟ هل ينبغي أن تُحفظ فيه المسافات؟ أم يكون حديثاً يميل للحزن والشجن واسترجاع الذكريات؟

لا تتمكن من أن نحسم أمرنا، نحن الاثنان.

نبقى فى صمتنا نتدارس أمرنا.

لماذا لم تعد لاسانتا تدخل حجرة الاستقبال، بحق الجحيم، ما هذا التحفظ والحذر المفاجئ؟

ولماذا تأخر هكذا ريكورسى فى الوصول؟

لقد تقدم فرنشيسكو فى السن كثيراً وظهرت عليه علامات الشيخوخة. يرتدى سترة قديمة أكبر من مقاسه. يُفهم من أول نظرة طبيعة المرض الذى أصابه. يبدو عليه الإعياء. أسأله إن كان يرغب فى أن يستريح قليلاً قبل العشاء. أمامنا متسع من الوقت للحديث فى وقت لاحق، ربما غداً، حينما يزول انفعال هذا اللقاء.

- أشكرك. لا بأس هكذا، كم الساعة الآن؟

- الساعة تقريباً الخامسة والنصف.

- لقد اصطحبنى ابنى إلى هنا.

- آه.

- كان ذاهباً إلى فلورنسا من أجل العمل، لم يقطع مسافة كبيرة حتى يرافقتني إلى هنا.

- لا، على الأكثر ثلاثة أرباع الساعة. ربما يكون قد وصل بالفعل الآن إلى فلورنسا. هل هو من الشباب الذين يقودون بسرعة؟  
- إلى حد ما، لكنه حريص وحذر.

- حسناً.

- وأنتِ؟

- أنا، ماذا؟

- أنتِ لم ترزقي بأولاد، أليس كذلك؟  
- نعم.

- لم يكن لكِ حظ في الإنجاب، أم...

فيللافورستا هو الوحيد الذي يستطيع أن يطرح أسئلة طائشة غير  
حكيمه من هذا النوع. تدهور به الحال كثيراً، غير أن طبعه أبداً لم  
يتغير.

أقول له:

- كل واحد منا يسأل سؤالاً.

يبتسم.

- ابنتك متزوج؟

- نعم، ولدى أيضاً حفيدة. اسمها كاترين. لديها ثمانى سنوات وهى فى غاية الذكاء وتحب الحيوانات لدرجة الجنون، لدرجة أنها تريد أن تعمل طبيبة بيطرية عندما تكبر. تحب الكلاب بصفة خاصة. أريد أن أهديها هذا العام بمناسبة عيد الميلاد كلب لبرادور، لقد وعدتها بذلك. أمها تعترض ولكنها سوف تتعود على وجود الكلب.

يقطع حديثنا صوت عربة تقف أمام البوابة. يدخل ريكورسى مبتسماً. يظل واقفاً ينظر إلى فيلافورستا، ويتفحصه، وألمح فى عيني فرنشيسكو بريقاً من الاهتمام. يتحرق المحامى رغبة فى طرح بعض الأسئلة عليه، غير أن فرنشيسكو بطبعه سريع البديهة ولا ينوى على الإطلاق أن يجعل أحداً يدفعه إلى محادثة شخصية، معلقاً أنه قد حل بالفعل فصل الخريف فى إقليم بيمونتي، ونحن هنا متأخرون عنهم بحوالى شهر، فعلى سبيل المثال، هنا تقطع الورد فى هذا التوقيت، يقول هذا وعلى فمه ابتسامة صغيرة مشيراً إلى دينو، هناك فى الخارج،

وليس مثل الشمال إذ يحدث هذا بين نهاية سبتمبر ومنتصف أكتوبر؛ لذا، فهو يريد أن يعرف متى يكون حصاد العنب هنا؛ لأنه في مونفيراتو...

يلوى ريكورسى شفتيه لأسفل معبراً عن خيبة أمله؛ إذ اتخذ الحوار منعطفاً تافهاً خالياً تماماً من أى اهتمام، فلا يهمه أى شىء سواء قطب الورد أو حصاد العنب فى شهر سبتمبر أو أكتوبر، فهذا السيد البيمونتيزى لن يسمح بأن ينال منه أحد ولو بقدر قليل، كان الأجدر تأجيل مقابلته للغد، فلا داعى للاستعجال.

لا ينصرف ريكورسى سوى فى السادسة والنصف، يُقبل يدي وهو يحيينى بطريقة احتفالية أكثر من المعتاد، لدرجة أننى أكاد أتوقع أن يدق كعب حذائه على الأرض مثل العسكرى وهو لا يُخفى إحباطه وخبية أمله. مسكين ريكورسى، إنه لا يزال منتصباً كالعمود أمامى وأمام فرنشيسكو، لا يعتزم الرحيل بل يوجه إلى نظرات تنم عن قلقه.

عينا فيلافورستا تلمعان بوميض من السخرية كنت قد نسيته. يرتجف ريكورسى أكثر من المعتاد، ربما بسبب خجله.

فجأة ينتابنى إحساس أن فيلافورستا وريكورسى يعرفان بعضهما بالفعل، وأدرك أنه إحساس غريب جداً لا يصدقه عقل. من الواضح جداً أن زيارة فرنشيسكو قد قلبت كيانى أنا أيضاً.

أعلم أن المحامى يتمنى فى قرارة نفسه أن أدعوه على العشاء، لكن من الأفضل أن ينسى الأمر، ليس هذا ممكناً هذا المساء.

أشاهده وهو يتعد وأنا على يقين من أننى، بينما أنا أضحك، يدور بفكر المحامى أن قبلا فورستا هذا شخصية لا يُستهان بها، يمكر ويكيد، والجميع هنا يحاولون أن يتخيلوه منذ نصف قرن وأن يعرفوا أى نوع من الناس هو، أما هو فماذا يفعل؟ يقضى العصر يتحدث عن الوقت وعن البرد وعن الأيام التى تزداد قصراً بشكل سريع، وكلها أشياء يعلمها جيداً الطفل الصغير.

## ٦

يسأل ضيوفى عن تروت. أبحث عنه أنا أيضاً، ولا أجده لا فى الجراج، حيث يُغلق على نفسه فى أغلب الأحيان ويقوم ببعض الأعمال المنزلية باستخدام أدوات ما، ولا فى المخزن، ولا حتى فى القبو. بالصدفة، فقط لأننى قررت أن أذهب كى أناقش قائمة طعام هذا المساء، أجده فى المطبخ، يتأمل ما تقوم به نوقيللا مشاركاً فى صمت.

تمتلك نوقيللا أصابع صغيرة ماهرة، مثل مخالب الكابوريا البحرية، رفيعة وسريعة، تلف بها شريطاً من العجين وتقطعه مربعات يبلغ حجمها سنتيمترات قليلة. فى قلب المريع تضع خليطاً من أعشاب الحقل ونبات

البيتا الجبلية وجبنة ريكوتو، بحجم عين الجمل وبحركة من أصابعها تحكم إغلاق المربع وتغمسه فى الدقيق وتضعه جانباً. يراقب تروت فى ذهول وهو مفتون مثل الأطفال أمام حيل الحواة. تمتلك نوقيللا يدين موهوبتين فى عمل المعرونة، كما يقول ماريو، يدين فاترتين درجة حرارتهما ثابتة لا تتغير، مما يضىف نعومة على العجين ويجعله مرناً كالحرير. يسخر منها تروت، الذى نجح فى جعلها تحبه، ويطلب منها أن يرى يدها السحرية هذه، أما هى ففى سعادة تمد راحة يدها الطرية، الوردية والمتسخة بالدقيق المبعثر هنا وهناك. ينحنى تروت ويقبل يدها بوقار كما فى مسرح الأوبرا. لا تغضب نوقيللا من هذا، بل على العكس، تضحك ضحكة رنانة وتترجع مهددة إياه بإصبع السبابة:

- إن لم تعقل، فسوف أعد لك حساء القط، احذر، أنا جادة وسأعده لك بالفعل.

تروت أيضاً يضحك، ولا يتوقفان عن الضحك أبداً؛ لأن تعبيرات وجهها تُضحكه وبالعكس.

## ٧

تناولنا أنا وقيلا فورستا عشاعنا فى الثامنة مساءً. معرونة صغيرة مطهوة فى الماء، سيئة للغاية، وقطع سكالوب من لحم الديك. علق فرنشيسكو على أنواع الطعام قائلاً دونما سخرية أو مزاح:

– طعام مستشفيات، شكراً على تقديركم لى.

تحدثنا عن أمور كثيرة حديثاً طيباً. حديثاً طيباً بما يدعو للريبة والشك. خلت كلمات فرنسيسكو تماماً من أى حنق أو حدة، بل إنه كان يستخدم من حين لآخر تعبيرات تتم عن مودة ومحبة. أحكى له عن كيفية إدارة الأرض الزراعية (الأبعدية)، وعن الصعوبات المستمرة، وعن مقدار الخبرة والشغف والحظ المطلوب لإنتاج نبيذ طيب. يصغى فيللافورستا باهتمام، ويطرح أسئلة، ويبادر بالنصح. يحكى لى هو عن مرضه ببساطة، ويقول إنه يحزنه أنه لم يعد يقدر أن يحتسى ولو كوباً واحداً من النبيذ، ثم تنتقل إلى الحديث عن أمور أخرى، عن الأصدقاء المشتركين بيننا، وعن موضوعات الساعة.

أسأله ثانية عن ابنه.

يتملكنى الفضول لمعرفة المزيد عنه، وعن إيمونى.

يُخرج فيللافورستا من جيبه صورة قديمة بالية، أراه فيها وهو يسند يده على كتف صبى أشقر طويل القامة وإلى جانبه توجد امرأة ما.

أسأله:

– هل هى يولى؟

- نعم، يوم تخرِّج إيمونى.

فى الصورة، لا يظهر على يولى أى مظهر من مظاهر جمال الغانية كما كنت أتخيل. فهى امرأة فى منتصف العمر، ضخمة بعض الشيء تبتسم فى رضا وسعادة. ألمح ميداناً خلفهما به أبنية حديثة لكننى لا أعرفه. يا إلهى، كم أنا سعيدة لعدم كونى أنا السيدة الموجودة بتلك الصورة. كم أنا سعيدة لأننى غيرت طريق حياتى.

أصوب نظرى إلى عينى فيللافورستا وأقول:

- بعد الحرب، عشت هنا مع رجل لبضعة شهور.

أتوقع أن يقول شيئاً ما، ولكنه يظل صامتاً. أرانى مضطرة أن أستطرد كى يعرف أنه لى أنا أيضاً ذكريات، حتى وإن كنت لا أحمل معى صورة تدل على ذلك.

- ثم... انتهت القصة.

- وماذا بعد ذلك؟

دائماً ما يطرح فيللافورستا أسئلة أجد أنه من المحرج الرد عليها. أصب لنفسى كوب نبيذ آخر، حتى أملاً لحظة الصمت.

ها هو فيللافورستا يبتسم لى ابتسامة ماكرة ويسألنى من جديد:

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ماذا؟

- أخبريني كم رجلٍ عرفتِ من بعده.

- لماذا تسألني عن هذا؟

- ولماذا لا تجيبين على سؤالِي؟

- لماذا علىَّ أن أجيب؟

- ولم لا؟

هذا صحيح. لماذا لا أجيب على سؤاله؟

لكم أن تتصوروا.

الحقيقة أبسط من البساطة.

- لا أحد. فبعد تروت لم يكن هناك وجود لشخص آخر.

هل من المعقول أن يشحب وجه فيللافورستا؟ ومع ذلك، هكذا بدا

لى.

الآن نشعر نحن الاثنان بالحرَج. اضمحل سحر الأمسية. ندرك

كلانا أنه حان الوقت كى نذهب للنوم، قبل أن تأخذ المحادثة منعطفًا

أكثر حميمية.

أصطحب فيللافورستا إلى غرفته. أعدت له لاسانتا الفراش، وأغلقت مصراع النافذة وأسدت الستائر ومألت الترمس على الكومودينو بالمياه الباردة.

- أريد أن أسألك أنا سؤالاً يا فرنشيسكو.

- كلى أذان صاغية.

- أستجيبني بأمانة؟

- نعم.

- أعطني كلمة شرف منك.

- لك ما تريدين.

- هل أنا دمرت حياتك بحق؟

- أيوجد شيء يمكنه بحق أن يدمر حياة شخص ما؟

- لا تتلاعب بالألفاظ. أجبني.

يتردد فرنشيسكو وبالكاد يهز رأسه.

- لقد نجحت! فهذا المكان غاية في الجمال. أرض زراعية أضعها

شخص ما في اللعب، كانت هي طوق النجاة بالنسبة لك، وقد

تكون نائبة من نواب الدهر لشخص آخر.

- هل أحببتني فعلاً كل هذا الحب؟

- لقد كنت سعيدة هنا، أليس كذلك؟

- كنت وحيدة.

- يؤسفني هذا.

يستند فرنشيسكو على قائمة الباب.

- أشعر ببعض التعب والإعياء. بالتأكيد بفعل رحلة السفر. إن

أذنت لي، أود أن أستريح.

- طابت ليلتك. أراك غداً.

- نعم، إلى الغد.

## ٨

إيطاليا جمهورية.

انتهى فرز الأصوات.

أذاع المذيع الخبر.

يرن جرس التليفون، إنها أمي التي لا تقوى على التحدث من شدة

انفعالها. إنها ثائرة جداً. أتركها تنفس عما بداخلها، أحس بتنهاتها

وأكد أتصور أنها ترغب فى البكاء، فمع تقدمها فى السن زادت لديها لحظات الضعف هذه، ثم تتمالك نفسها وأستمع إلى وابل من الكلمات الغاضبة من عينة: خونة، ثوريين، محتالين، متلونين ومرائين، ثم تختتم حديثها قائلة:

"كان شيئاً متوقعاً".

ثم تنتهى المكالمة. أتخيل أنها وضعت السماعة كى تبدأ فى الاتصال بصديقاتها متبعة النهج نفسه فى الحديث.

يبدو الهدوء على ضيوفى نينا وأودونى والآخرين، لست أعلم إن كانوا قد استسلموا للأمر الواقع أم أصابتهم الحيرة. كما لو كانت كل المناقشات التى دارت بيننا فى الأيام الماضية تعود إلى أزمنة أخرى، سحيقة.

لقد طوى التاريخ الصفحة، وغدا عالماً، الذى خبرناه وعرفناه، ينتمى إلى الماضى. أتساءل، هل هذا معناه أننا نحن أيضاً أصبحنا ننتمى إلى الماضى؟ إنه لإحساس غريب، بمثابة شق وانفصال لا يتسبب لا فى ألم ولا فى شعور حقيقى بالحنين. إن المشهد يتغير، وسوف تنشأ عادات جديدة ومراسم جديدة. تحضرنى تلك الحيلة التى رأيتها ذات مساء فى أحد المسارح؛ إذ كانت هناك منضدة مجهزة بالأطباق والأكواب، يقترب منها الحاوى ويمسك بيده طرف المفرش و، بحركة

مباغثة، يسحبه من على المنضدة، شىء لا يصدقه عقل، لم يعد المفرش على المنضدة وإنما يمسك به الحاوى بكل فخر، وكأئه علم، بينما بقيت على المنضدة كل الأطباق والأكواب سليمة كما هى، دون حتى أن تتحرك ولو للميمتر واحد. هكذا حالنا، ونحن جالسون تحت التعريشة، نستمتع بشمس شهر يونيو وفى الخلفية صوت طنين نحلة، وعلى وجوهنا ابتسامة، تدل على استرخائنا وحسن أخلاقنا.

ينقصنا وجود تروت فقط.

أطلب من أودونى أن يذهب لبحث عنه؛ فغالباً ما يختفى تروت عن الأنظار فى هذه الأيام.

لا أدرى متى فطنت إلى ذلك، فى البداية، كانت هى الأحلام التى نبهتني. إذ كنت أستيقظ ليلاً غارقة فى بحر من العرق، وأنا فى حالة من الرعب والفرع، كان ينتابني إحساس بأننى أرتعش، لكننى كنت أتوهم فحسب.

كان تروت ينام نوماً ثقيلاً ولم يكن يستيقظ أبداً على الرغم من الكوابيس التى كنت أحلم بها. كنت أحسب أننى صحت، أو بكيت بصوت عال.

فى الصباح، كنت أحاول أن أنسى تلك الأحلام ساعية إلى لمسة حنان أو عطف من تروت.

وحيثما أهدأ، كنت أعضب من نفسى، فلا ينبغي أن أترك نفسى هكذا، فأنا أظهر طبعاً رومانسياً ما كنت أعرف أنه بداخلى.

كانت أمى تقول على الدوام:

- الحساسية المفرطة تدمر الأعصاب، فأنتِ تفكرين أكثر من اللازم، وتتخيلين أكثر من اللازم.

كنت أيضاً أقول لنفسى إن علاقتى بـ تروت لا تزال فى مهدها. وهى بالفعل حديثة العهد لدرجة أننى فى كل يوم كنت أكتشف ملامح لم أكن أعرفها؛ على سبيل المثال، حياءه من أن يحدثنى عن نفسه.

كان يقول لى:

- أنا بطبعى أهرب من هذه المواقف، يا حبيبتى، حاولى أن تفهمى.

أو كان يقول لى:

- لا شىء يهم فى ماضى، صدقينى.

كنت أدرك جيداً أن هناك بعض جوانب من طباع تروت تجرحنى والبعض الآخر يثير غضبى.

فهل كانت البرودة التى تبرز على السطح فجأة، على سبيل المثال، هى خصلة من خصاله أم هى رد فعل طبيعى للظروف المعاكسة التى

أدت به إلى ضياع ماله وإنهاء كل علاقة له مع أسرته؟ هل هو سلوك  
يخصني به أنا فقط دون سواي؟ أم هي علامة أكيدة على طبع مبهم، غير  
حاسم، ودليل على ما تعانيه نفسه من اضطرابات؟

أحياناً أفكر أنه كان يتحتم على أن أفهم قبل ذلك بوقت طويل، قبل  
نشوب الحرب، وقبل أن ألقاه ثانية في بانسيون ننيني، حينما، لم يكف  
معطفي لحمايتي من البرد الرطب الذي كان أتياً من النهر ونحن نتنزّه  
على نهر البو. ألم أتعرّف عليه في بيت أحد الدبلوماسيين الألمان؟ ألم  
يكن يسافر ويرتحل عبر كل أنحاء أوروبا، وله علاقات في كل العواصم؟

في عصر اليوم نفسه الذي صرنا فيه متحابين، كان تروت قد  
وعدني بأن يكتب لي ويراسلني. وعلى العكس، لم يرسل لي أي شيء، ولا  
حتى بضع كلمات تحية.

كنت أقول لنفسي إن لديه زوجة وابنة وأعمال مهمة بالتأكيد. وأنا  
أيضاً لا أزال امرأة متزوجة، على الرغم من أنني أعيش بمفردي.

من الضروري التحلي ببعض التحفظ، «فالتعبير الواضح الجلي  
أكثر من اللازم عن أحاسيس الحب ليس من طبعنا»، هذا ما كانت  
ستقوله جدتي.

ومع ذلك، فعند رحيله، وعدني تروت بشيء ما.

وبين المتحابين لا سبيل لعدم احترام الوعود.

ولا حتى إن فصلت بينهما الحروب. أليس كذلك؟

سوف أتصل بك. سوف أكتب لك. لقد احتفظت برقم تليفونك فى

حافضة النقود والأوراق. انظرى. إنه هنا. أترينه؟

يُفقد ذلك الحدس الفورى، ويضيع بين الوقائع والأحداث الأخرى،

أنساه، هل أختار بإرادتى أن أنساه؟، وبعد ذلك بأعوام كثيرة، ما كنت

قد أدركته حينئذ بشكل مشوش وغير أكيد يتخذ الآن شكلاً حاسماً لا

رجعة فيه.

هل كان يسرق أوراقاً ومستندات ويختلسها؟ هل كان ينقل أخباراً؟

هل كان يأخذ أموالاً من الألمان أم من الروس أم من الأمريكان أم من

الإنجليز؟ هل كان منحازاً للجانب الصحيح أم للجانب الآخر المعادى؟

هل كان يقوم بهذا بدافع الشغف أم بدافع الملل أم على سبيل التسلية؟

من الغريب أن يحدث هذا لى أنا، وبالفعل يتهبأ لى أننى أسمع

ابتسامة جدتى المتكلفة، وأكاد أتخيلها وهى تقول لى إن هذه هى النتيجة

التي وصلت إليها لأننى طاوعت طبعى القلق وغير الواثق بشكل مخيف

وخضت فى كل هذه الحماقات بعد أن فقدت تماماً كل قدرتى على

التفكير المتعقل.

نتناول أنا وفرنثيسكو طعام الإفطار هذا الصباح فى صالون  
البرج الصغير، وهو عبارة عن حجرة مربعة، حوائطها مبطنه بالكاتب،  
الموضوعة فى غير نظام، والمتكومة إلى جانب علب من القصدير أو  
الصفيح ومجلات، وخصوصاً مجلة "حديقة الزهور" التى أملك كل  
أعدادها.

فرشت لاسانتا على عربة الشاي المصنوعة من خشب الكرز مفرشاً  
صغيراً باهت اللون، قصيراً جداً من الجوانب، يتدلى بشكل بائس فى  
الفراغ.

وضعت على العربة الشاي وشرائح رقيقة من الخبز المحمص  
المقرمش، ومربى توت، أعددتها أنا كل سنة فى شهر سبتمبر، وإبريق قهوة  
باللبن لفرنثيسكو. الزبدة لها مذاق زنج بعض الشيء.

لا أتذمر، يبتسم فيلافورستا بينما يجلس على المائدة؛ لأننى لم  
أنس ماذا يتناول فى فطوره.

أود أن أشرح له أنه ليس اهتماماً من جانبى أخصه به هو فقط؛  
فأنا لم أركز كى أتذكر ماذا كان يتناول فى وجبة الإفطار أكثر من  
نصف قرن مضى، كل ما فى الأمر أنتى غالباً ما أنسى ما فعلته وما  
قلته قبل أسبوع، بينما أتذكر على نحو رائع كل ما يتعلق بالماضى

السحيق. أما فرنشيسكو فيرمقنى بنظرة ودودة عطوفة فوجئت بها وللأمانة أشعرتنى بالحرّج. أقترح عليه أن يرافقنى حتى أعلى هضبة مونتيتى؛ فهى نزهة غير متعبة بدرجة كبيرة ومن أعلى يُرى منزلى جيداً والمنظر الخيالى الذى يحيط به.

يوافق فرنشيسكو ويقول:

- بهذه الطريقة أفهم.

يقول هذا بنبرة جادة ممزوجة بشبه ابتسامة تكاد تظهر على شفّتيه، فلا أفهم إن كان يسخر منى أم يتكلم عن جد.

- نعم، بهذه الطريقة أفهم روعة جمال هذا المكان، وكيف كنت محظوظة فى امتلاكه. إن "كيانتى" هى بالفعل أرض مباركة قادرة على منح السلام لقلبك.

يأتى دينو ليقلنا بسيارته. فكرت أنه من الأصح أن نقطع على الأقل جانباً من الطريق بالسيارة؛ إذ يبدو أن فرنشيسكو يعانى من رجليه. لقد أصبح نحياً بحق، مثله مثل كل كبار السن. وأقول لنفسى: إذن، لست أنا الوحيدة التى تقدم بها العمر.

ونحن على قمة الهضبة بمفردنا؛ لأن دينو كان ينتظرنا فى أسفل الهضبة، بدأت أشرح لقيلافورستا أسماء المدن الصغيرة التى تصطف على جانب الطريق العمومى، ومن هم أصحاب الثيللات التى تقبع على

التلال وتمتاز بالمداخل الواسعة التى تزينها أشجار السرو، وأبين له حدود أرض "المحمية"، ومكان كرمى وحقل أشجار الزيتون والغابة الكثيفة الأشجار فى بعض الأماكن لدرجة يصعب معها الدخول، وأحكى له كيف يزداد عدد الأجانب، الإنجليز والأمريكان والألمان، والذين يقدرون ويحبون هذا الريف بصورة فائقة.

يعلق فرنشيسكو قائلاً:

- إنهم يجدون المقابل.

- نعم، هذا حقيقى، يجدون المقابل وهو ما يستمتعون به من أيام مضيئة دافئة وبالهواء العليل غير العاصف، والشتاء الذى، على الرغم من سقوط بعض الثلج أو الجليد خلال شهرى يناير وفبراير، لا يصبح أبداً ثقيلاً على النفس، أو لأنهم يجدون ما يعرضهم، وبكلمات بسيطة للغاية، لا ينقصهم طوال السنة الـ "تايمز" أو الـ "هيرالد تريبيو" أو الـ "فرانكفورت الجيمين" وغيرها من الجرائد التى يبيعها بائع الجرائد فى سان چوستو.

تجهز لنا لاسانتا غذاءً خفيفاً فى الثانية عشرة والنصف ظهراً، عبارة عن شرائح من الخبز بالزبد وشرائح من اللحم المشوى. نتحدث بلا تكلف عن أمور شتى، بروح طيبة، ونزوى حكايات ونوادير طريفة،

فالحديث الاجتماعي فن لم ننسه وهو يتيح لنا أن نظل في حدود العموميات.

من الواضح أننا لا نزال نشعر بالحاجة في أن يدافع كل منا عن نفسه حتى بعد مضي كل هذا الوقت.

فمن الخارج يبدو زواجنا مستقراً طويل العمر، مبنياً على الاحترام المتبادل.

ونحن - الاثنين - نعلم تماماً، ولا مجال لأن ننسى في يوم من الأيام ما سرى بيننا من كره وبغضة شديدة واحتقار لا يخمد. فنحن، في الظاهر، مسنان رق طبعهما بفعل السنين، ولكن إن فتش أهد في أعماق قلوبنا، لوجد نفس مقدار الاستياء والخوف الذي أحسته امرأة لم تتعد العشرين من عمرها وقد تزوجت لتوها من شاب في الخامسة والعشرين، يطلب منها وهو شارب أن تخلع قميصها، بينما ينظر نحو النافذة ويشعل سيجاراً في غرفة النوم.

والآن، يعلم كلاهما، الآن وهما مسنان، ماذا كانت حقيقة الأمر. تلك اللامبالاة لم تكن شيئاً البتة. لا شيء على الإطلاق.

فقط قليل من الخجل مع قليل من الخوف، وكبرياء لا حد له.

لا مبالاة مصطنعة نخفي وراءها الإحساس بالخوف.

الأمر فى منتهى البساطة.

الآن كلاهما يعلم أن مظاهر القسوة اللاذعة تلك كانت غير مقصودة تماماً مثل قسوة الأطفال البريئة.

الآن قد يكون بإمكانهما معالجة الأمور، ولكنهما يعرفان أنه لا وقت لديهما ولا رغبة لفعل ذلك. لقد أفسد كل منهما حياة الآخر، بإتقان يستحق الإعجاب. بالطبع لا تشفع تلك المعرفة لا فى التقريب بينهما ولا حتى فى عزائهما.

وهما عاجزان عن التخلص من الاستياء الذى يكمن فى أعماق النفس، وإن جردهما أحد ما من ذلك الإحساس أيضاً، لضاعا بحق.

١٠

ذهب قيلولافورستا كى يرتاح قليلاً بعد الغذاء. وبما أننى لم أراه يخرج من حجرته بعد ساعتين، أرسلت لاسانتا كى تطمئن عليه. لم أكن مخطئة فى إحساسى؛ إذ أن قيلولافورستا لم يكن على ما يرام أثناء العصر.

انتظرت قليلاً قبل أن أتصل بالطبيب، فربما الأمر لا يتعدى بعض الإنهاك أو التعب. ولكن، بعد مرور ساعتين، بدأ يزداد شحوباً وبدأ لى أنه يجد صعوبة فى التنفس.

اتصلت هاتفياً بالدكتور سكاورى فى السادسة إلا الربع مساءً.

- لماذا لم تتصلى بى قبل الآن؟

هكذا هى طريقة الدكتور سكاورى البشع، فهو يتكلم وكأنه ينبج. هذه هى طبيعته. غير أنه، فى هذه المرة، بدا لى قلقاً بحق حينما قام بالكشف عليه، أراد أن يفعل ذلك فى حضورى أنا أيضاً، ولم يبد لى أن فرنشيسكو فى حالة متدهورة إلى هذا الحد. لو لم تكن وجنتاه قد أصبحتا غائرتين نحو الداخل بشكل مفرط وغير طبيعى، لحسبت أنه فقد بعضاً من وزنه فقط لا غير.

لا يريد فرنشيسكو أن أتصل بابنه، يقول إن هذه الطفرة فى الضغط وهذه الأزمات المفاجئة صارت الآن عادية. أجلس بجانبه، أقرأ له الجريدة وأحياناً أسخر منه:

- من كان يقول إننى كنت سأجلس على رأس سريرك كى أؤنسك؟

أما هو فيقول:

- من يرانا من الخارج يعتقد أننا نقوم بإعلان عن مرور نصف

قرن على زواجنا.

كنت أريد أن أخبر فرنشيسكو بقرارى بشأن التنازل عن أية مزاعم

بخصوص أملاكه، وأن أترك جزءاً من الأرض الزراعية لإيمونى.

أنا على يقين من أن الخبر قد يرفع من روحه المعنوية، غير أن سكاورى قال إننى يجب أن أجعله يتجنب أى نوع من الانفعال؛ لأن قلب فرنسيسكو ضعيف لا يحتمل وجسده قد أنهكه المرض والعقاير.

- ماذا تقول يا دكتور، اشرح لى جيداً لو تفضلت.

- انظرى، أنا آسف ولكن الأمور لا تسير على خير ما يرام، لقد أعطيته مسكناً خفيفاً حتى يرتاح وينام قليلاً. لكن اتصلى بابنه حتى لا تتحملى المسئولية بمفردك. أسمعى نصيحتى، توقعى كل شىء، وأيضاً توقعى الأسوأ. فهو بالأحرى ضعيف.

- لا يريد فيلافورستا أن نستدعى ابنه.

- اتصلى أنتِ به. لقد قلت لك، لو كنت مكانك لاتصلت به.

يرحل سكاورى ولكنه سوف يعود هذا المساء فى حوالى العاشرة. تعد لى لاسانتا فنجاناً من الشاي وتذهب إلى الصيدلية؛ كى تبتاع الدواء الذى كتبه الطبيب فى الروشتة.

نعس فرنسيسكو، أشعر بوخزة عطف وحنان وأنا أرى كيف أنه قبل أن يأوى إلى الفراش مساء أمس، ثنى بنطاله جيداً وأتقن وضع السترة على ظهر المقعد. عندما كنا نعيش سوياً، كان يترك كل شىء فى غير مكانه وفى عدم نظام.

حقيبتها الجلدية موضوعة على المنضدة ولم تجد لاسانتا وقتاً لتفريغها.  
من الممكن أن أقوم أنا بذلك، وأعلق له البدلة فى الخوان، فإذا بقيت  
مثنية هكذا فسوف تصبح مليئة بالكسرات.

على ظهر الحقيبة، يوجد كتاب ومجلة عن الساعات وحافظة أوراق  
من الجلد الأحمر القانى. لا أزال أتذكر هذه الحافظة التى كنت قد  
اشتريتها من فلورنسا من محل بينيدر وذلك لإهدائها له فى أول عيد  
ميلاد لنا معاً. لطيف منه أنه احتفظ بها.

طلبت حينئذ من المحل أن يطبع الأرقام بالنار على حزام الحافظة  
وأعجيبته كثيراً وقتها.

أفتحها لمجرد الفضول.

بها أربع أو خمس صور فوتوغرافية لـ يولى وإيمونى، بها صورة  
لى، التُقطت فى باريس، وأنا أرتدى قبعة تشبه الجرس تصل إلى عينيّ  
ومعطفاً يصل إلى حد العُرُقوب. أخذ مجلة "ساعات للتجميع"، والكتاب  
وأضعهما فوق الكومودينو.

يهوى فيللافورستا جمع الساعات منذ أن كنا نعيش سوياً ومنذ  
ذلك الحين كان يقوم بمسح شامل لمحات الصياغ الصغيرة المغمورة  
المتواجدة فى المدن الصغيرة، ويأبى الأنتيكات (العاديات) وبيوت  
شقيقات الجدة بحثاً عن عينات من الساعات نادرة ولعلها أيضاً ثمينة.

ألقى نظرة أيضاً على الكتاب، وهو كتاب موجز يعود لبداية القرن، تجليده على نظام الفن الحديث ولا يزال بحال جيدة، عنوانه: "حيل ودهاء المولع بالتجميع"، إعداد شخص يدعى الجرنون مورى. موجز السيد مورى له خصائص أخرى كذلك؛ فهو يحتوى على مجموعة من الصور الكاريكاتيرية التى توضح بعض الحوادث المزعجة التى يمكن أن يقع فيها هاوى التجميع غير الحذر، وكذلك عرضاً يتسم بالدعابة عن الأخطاء العشرة الأكثر شيوعاً التى يمكن أن يرتكبها الطامح الذى يسعى لاصطياد كل ما هو نادر ولكنه ربما يكون غير ذى خبرة وحنكة.

لا أشعر بأى حرج وأنا أتصفح الكتيب، ولا يدور بخاطرى أننى مخطئة فى حق فيلافورستا أو أننى أتجاوز حدود خصوصياته. بل على العكس، يتهياً لى أننى أكتشف بعض جوانب من طبعه كنت أجهلها، أو لم أعد أتذكرها، وأننى أجد أن الولع المستمر بالساعات العتيقة هواية تثير الاهتمام مثل الميل لنوع معين من القراءة.

هناك أيضاً رسالة تُركت بين صفحات الكتاب، انزلقت من يدي وسقطت على الأرض. أنا أيضاً غالباً ما أستخدم بطاقات، وكروت معايدة وكل ما لا أريد عادة أن أتخلص منه فى سلة المهملات ولا حتى الاحتفاظ به، أستخدمه كعلامة للدلالة على الصفحات.

لا تراودنى الرغبة فى قراءة الرسالة ولو للحظة واحدة، ولكنها وقعت على الأرض وينبغى أن ألتقطها، حركة فى منتهى البساطة، أليس

كذلك؟ وبينما أنا ألتقطها لا سبيل أمامى كى أتجنب ملاحظة الختم الأسود على المظروف والمكتوب عليه بحروف كبيرة: فلورنسا - السكة الحديد (حركة بسيطة لا يمكن الرجوع فيها).

وأعلى المظروف مطبوع بشكل جلىّ الكتابة التالية:

مكتب حمامة فيسبوتشى ريكورسى، المحامى بيترو فيسبوتشى  
والمحامى جوزيبى ريكورسى.

فى الوقت الذى كانت فيه صناعة السينما لا تزال فناً صامتاً، كانت ستظهر ترجمة على الشريط تتلو الكلمات الآتية:

"هل هى سخرية القدر؟ أم هى صدفة تثير التهكم والضحك؟"

كان المرسل إليه هو زوجى.

أجلس حتى لا أقع أرضاً.

تلف بى الغرفة وتدور مثلما يحدث فى تعاقب الأشياء والأشخاص  
بشكل سريع.



-۹-

أحمر قرمزی



السيد الفاضل الكونت فيلافورستا  
لدى مكتب المحاماة باربيريس وكوارنتا.

١٦ شارع بلييني

تورينو

فلورنسا، في ٥ أبريل ١٩٤٦

حضرة سيادة الكونت الموقر،

استلمت اليوم خطابكم المؤرخ ٢٢ مارس وسأبدر بالرد على سيادتكم في أقرب وقت ممكن. بناء على اقتراحات سيادتكم، فقد رأيت أنه من الضروري أن أراجع وأفحص شخصياً كافة المعلومات الواردة إلى بشأن "ضيف" الكونتيسة الحالي في "المحمية".

وكما تعلم سيادتكم بالفعل، فتلك الأخبار، للأسف، ليست أخباراً مطمئنة. فالمعلومات التي أفادكم بها في الماضي السيد بوريكي، والذي

أعرب له مجدداً، من خلال سيادتك، عن تحياتى لوفرة التفاصيل التى تمكن من جمعها بكل حذر وتكتم ودقتها، هذه المعلومات قد ثبتت لدى بعد أن قمت بمضاهاتها بالمعلومات التى حصلت عليها. نحن بالطبع لسنا أمام فرد محل ثقة، وحضرتك تعلم هذا جيداً، بقدر ما نحن بصدد شخصية لا تتحلى بأية مبادئ راسخة بل هى تميل إلى الخداع والتحايل، الذى يستهدف فى الغالب السيدات، ويرمى دائماً وفى النهاية إلى التحصل على المال. ولما كان السيد المهذب محل التحقيق لا يمتلك المال، ومع هذا يظهر استحسانه الفائق لما يترتب على امتلاك المال من امتيازات ومميزات، ولا يمكن أن ألوم سيادتك إن كان هذا الفكر يتسبب فى شعورك بالقلق، أيها الكونت العزيز. هذا ويتعين على أن أؤكد لسيادتك أننى لا أعتبر سلوك هذا السيد المنتحل لشخصية أخرى هو نتاج المصلحة والجشع فحسب؛ بل إنه يتعين على أن أقر وأعترف أنه لأكثر من مرة بلغتنى أخبار، هذا بخلاف ملاحظاتى الشخصية، تفيد بمقدار الحب المتبادل بين الكونتيسة وضيئها الأجنبى، هذا الحب الذى وُصف بأنه قوى وثابت لا يتغير؛ فهو يحيطها بكل عناية ويقولون إن الابتسامة لا تبرح عينى الكونتيسة الجميلتين.

اغفر لى الصراحة والعشم الواضحين فى بعض تعليقاتى، ولكن الثقة التى تمنحنى إياها منذ بضع سنوات، قد شجعتنى على ذلك، كما يحدث فى أغلب الأحيان.

تندر الأخبار حول زواجه الأول، و، وفقاً لما لدينا من معلومات،  
الزواج الوحيد الذى عقده السيد الفرنسى الإيطالى والنمساوى (يا له  
من تشوش ولخبطة).

الأخبار التى وصلتني ليست مبشرة على الإطلاق، فبعد أن بذر  
أموال الزوجة، أرسلها من جديد إلى مدينة بوردو بفرنسا هى وابنته  
التي لا يتعدى عمرها بضع سنوات. لم أتمكن من معرفة المزيد من  
المعلومات.

وبناءً على طلب سيادتكم، فقد بادرت بتحديد موعد مع ضيف  
. قرينتكم. وأنا أوافق سيادتكم الرأى فى أن الضائقة المالية التى يعانى  
منها تعد فى صالحنا.

سوف أتحقق من الأمر وسأتحرى الدقة.

فى انتظار لقاءكم شخصياً، أرجو أن تتقبلوا أخلص تحياتى.

محاميك المخلص ريكورسي

لا أخطر المحامى،

بالتأكيد سوف أجدّه فى منزله، فهو لا يخرج أبداً بعد غروب الشمس، على عكس الخفاش راتا قولويرا؛ هذا هو اسم الخفاش وفقاً للهِجة إقليم بيمونتى.

أركن السيارة أمام البوابة وأرى ضوء التلفاز من بين مصراع حجرة الصالون، يلف الظلام المكان؛ إذ لا وجود للقمر بعد، وإن لم أنتبه لخطواتى قد أتعثر وأسقط.

أتساءل عن ماهية التعبير الذى ينبغى أن يكسو وجهى،

فأنا لست مكتئبة على الإطلاق، ولا حتى مضطربة أو ثائرة. لا أشعر بأى إحباط أو خيبة أمل. أحاول أن أحلل نوعية الإحساس الذى أشعر به.

تبلغ المسافة بين السيارة وباب بيت ريكورسى حوالى عشرين أو ثلاثين متراً على أقصى تقدير. تقريباً أربعون خطوة. إذن الفترة التى تستغرقها أربعون خطوة هى ما لدىّ من وقت حتى أقرر ما هو الإحساس الذى يختلج ويغلى بداخلى، الشىء الغريب والمضحك هو أنتى أجهل الإجابة؛ فأنا لست قادرة على فك رموز نفسى. أنا متوترة، هذا

حقيقى، غير أنتى بالنظر إلى داخلى، يا له من تعبير أحمق أن أقول  
"النظر إلى داخلى"، لا أرى أى شىء على الإطلاق. صفر مطلق.

كم كان الأمر بسيطاً. لم يتعد ربع الساعة. قمت برن الجرس،  
انتظرت إلى أن فُتح لى الباب، دخلت بيته ودون أن أخلع سترتى، سألته:

- ألا تريد أن تحكى لى شيئاً يا حضرة المحامى؟

فغر المحامى عينيه السوداوين، ودس يديه فى جيوب الـ روب نو  
شومبر، وبلل شفتيه قائلاً:

- حسناً.

كنت رابطة الجأش، هادئة وصامتة تماماً. راودنى ظن مبالغت  
ففكرت أنه، إذا بدأت أستجوب ريكورسى، قد يعود إلى طبيعته كمحامى  
ويجد ألف عذر وعذر كى يتحاشى الأسئلة أو يجيب عليها إجابات  
مراوغة.

علمتنى حياتى وحدى أن الصمت ثقيل ومزعج، وأنه يمثل للبعض  
شيئاً لا يحتمل، وريكورسى هو واحد من هؤلاء. بالفعل، بدت عليه فى  
الحال علامات معينة تنم عن ضيقه ومعاناته، فهو ينفخ ويصدر صوتاً  
بلسانه كالقرق. ثم يكرر مجدداً، ولكن هذه المرة اختلفت نغمة صوته  
كمن عقد عزمه بالفعل على أن يحكى كل شىء لأنه تلمس طريقه بما فيه

الكافية، دعوني أفسرها على هذا النحو، ولم يعد يدري كيف يحل هذه المشكلة.

- حسناً.

أستمر في صمتي.

وللمرة الثالثة يكرر:

- حسناً.

ثم يشرع أخيراً في رواية الأحداث. الانفعال والحرص أوقعا في ورطة، وبدلاً من ثرثرته المعتادة، يصدر عنه حديث غير مترابط، مفكك لا أول له ولا آخر. يحكى عن مؤتمر محلفين في فلورنسا؛ حيث تعرف على محامٍ شهير من تورينو، يقول عنه إنه أمير المنتدى، وقد قام بمراسلته في وقت لاحق وجعله على اتصال بزوجي. يتكلم عن مخاوف فيللافورستا، وعن وصولي إلى "المحمية" بمفردي وما كنت أبدو عليه من ضعف وضياع لدرجة أن الجميع، الجميع بالفعل كانوا يشعرون بالرغبة في حمايتي...

- اسمع يا ريكورسى. دعنا نتناول الموضوع بالترتيب. أود أن أفهم بصورة أفضل، ماذا طلب زوجي منك؟ ومتى، بالضبط؟ هل تتذكر التاريخ؟

يُصْطَبِحُ صَوْتِي بِنَبْرَةٍ أَنْفَعَالٍ لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أُتَحَكَمَ فِيهَا.  
يُتَحَدَّثُ رِيكُورْسِي بِيَطَاءٍ قَائِلًا:

- صندقيني، لست أعلم، ولا أتذكر الأمور بشكل واضح، ثم إنني متعب. دعيني أستريح، حضرتك تعاملينا بشدة وعنف ونحن نتركك على حريتك لأننا نكن لك كل محبة وود. لا أعرف إن كان زوجك قد أخطأ حيالك أم قدم لك خدمة من خلالي. أما بالنسبة لي، فقد كان الأمر يتعلق بمهمة مهنية مثلها مثل أى مهمة أخرى.

- لماذا؟ متى كان ذلك، فى أى فترة زمنية؟ قل لي لو سمحت كيف سارت الأمور. أرجوك.

- إن كنت بالفعل تحرصين على هذا، فسوف أمدك بأوراق ومستندات حفظتها عندي فى الأرشيف.

ويضحك هذا العجوز المجنون ضحكة عصبية تصيبني بالغثيان.  
ويستطرد قائلاً:

- أنا لا ألقى بأى شىء، مفهوم طبعاً، فأنا محامى.

- أعطنى هذه الأوراق الآن لو سمحت.

- الساعة الآن الثامنة مساءً.

- إن تكرمت، أعطنى تلك الأوراق.

بدت على ريكورسى إيماءة تتم عن عدم الموافقة ثم نفخ وقال:

- حسناً. كما تريدن. تفضلى بالجلوس، حتى أبحث لك عن هذه الأوراق. حضرتك عنيدة بالفعل كالبغل، اعذرنيى لاستخدامى هذا التشبيه. مثل البغل.

لا يتأخر كثيراً ويعود إلى حجرة الاستقبال حاملاً تحت كتفه حافظة ملفات من القماش الرمادى، معقودة بشريط رفيع. يبدو عليه الانزعاج والتكدر، لابد أنه تسلق كى يصل إلى الرفوف الأخيرة فى المكتبة، وقد ارتخى حزام "الروب دو شامبر" فأصبح يميل باعوجاج مما يسمح برؤية بيجاما من قماش القطن الناعم لونها أزرق سماوى.

- تفضلى. هنا تجدن كل شىء، الخطابات التحضيرية التى أرسلتها وأصول خطابات الكونت. يوجد أيضاً صورة من التقرير الذى أعده الشرطى السابق، لا أتذكر اسمه، الذى جنده زوجك.

- بوركى.

- نعم، هو بالتحديد. بوركى. هل أخبرك زوجك؟ كم هى قوية ذاكرتك.

- زوجى لم يخبرنى بأى شىء.

- كيف هذا؟

- لا/شيء إطلاقاً. ولا كلمة واحدة.

قال ريكورسى كلمة واحدة فقط:

- يا إلهى.

اتجه نحو الباب وأنا أشعر بريكورسى يرتعد خلف ظهرى، ربما يعتقد أنه خان سراً خطيراً، وأنه لم يتمسك بمبادئه ومبادئ المهنة، وأنه طعن أيضاً قيلولافورستا فى ظهره، فضلاً عن غدره بى قبل أربعين عاماً مضت.

أسمعه يصرخ من خلفى وأنا على مسافة بعيدة منه:

- لكن... كيف عرفت؟

٣

أخبر لاسانتا أنتنى لست جائعة وأنتنى سوف أوى إلى الفراش.

تقول لاسانتا وهى قلقة:

- تأوين إلى الفراش؟ والدكتور سكاورى الذى سيعود فى

العاشرة؟ ومن سيبقى مع سيدى الكونت؟

- استدعى دينو لو سمحت؛ فأنا بحاجة إليه.

ذهبت لاسانتا كى تتصل به وهى تهز رأسها، ينتابها القلق من أن  
أمرض أنا أيضاً فنتحول "المحمية" إلى محجر صحى،

بعد ذلك بقليل أسمع صوت دينو، يدق على باب غرفتى كى يسألنى  
عن حالتى، أقول له إننى بخير، بل فى أفضل حال، كل ما فى الأمر أننى  
مرهقة بعض الشيء.

أسمعه وهو يتصل بـ سكاورى ويبلغه بأخبار فيللافورستا ويجلس  
فى الصالون حتى لا يتركنى وحدى، عزيزى دينو.

فى ملف ريكورسى يوجد مكاتبات وخطابات عديدة، ما بين أصول  
وصور، أنغمس فى المقعد الوثير وأبدأ فى القراءة.

#### ٤

تورينو، فى ٩ مارس ١٩٣٩

السيد المحامى الفاضل،

لقد سمحت لنفسى، معتمداً على تأييدك وعلى خبرتك واختصاصك،  
أن أعطى اسمك لصديق عزيز ذائع الصيت هو الكونت فيللافورستا  
الذى كان يطلب رأى ومساعدتى بشأن مسألة حساسة سيكتب لك عنها.  
هو بنفسه.

ولما كنت، بعد لقائنا السريع الذى لا يُنسى بمدينة فلورنسا فى يونيو الماضى، قد أخذت انطباعاً عنك أنك لست فقط محامياً شاباً وواعداً، وإنما أيضاً شاباً معتاداً على الحركة والعمل والاختلاط بالناس وكذلك أيضاً ذا حكم صائب وجلى، لا تؤاخذنى على عدم تكلفى فى الحديث معك، فلك أن تعتبر أننى فى خلال خمسة عقود من مزاولتى المهنة قد تعلمت كيف أُقيّم من يحاورنى من أول نظرة.

سوف يكتب لك الكونت باسمى ومن الآن يمكننى أن أوكد لك مسبقاً أن ما سوف تقدمه له من خدمات سوف يدر عليك ربحاً كبيراً فى قضية عادلة ولكنها شائكة ينبغى تناولها بمنتهى الحيطه والتكتم. لقد أكدت لقيلافورستا أنه سيجد فى شخصك، أيها العزيز ريكورسى، كل ما يحتاجه من تكتم وحرص وأى دعم آخر يراه ضرورياً لحالته.

وأنا متيقن تماماً من أنك سوف تقدم العون الثمين والمشورة الحكيمة للصديق قيلافورستا .

وسوف أكون إلى جانبك فى أى وقت تحتاجنى فيه فى المستقبل.

المحامي جويدو باربييرس

تورينو، فى ١٥ مارس ١٩٣٩

لقد تفضل الصديق باربيرس وأعطانى اسم سيادتك ولا أتردد الآن فى أن أكتب لك بخصوص مسألة حساسة أوليها اهتماماً كبيراً .

أدخل على الفور فى صميم الموضوع، لقد عقدنا العزم أنا وزوجتى، بالاتفاق فيما بيننا أن نفصل بين طبائنا الهائجة، على الأقل بصفة مؤقتة. كان كلانا يرى أن علاقتنا الزوجية، بدلاً من أن تتميز بالاحترام والرعاية المتبادلة، تتأرجح بالأحرى فى اتجاه الغضب العام المستمر والمتبادل بيننا، والذي تحول إلى معاناة حقيقية بعد حوالى عشر سنوات من الحياة المشتركة.

أنا بطبيعتى متفائل وأعتبر أن المصاعب والعقبات التى اعترضت زواجى نشأت عن حداثة سن زوجتى حينما تزوجتها، وعن فيض طبعها الجياش وتربيتها التى لا تتناسب مع العصر الحاضر والتى تلقته من والد حنون عطوف ولكنه مستبد. كل هذا خلق من زوجتى امرأة، لا تزال حتى اليوم وهى على أعتاب الثلاثين من عمرها، تفتقر إلى العقل الراجح بدرجة تثير التعجب ولا حول لها ولا قوة، بل هى هوائية تماماً مثل جحش أصيل، تميل إلى التعتن والعناد وإلى الحماسة المندفعة والتصرفات غير المحسوبة. ربما تكون قد أدركت، يا سيادة المحامى الموقر، أننى أتحدث إليكم بصراحة شديدة كما لو كنت أتحدث مع

صديق لى، وأعتقد أنني أفعل الصواب؛ إذ إن اسمكم قد أشار به على  
بالتحديد صديق عزيز وحكيم من أقدم أصدقائى.

سوف أقول لك ما أريده من سيادتك. لقد قررت زوجتى أن تنتقل  
للعيش، بصفة مؤقتة على ما أرجو، فى أرض زراعية ملك لها على أبواب  
مدينة سيينا؛ حيث لا أستطيع ولا أربأ أن أذهب إلى هناك.

أعترف لك أنني كنت أفضل بما لا يُقاس ألا تبرح تورينو... لكننى  
أوفر عليك بعض التفاصيل التى يؤسفنى تكرارها بمقدار ما يؤسفتنى  
تذكرها.

يقولون لى إن كل زيجة تواجه أوقات عسر وأوقات يسر، ومنحنيات  
ومبررات تجعل منها زيجة وحيدة من نوعها لا تتكرر، على الرغم من أن  
لى رأياً مغايراً تماماً وأعترف بذلك بكل صراحة؛ لأننى أعتقد أن  
صروف الحياة تتشابه بكل تفاهة فيما بينها، وثقتى ويقىنى كبير فى  
"صوت الشعب" الذى يعزىنى ويرىحنى أخذاً شكل الأصدقاء والأهل  
والمستشارين، أريد أن أؤمن وأصدق فى أن قرينتى العنيدة الغربية  
الأطوار سوف تعود فى يوم من الأيام لتشغل المكانة التى خصصها لها  
الله وحبى لها.

انتظاراً لبلوغ حياة جديدة، فى المستقبل القريب نعيشها سوياً فى  
مزيد من السلام والمودة بالمقارنة بما جرى بيننا حتى الآن، فأنا لا أربأ

فى أن ترتكب زوجتى أية حماقات، ولا أن تقع فريسة سهلة للمغامرين  
عابرين ولا أن تفقد ذاتها وميراثها سعياً وراء أفكار كاذبة وأوهام.

قال لى المحامى باربيرس إنه يظن على ما يتذكر أنك على الرغم  
من ممارستك المهنة فى فلورنسا، لم تترك مسكنك فى ضواحي سيينا؛  
أى أنك لست ببعيد عن أرض "المحمية".

وبناء عليه، أطلب منك، من هذا الموقع الجغرافى المميز أن تلاحظ  
وتراقب زوجتى بكل احتراز وتكتم، وتكون عينك عليها تحرسها وترعاها  
كما يفعل الأخ الأكبر أو الوصى. أتصور أنه فى مجتمع محدود مثل  
مدينة سيينا، لن يكون من الصعب عليك أن تلقى نظرة عابرة، عابرة فى  
الظاهر فقط، على "المحمية". يقينى أننى شرحت لك باستفاضة ووضوح  
وأنا أثق فى احتراسك وتحفظك الشديد.

فى حالة الضرورة، يمكنك الاتصال بى من خلال مكتب المحامى  
باربيرس.

فرنشيسكو روكا دي فيللافورستا

فلورنسا، فى ٢٨ مارس ١٩٣٩

سيدى الكونت الموقر،

لقد انقضى وقت أكثر من المعتاد قبل أن أجيب على رسالتكم  
الكريمة بتاريخ ١٥ الشهر الجارى وأعترف لكم أنه كان يتعين على أن  
أفكر فى الأمر ملياً.

على الرغم من التقدير الذى يكنه ويحمله راع متواضع لمهنة المحاماة مثلى لزميل لامع مثل المحامى باربيرس الذى شرفنى باقتراح اسمى عليكم، ومع ذلك شعرت بضرورة أن أسأل نفسى عن إمكانية تنفيذ ما تطلبانه منى سيادتكم والمحامى باربيرس.

من واقع طبيعتى وتربيتى أمقت وأبغض كل أشكال المراقبة والرقابة والوشاية. ليس فقط حيال أصدقاء، أيها الكونت الموقر، وإنما أيضاً حيال المحامين.

وإن بدوت صريحاً إلى هذه الدرجة، كما قد تسمى وقاحتى على أقصى تقدير، فهذا لأننى أريد أن تعلم من هو الشخص الذى سوف تتعامل معه فى المستقبل. هأنذا قد وصلت إلى النتيجة وبالتأكيد حضرتك فهمت أننى أقبل المهمة. لكننى أقبلها فقط لأننى فطنت فى رسالة سيادتكم إلى ما لم تكتبه فيها وهو هذا الإحساس بالأسى والألم الإنسانى الحقيقى. لقد تكهنت من كلام سيادتكم الذى يتخفى وراء صلافة مهذبة، تكهنت بوجود ارتباط ما وثيق ومودة مثابرة وإن كانت غير جلية واضحة، وعليه فقد استنتجت، وأرجو ألا أكون مخطئاً، أن مخاوف سيادتكم مشروعة ولها أساس متين من الصحة.

اصفح عن حدتى وقسوة كلامى، فليس من محامٍ واحد يرغب فى أن يقوم بدور الواشى أو الحارس الشرس ولا حتى الوصى السرى من على بُعد تجاه شخص لا يكاد يعرفه وتجاوز بمراحل سن الوصاية أو الحضانة، فما تطلبه منى سيادتكم، إن لم أنتبه أنا إلى ما بين السطور،

يتخذ طابع المراقبة البوليسية وليس العناية الودودة المحبة. كان كافياً بالنسبة لى أن ألمح الكونتيسة بصورة خاطفة، ولدى سيادتك كامل الحق فى أن محيط مدينة سينا محدود للغاية، حتى أنك حتى بذلك الطبع العاصف الذى تحدثتم عنه. أعى جيداً المخاطر التى تحيق بها، فالكونتيسة تتمتع بجاذبية وجمال ملحوظ وتبدو أصغر سناً من عمرها الحقيقى، ولنقل إننى أقبل التكليف والمهمة المسندة إلى بشرط واحد، وهو عدم وجوب ممارسة رقابة ملحة ولا يتعين على أن أرسل لسيادتك تقارير شهرية بما تفعله زوجتك؛ فهذا فى رأى أمر مهين لسيادتك ولزوجتك ولى أنا شخصياً. سوف تقتصر مهمتى، كما تقول سيادتك، على ملاحظتها بشكل ودى يهدف إلى الخير والصالح، وأيضاً بشكل يقظ دون أن أضطر إلى التحول إلى مؤرخ يستفيض فى تسجيل كل تفاصيل حياتها. هذا بطبيعة الحال باستثناء وقوع أحداث مفاجئة أو مقلقة يتحتم على معرفتها. فى هذه الحالة، سوف تجدى أنزودك بالمعلومات على عجل وفى حينها.

لا أنوى ولا أرغب فى القيام بأكثر من ذلك وبكامل وعى وإدراكى.

أنتظر ردكم الكريم.

ولكم منى فائق الاحترام والتقدير.

المحامي جوزيبي ريكورسي

تورينو، فى ١٥ أبريل ١٩٣٩

أشكركم على كتابكم بتاريخ ٢٨ مارس الماضى و، على الرغم من  
أننى أعترف بتوقعى مزيداً من التعاون الدعوب المطرد، فأنا أقر برضاى  
عن اتفاقنا هذا.

بالطبع، أنا على ثقة من أننا سنتفق سوياً بالتراضى على أتعابكم  
التي لم نتناولها بالحديث حتى الآن.

ولما كانت حراستك ويقظتك الودودة التي تحدثتم عنها هي كل ما  
نجحت مقدرتى البلاغية في إقناعك بالحصول عليه، فلا يسعنى إلا  
الرضا والقبول. ولا أعلم بحق لمن ألجأ كى أحصل على المزيد من  
الخدمات، لست أدري إن كنت أسبب لكم ضيقاً إذا ما قلت إننى، كنت  
أرجو أن أوثر فى شخصكم بشكل أكبر عند إبلاغكم بحالتى التعسة  
البائسة.

إذن، لم يبق أمامى إلا أن أرجو لكم عملاً طيباً، وعند هذا الحد، لا  
أعلم إن كان لزاماً علىّ أن أتمنى وصول أخبار سريعة منكم (ولكن فى  
هذه الحالة يُفترض أن يكون سلوك زوجتى مثيراً للقلق والمخاوف) أم  
أتمنى ألا تصلنى أبداً أى أخبار منكم (لكننى لست أحسب أنها طريقة  
مهذبة أختتم بها رسالتى).

أرأيتم؟ إن اقتراحكم قد خلق بالفعل بعض المشاكل.

فيللافورستا

فلورنسا، في ١٨ أبريل ١٩٣٩

كونت فيلافورستا المحترم،

المنى وكان من دواعى أسفى أن أكتب لكم عن عدم استطاعتي القيام بالمهمة التي كلفتموني بها بالطريقة والأسلوب الذي كنتم تطمحون فيه.

لم أكن لأستطيع أن أحقق لكم رغباتكم مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بتقدير ولو متواضع لذاتي ولبادئ مهنتي. على أية حال، وجدت الطريقة التي أعرف بها ما يحدث في "المحمية" من خلال إحدى معارفي، وهي تيريزا باراتا، ابنة عم أدو من الدرجة الثانية، وهو، كما تعلمون سيادتكم بالفعل، القائم بأعمال الأرض الزراعية التي تمتلكها زوجتكم. من حين لآخر تذهب تيريزا إلى هناك كي تساعد في بعض الشئون، حينما يكون هناك ما ينبغي رتقه أو سراويل تحتاج إلى إجراء بعض التعديلات عليها، وهي فضولية حاذقة وتحب معرفة أمور الغير.

لن أكون ملحاً ولا متعجلاً مع الأنسة باراتا؛ لأننى أخشى الألسنة الطويلة (وهي رذيلة قديمة منتشرة في بلدتنا هذه).

سأوافيكم بالأخبار أولاً بأول، لا تشك في هذا، بمجرد أن أرى  
الوقت ملائماً.

أرجو من سيادتك أن تُذكر المحامي بارييرس بشخصي،  
لكم منى وافر الاحترام والتقدير.

المحامي جوزيبي ريكورسي

سان بياچو، في ٢٠ سبتمبر ١٩٣٩

سيادة الكونت الموقر،

لقد انقضت شهور عدة منذ آخر رسالة بعثت بها اليكم في أبريل  
الماضي، وأثناء هذه الشهور لاحظت كيف أن زوجتكم تعد امرأة تتمتع  
بقدره عالية وقدرة كبير من رباطة الجأش، لا يخيفها العمل ولا التعب  
الجسدي، فهذا هو موسم حصاد العنب في هذه النواحي، وصدقني  
سيادتك، أنه لا يمكن أن يرتجل أحد في مجال زراعة العنب.

ومع هذا، لم ينتن عزم الكونتيسة أبداً، ولا حتى أمام فن صناعة  
النبيد، الذي لا تعلم الكونتيسة عنه أى شيء على الإطلاق. ولكنها وثقت  
بالكامل ويمرونة مدهشة، كما تروى لى الآتسة باراتا التى سبق أن  
نوّهت عنها، فى خبرة واختصاص أدو، وهو رجل مهذب متحفظ وعبوس  
تمكنت زوجتكم من استرضائه فى لمح البصر.

أما فيما يتعلق بأى تعقيب آخر بشأن سلوك الكونتيسة الشخصى،  
فأنا لست مخلواً بذكره لسبب بسيط وهو غياب تفاصيل قابلة للنقد  
وتستحق ذكرها.

يبدو أن قرينتكم عاقدة العزم على أن تحول "المحمية" إلى أرض  
زراعية منتجة وتدر ربحاً، وهى لهذا تكرر كل وقتها بشغف وطاقة  
كبيرة.

يذكرون لى أن الكونتيسة، إذا ما استثنينا بعض الأوقات التى  
تقضيها فى الحفلات الاجتماعية التى تُقام فى مدينتى سيينا وفلورنسا،  
تقضى وقتها فى ركوب الخيل، وهى هوايتها الوحيدة والنشاط الذى  
تكرر له كل ما تجده من وقت فراغ فى يومها المزدهم بالأعمال.

ليس لدى ما أقوله لكم أكثر من ذلك.

أنتهز الفرصة كي أعبر لكم عن خالص تحياتى.

المحامى جوزيبى ريكورسى

تورينو، فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٩

حضرة المحامى المحترم،

أشكر لكم الاهتمام بإرسال هذه الأخبار المطمئنة عن زوجتى.

لا أخفيك مقدار دهشتي عندما علمت بالدور الجديد الذي تلعبه زوجتي، حقاً إنه من الصعب أن تعرف شخصاً معرفة تامة وثيقة.

كنت أظن أنني فقدت رقيقة رقيقة رفيعة المستوى فحسب وهأنذا أدرك الآن ما لحق بي من مصيبتين حسبتهما مصيبة واحدة؛ لأن ما كنت أقدره على أنه جمال صالونات فقط كان يخفى في واقع الأمر مواصفات المحاسب وخصال المزارع المتأثر الدعوب وسماته!

لا أخفيك أيضاً أنني، في السنوات الخمس الأخيرة، فقدت أموالاً طائلة بسبب الأرض، وبسبب أشجار الكروم الملعونة التي أصابها مرض غريب من أمراض ما وراء جبال الألب مما أدى إلى جفافها بالتمام، وهي أموال أكثر بكثير مما فقدته في السباقات واللعب!

إن لم تكن هذه هي "نيميزي" آلهة الانتقام عند الإغريق فماذا تكون إذن...

أشرك من قلبي يا حضرة المحامي.

فيللافورستا

فلورنسا، في ٣ فبراير ١٩٤٠

سيادة الكونت،

لدى القليل جداً لأكتبه لكم.

كل أسبوع يمر، تبرهن الكونتيسة على نكران الذات أكثر بكثير مما كان الجميع يتوقع من سيدة غريبة آتية من المدينة.

وأنا أحسب أن الأرض بدأت تعطيها ثمارها، ولولا الأوضاع السياسية فى أوروبا التى تثير قلقنا جميعاً، لا أبالغ إن قلت لكم إننا هنا، نتمتع بحالة معنوية ممتازة وروح عالية متفائلة.

وافر احترامى وتقديرى.

المحامى جوزيبى ريكورسى

فلورنسا، فى ١٢ يونيو ١٩٤٠

سيادة الكونت،

أكتب لكم على الرغم من حالة الاضطراب التى تثيرها الأخبار الأخيرة.

إنه لمربع ورهيب مجرد التفكير فى أننا بلد يخوض حرباً.

أحسب أنه من المحتمل، بل من الأكيد استدعائى للحرب.

فى ظل هذه الظروف، أجدنى مضطراً إلى قطع مراسلاتنا وكذا الحماية الودودة، ولنسمها هكذا، التى قمت بها تجاه زوجتكم فى السنة الأخيرة.

نسمع من جهات متعددة أن هذه الحرب سوف تكون قصيرة ونتائجها أكيدة. وعلى أمل أن يتحقق هذا، وأتمنى ألا يكون أملاً واهماً، أعتقد أنني بلا شك سوف أقوم بمسئولياتي كاملة تجاه ما كلفتموني به، بمجرد أن تنتهي الحرب.

مع أخلص تحيات الصداقة والاحترام.

المحامى جوزيبى ريكورسى

سان بياجو، فى ٩ مايو ١٩٤٥

سيادة الكونت الموقر،

لا تعلم سيادتكم كم أرجو أن أجدكم بصحة جيدة وحالة معنوية سعيدة. لقد علمت أخباركم من صهر المحامى باربييرس المحامى كوارنتا، بعد أن قدمت له تعازي في فقدان المرحوم حماه الذى وافته المنية فجأة.

قال لى المحامى كوارنتا آنذاك إنه لم يتم استدعاؤك للحرب لأنك أعفيت بفضل علاقاتك الاجتماعية وبفضل مبالغ مالية كبيرة وسخية قدمتها لصالح القضية التحررية الليبرالية.

هذا هو ما يحدث أثناء المصائب الكبيرة، مقابل معارف تخجل منهم، هناك معارف أخرى تفتخر وتتباهى بهم.

لم أخط بنفس ما قُدر لكم لأننى استُدعيت للحرب وإن كان لفترة وجيزة تركت مع ذلك جراحات عميقة، ليس فقط من الناحية المجازية. فمنطقة البطن تزينها اثنتان وخمسون غرزة. لقد رأيت أنواع البشاعة والتراجيديا كافة. خلال هذه السنوات، حاولت الاحتفاظ بحالتى المعنوية مرتفعة راجياً أنه، إن عاجلاً أو آجلاً، سوف يرجع كل شىء إلى ما كان عليه قبلاً، وأننى سوف أعود إلى المحكمة وأوراقى تحت ذراعى، وأحتسى فنجاناً من القهوة فى المقهى على ناصية شارع بورچو أونيسانتى.

كانت خطيئتى هى سذاجتى. لن يعود أى شىء على الإطلاق إلى سابق عهده، وأنا لا أقصد بهذا مدينتنا الجميلة فلورنسا، المليئة بالحفر السوداء والحطام، وإنما أقصد ما شاهدناه وعانينا منه.

الأمر يحتاج إلى وقت كى يستأنف الروتين اليومى إيقاعه، وكى نجد شقة جديدة نفتتح بها من جديد مكتب الحمامة الخاص بى، إذ قد تحطم العقار الكائن بشارع كيرويينى، وعندها سوف نبدأ من جديد الحياة المعتادة. هكذا هو حال الدنيا، ينشق الحجاب ويُسج حجاب آخر.

على حد علمى، لم تبعد قرينتك أبداً عن "المحمية"، ولا حتى فى أسوأ لحظات القصف أو التمشيط. يقولون لى إنها سمحت لأطفال

مدرسة ابتدائية بالإقامة فى منزلها وكل من طلب منها معونة لم تبخل عليه بأية مساعدة معنوية أو اقتصادية أو عملية.

بمجرد أن أجد الظروف مواتية لفتح مكتب المحاماة من جديد، سوف أخبر سيادتك على الفور.

فى الوقت نفسه، أرجو من سيادتك أن تغفر لى الألفة المفرطة فى الأسلوب الذى سمحت لنفسى أن أستخدمه فى مخاطبتكم، والذى لا أجد له مبرراً سوى النشوة التى أحسها عند إدراكى بأننا أخيراً بلد حر. حتى إن كانت مراسلاتنا تملئها علينا دوافع مهنية، فهى تذكرنى بفترة زمنية معينة، وهى ربيع خمس سنوات مضت، واليوم يبدو أن هذه الفترة تنتمى إلى ما قبل التاريخ السحيق.

مع أخلص تحياتى القلبية.

المحامى جوزيبى ريكورسى

تورينو، فى ٢٢ مايو ١٩٤٥

حضرة المحامى العزيز،

أخيراً وصلتني أخباركم! لقد رجعت إلى ثلاثة خطابات مكتوب عليها "مرسل إليه مجهول الهوية"، وكنت أخشى حدوث أمور أسوأ مما رويته لى!

يريحنى بحق أن أعرف أن الضرر الوحيد الذى سببته لك الحرب هو ضرر معنوى، هذا بالطبع بخلاف الجرح وما استتبعه من غرز.

أرجوك لا تبرر أسلوبك الذى يتسم بالألفة، فخطاباتى التى أرسلتها إليكم قبل الحرب، وكانت بمثابة متنفس لى عن غضبى العارم وضعفاتى تمنحك أكبر الحق والدافع المقنع فى تلك الألفة.

وكى أصل إلى لب الموضوع، أكتب إليكم هذه المرة كى أعفيكم رسمياً من خدمة حماية الكونتيسة، كما يمكن أن نسميها. فكما سبق أن كتبتم لى، والحق معكم فى ذلك، لقد انقضت الآن خمس سنوات غيرت كل التوقعات والرؤى المستقبلية، علاوة على أنها غيرت، بطبيعة الحال، وجه أوروبا والعالم أجمع وكذلك غيرتنا نحن أيضاً، لقد حدث ما لم يكن فى الحسابان وانقلبت كل الموازين.

قد يصعب عليك أن تصدق، ولكن لتعلم أنه طوال هذه المدة، طوال هذه السنوات من الحرب والمعاناة بجميع أشكالها، ما من مرة واحدة شعرت فيها زوجتى، لا أقول بالرغبة، وإنما على الأقل بالحاجة أن تلجأ لمن كان زوجها فى يوم من الأيام، وهو بالفعل زمن يعود إلى ما قبل التاريخ!

لا خطاب ولا كلمة، لا شىء إطلاقاً.

تقابلنا فقط فى جنازة والدها، حيث تعانقتا عناناً رسمياً لم يتجاوز لحظات وكان بمثابة التصديق النهائى على ما أصاب علاقتنا من برود وفتور، ماذا تظن يا حضرة المحامى؟ فمع مضى الوقت تتغير وتتبدل المشاعر والأمزجة، بصورة لا يدركها المرء فى البداية، ثم رويداً رويداً تتغير بصورة جلية واضحة، إلى أن يكتشف المرء أنه تبدل بصورة لا رجعة فيها.

هذا ما حدث لى بالضبط. لذلك، أحلك من أى التزام تجاهنا. إن أردت، داوم على زيارة زوجتى، لك الحرية فى تقدير طبائعها وروحها دون أى أغراض أخرى، وأصدر حكمك عليها بناءً على حقيقتها وجوهرها، إذ هى امرأة هاربة من عصر ومن عالم لم تواتها شجاعة الانصياع لأحكامه وقواعده ولا حتى تغييرها.

من واقع خطاباتكم السابقة، استطعت التكهّن بأنك تعتبرها امرأة ذات شجاعة لا محل لها من الشك. لا تسيء فهمى، فلست أتحدث بلسان الزوج الساخط الذى هجرته زوجته، لم يعد هذا حالى الآن على الأقل، فلا تسيء فهمى إن قلت لك إن كل ما فعلته زوجتى المحبوبة، على مدار حياتها، إنما فعلته ليس بدافع الشجاعة وإنما من قبيل الجبن والنذالة.

لا داعى إذن من استمرار هذه المكاتبات بيننا، وأجدنى أسفاً على عدم مراسلاتكم وذلك لاستحسانى أسلوبكم أكثر من المحتوى والمضمون.

أتمنى لكم عودة سريعة إلى حياتكم التي ألفتموها، وأتمنى ذلك  
لنفسى أيضاً ولدينتى ولكل أوروبا.

## قبلا فورستا

فلورنسا، في ٣٠ يوليو ١٩٤٥

الكونت الموقر قبلا فورستا،

أسمح لنفسي بأن أكتب لكم، مخالفاً رغبتكم، حيث إنه وقع أمر  
جديد هنا، أمر تحول إلى موضوع حديث ليس فقط النساء المتعصبات  
المتشددات وإنما أيضاً نصف أهالي المدينة. وعليه أرى أنه لا بد أن  
تعلموه.

فمنذ حوالي أسبوعين، تتردد الكونتيسة على سيد أجنبي (لم  
أتمكن بعد من تحديد شخصيته على وجه الدقة، لقبه يبدو نمساوياً أو  
ألمانياً وهو ترينسبرج، ولكن لغته، على حد قول الأنسة باراتا المجتهدة،  
لغة إيطالية دون أدنى شك تشوبها بعض الأخطاء النحوية التي يقع فيها  
الأجنبي عادة) ولا أعرف المزيد في الوقت الحالي.

أنا في انتظار تعليمات تصلني من قبلكم.

أجدد لكم وافر الاحترام والتوقير.

المحامي جوزيبي ريكورسي

تورينو، في ١٥ أغسطس ١٩٤٥

عزيزى ريكورسى،

أحسنت صنعاً بإبلاغى. أما بالنسبة لزوجتى، فماذا بوسعى أن أقوله لك، لا سبيل سوى تهيمش جراحاتنا وحتى العميق منها.

لا أستشف الكثير من اسم ترينرسبرج ولكننى سأستعلم عنه وسوف ترى أنتى سأحصل على كل ما يفيدنا من معلومات ضرورية.

أرجوك أن تكتب لى، إن وافتك معلومات أخرى.

فيللافورستا

تورينو، في ٣٠ أغسطس ١٩٤٥

الأستاذ المحامى ريكورسى،

على اعتبار أن لقب صديق زوجتى نودع ألمانى، وشعبية الألمان فى الانحدار! فالأخبار المتقطعة الناقصة التى جمعتها لا تدعو للاطمئنان. يقولون إن ترينرسبرج، واختصاراً الكل يدعوه بلقب بشع وهو تروت، كان يتردد قبل اندلاع الحرب على أوساط الأغنياء بلندن وباريس، وإنه أنفق أموالاً طائلة على طاولة اللعب الخضراء، ولكن بما أن اللعب هو نقطة الضعف المشتركة بيننا، فهذا خبر لا يثير شكوكى كثيراً. لم أنجح فى معرفة المزيد هنا فى تورينو؛ فمن الصعب إجراء تحريات فى الأوساط التى يتردد عليها عشيق زوجتى.

سوف أُلجأ إلى مساعدة شخص يدعى بوريكى أو بوريكى، وهو شرطى سابق يسترزق من الماء العكر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أزواج مثلى.

سوف أوافيكم بالأخبار. أعلمنى بوريكى أنه إذا لم يتحرك ترينرسبرج هذا من إيطاليا، فى خلال شهر سيتمكن من إعداد تقرير واف، أما إذا كان رجلنا المنشود يعيش فى الخارج، والأحوال فى أوروبا رأساً على عقب، فالأمر قد يستلزم ثلاثة أو أربعة شهور للوصول إلى معلومات ولو غير كاملة.

من يدرى.

إلى اللقاء سريعاً.

فيللافورستا

تورينو، ١٠ يناير ١٩٤٦

سيادة المحامى الموقر،

مرفق طيه صورة من تقرير بوريكى. اقرأه لو سمحت، وسترى أنه ليس هناك ما يدعو للاطمئنان، فهذا المدعو ترينرسبرج ما هو إلا كازانوفا محترف. لا يملك مالاً، ولا أملاكاً ولا أية فرصة للكسب، ويذكر تقرير بوريكى أن هذا المدعو أصبح بعد الحرب خبيراً فى الفن، تُرى هل هى مهنة يمكن أن يتعلمها المرء فى تسعة شهور فقط؟

أترك الحكم لكم. لقد رجوت بوريكى أن يخاطبك، ويمدك باسم شخص ما، يمكنه أن يجمع معلومات حديثة ومفصلة عن ترينرسبرج فى فلورنسا قبل أن نحدد ما ينبغى أن نتخذه من خطوات، من الواجب أولاً أن نحدد طبيعة الشخص الذى تتعامل معه. أما بالنسبة لى، فلم يعد عندى أمل فى أن تندم زوجتى، بما أنها أحضرت إلى منزلها ذلك السيد. مع ذلك، أرى أنه من واجبى أن أسهر عليها من على بُعد لأنها عزيزة عندى ولا تزال تحمل اسمى. فإذا كان هذا المدعو ترينرسبرج مجرد محتال غير مؤذ، فلندعه لها، ولكن، لا سمح الله، إن اتضح أنه مغامر لا ضمير له، سوف يهرب يوماً ما فى ملء الليل بمصوغاتها وقلبها، ففى هذه الحالة أشعر بضرورة التدخل. ماذا تتوقع منى، فروح الفارس الشهم تكون أحياناً سبباً من أسباب القلق والهم.

أرجوك، لا تتهاون فى مراقبة "المحمية".

فيلا فورستا

تورينو، فى ٥ مارس ١٩٤٦

عزيزى ريكورسى،

أجدنى مضطراً أن أواجه مشقة السفر حتى مدينة فلورنسا كى أقابل شخصاً يدعى أوتافيو بريونى والذى من المفترض، على حد قول بوريكى، أن يقدم لى بياناً مفصلاً وافياً عن شخصية ذلك الامرىء نى

الأصل الإيطالي - النمساوي الذي ظهر في طريقنا. وفي ذات الوقت، أفكر في أننا لو اضطررنا أن نصل إلى حد الرغبة في إزالة ترينسبرج نهائياً من طريقنا، فمن المرجح أننا قد نستطيع... لنقل، شراء هذا، ألا تتفق معي في الرأي، نظراً لطبيعة شخصيته؟

وأسعد بلقائكم أخيراً يا عزيزي ريكورسي بصفة شخصية. سوف أنزل في فندق الإنجليز من العاشر وحتى الخامس عشر من أبريل. أنتظر أخباركم.

فيللافورستا

فلورنسا، في ٢٠ مارس ١٩٤٦

سيادة الكونت،

أظن أنه ينبغي أن نسلك طريق الاتفاق المالي مع ترينسبرج.

المعلومات التي تصلني باستمرار، من خلال بوريكي وخادمه في فلورنسا، لا يتغير مضمونها المثير للقلق. لدرجة أن بوريكي يحسب أن الأمر قد يتعلق بجاسوس ألماني سابق، تحول إلى خدمة الأمريكان؛ نظراً لتغير الظروف والأوضاع. بالتأكيد، هذا الافتراض يثير الحيرة والاضطراب، ولكنه قد يفسر ظهور ترينسبرج المفاجئ في سينا وإقامته الطويلة في "المحمية"؛ إذ تقتضى الضرورة وجود غطاء له في مكان بعيد تماماً عن الشبهات.

ومع ذلك، أحرص على أن أقول لكم إن الكونتيسة يبدو عليها  
البهجة والهدوء وجهلها التام بالأمر حتى إنه يراودنى الشك فى أننا، أنا  
وسياذتك، بصدد ارتكاب خطأ كبير.

لنأمل ألا يكون الأمر هكذا، بحق الله.

مع وافر الاحترام والتقدير.

المحامي جوزيبي ريكورسي

تورينو، فى ٢ أبريل ١٩٤٦

عزيزى ريكورسى،

أرجوك لا تسقط فى المصيدة أنت أيضاً!

فمنذ سنوات طويلة مضت اختارت زوجتى الوحدة التى لا تناسبها،  
علينا أن نتذكر ذلك، وحينما يصل سيد مهذب لطيف يقبل يدها ويحسن  
اختيار النبيذ، وأضيف أنه بالتاكيد يجيد رقص الفالس، فقد تمت أركان  
اللعبة ووقع الجميع تحت تأثيره الفتان الجذاب.

ولندع الوقائع هى التى تتحدث، فالشاب هو، على أفضل تقدير،  
نصاب ومحتال اندس فى فراش زوجتى؛ لأنها جميلة، ولأنها ثرية، ولأنها  
وحيدة. أو إنه، ولعل الله لا يسمح بذلك، جاسوس على حد قولك!

فليطمئن قلبك، يا سيادة المحامي، فهذا هو حال الدنيا منذ الأزل،  
وما من أمل فى تغييرها. لقد أخذت قرارى (انتبه، فعليك أن تهتم أنت  
بالأمر شخصياً).

تفضل بإعداد مسودة اتفاق مالى أستطيع أن أتحملة دون أعباء  
تعيقنى.

أنتظر ردكم.

فيللافورستا

فلورنسا، فى ٣٠ أبريل ١٩٤٦.

الكونت اليزين،

أكرس كل همتى وتصميمى لإقامة علاقة وثيقة مع ترينسبيرج،  
هادفاً فى النهاية إلى التلويح له بفرصة لا تعوض فى مستقبل ودى من  
الناحية الاقتصادية بفضل عرضكم الكريم، وذلك حينما تحين الفرصة  
المواتية، دون أن يكون هناك أى خطر من أن يوجه لى تروت ضربة تطيح  
بى أرضاً.

فى الوقت نفسه، سأكون شاكراً لكم إن تفضلتم وأرسلتم لى  
صورة من الاتفاق الذى أرسلته لكم قبل رحيلكم إلى فلورنسا حيث لا  
أحتفظ بصورة منه، وأرجو أن تدونوا ملاحظاتكم عليها.

وبما أننا لسنا نعلم ماهية الشخصية التي نتعامل معها، فإن إيداع المبالغ وتغيير الاسم على الأسهم، ينبغي أن يتم تجزئته على مدار عدد من الأشهر.

علاوة على ذلك، يلزم أن تقوموا من جانبكم بتقدير دقيق بقدر الإمكان للرقم الإجمالي الذي أنتم على استعداد لدفعه لإنجاز هذا الاتفاق. أذكركم بأنه يجب أن تتوقعوا أن يكون الطلب باهظاً.

وأنا على يقين من أنه، في خلال شهرين على الأكثر، سوف يتم حفظ هذا الأمر نهائياً.

أطيب تحياتي.

المحامى جوزيبى ريكورسى

فلورنسا، في ١ يونيو ١٩٤٦

الكونت الموقر،

تمت المهمة! تروت موافق. سيأتي بعد غد إلى مكتبي. لقد قمت بتحرير اتفاق وكتابته، عقد خاص يقر بجدول زمني محدد لإتمام عمليات الدفع. يقول تروت إننا نمزق قلبين، فلنعطه على الأقل الوقت اللازم لتنظيم رحيله (أعتقد أنه يقصد: الوقت اللازم كي يخبر الدائنين بأن مبلغاً لا بأس به من المال في طريقه للوصول).

ذكرت له أنه يمكنه أن ينسحب في أى وقت إن أراد هذا، ولكن إن قبل الالتزام بالعهد، فإن شرط الاتفاق الذى لا يمكن التفاوض عنه هو التكتّم والسرية المطلقة، أعتقد أنه يمكننى أن أؤكد لك، يا سيادة الكونت، أننا فى خط مستقيم نحو طريق الوصول، وسوف أطلع سيادتك على الأخبار على وجه السرعة.

أخلص التحيات.

المحامى جوزيبى ريكورسى

٥

فى النهاية، يؤسفنى أننى عرفت كل شىء. لقد انقضت سنوات وأنا أتعلل بفكرة عدم وجود دافع قاس لرحيل تروت. كنت أظن أنه، فى النهاية، غلب عليه احتياجه للبقاء بمفرده، وللتنقل من مكان لآخر، وأن رغبة لا تُقاوم فى الترحال قد غلبت على حبه لى.

أنا أعرف أن العجر الرُّحل يتسمون بنظرة ثابتة وصافية، حينما يراقبون تغير المناظر الطبيعية والعادات والتقاليد، نظرة ثاقبة نحو الأمام، فالمرحلة القادمة هى التى تهّم، وليس ما يخلفه المرء من ورائه،

فالتغيير لا يزعجهم، ولا ذلك الشكل الدقيق الذى لا يتبدل من أشكال التغيير؛ وهو الاختفاء، وهم لا يرتجفون حينما يؤول المعبد الجوفائى إلى حطام لأنهم حولوه إلى جبخانة سفينة، وحينما يبرز بجوار البرج الذى يعود إلى القرن الثالث عشر عمارة حديثة سلالها من رخام ويتم تلميعها بالرصاص، وأبدأ، وأبدأ لن يلبث ذلك المشهد على حاله. وهم لا يرتجفون حينما يقع ما لا يُحمد عقباه، وأبدأ لا يزعجهم ترك عالم بأسره خلف أكتافهم.

لطالما قلت لنفسى إن هذا هو طبع تروت.

أما أنا على العكس فقد اخترت التوقف وكان تروت يعلم هذا. فلم يحاول حتى إقناعى، بل على العكس. ساعدنى على مد جذور هنا؛ لأنه كان يقول إن "هذا هو مكانك". كان يخمن أنه لا مجال لتغيير طبيعة الأشياء أو الأشخاص. حاول أن يعيش معى، واحتمل بقدر استطاعته، إلى أن طالبت طبيعته الهائمة بحقوقها، دافعة إياه فى النهاية إلى اختيار الرحيل من جديد. كان يعلم دوماً أنه فى يوم من الأيام سيرحل، فالاضطراب وعدم الهدوء الداخلى يشبه حيواناً يصعب ترويضه.

لعل تعليمه إياى صناعة النبيذ كان هو هديته لى، من يدرى. هناك أشخاص ينتهجون نهجاً ثم نهجاً آخر، وآخر، ثم طريقاً وطريقاً آخر، والتوقف ما هو إلا هدنة لاستلقاط الأنفاس واستجماع القوى قبل

الرحيل من جديد، خطوة خطوة، متظاهرين بأنه يوجد هدف فى مكان ما، أى هدف.

كان ينبغي الاستسلام لفكرة أن طبيعة تروت مختلفة جداً عن طبيعتى.

علاوة على ذلك، ألم يكن تروت صاحب نظرة تائهة شاردة، وطبع سكوت كان من الممكن الخلط بينه وبين اللامبالاة بكل سهولة، وعدم وضوح خطته مما كان يثير دهشتى ويعيقنى، فى شهر يونيو قبل زمن طويل مضى، من أن أحكى له نقاط ضعفنا وكل أمر مستحدث بيننا؟

لقد قرأت كل هذه الرسائل التى تتحدث عنى، وتولينى اهتماماً، وبدلاً من أن ينشأ بداخلى أخيراً الإحساس بأننى وجدت قطعة الفسيفساء الناقصة، يبدو لى أننى وسخت شيئاً ما، وأننى لطخت يدى بشيء ما لزج وبشع لا أعلم ماهيته بالضبط، وأنه كان يتحتم على أن أتركه يرقد هناك حيث كان طوال كل هذه السنوات.

أفكر من جديد فى تروت، فى اللحظة التى عانقتى فيها بقوة وكان يتظر مباشرة فى عينيّ هامساً "أنت لا تفهمين، أنت لا تفهمين".

ماذا كان يحاول أن يقول لى؟

ما هو الشيء الذى لم أكن أفهمه؟ أنه تركنى لأنه كان فى احتياج إلى المال أكثر من احتياجه إلى الحب؟

بعد كل هذه الكلمات، يسود الصمت منزلي.

بعد كل هذه الذكريات، الحاضر.

فى الخارج يلف الظلام الفناء، ولكن يمكن أن نلمح الظلال وحدود الجراج غير الواضحة، والبوابة، وأشجار السرو الأربع الواقية من الرياح والتي تحمى حائط السور. لا بد أن القمر بزغ أخيراً. فى بداية الشتاء يكون ضوء النجوم خافتاً وبارداً ويغشاه السحاب.

إن حياتى هى نتاج هذا التذبذب، ونتاج استمرارية وتكرار الانتقال من هذا الفناء الذى يغمره الظل إلى الضوء، ونتاج صباح أحد أيام شهر يونيو الذى ينذر بالقيظ الشديد، أو نتاج حجرة نوم الأطفال حيث قضينا أنا وأثريكو سنوات طفولتنا.

. لا بد أن آلية من آليات المخ قد وقعت تحت الأسر فى حركة متذبذبة إلى الأمام وإلى الخلف، بين ظلمة إحدى أمسيات شهر نوفمبر الرطبة ويوم من أيام شهر يونيو حيث صرصره زير الحصاد تختلط بصوت مذيعة الراديو المرتجف والتي تعدد أرقاماً وبيانات معلنة نهاية عصر وبداية عصر جديد. إيطاليا جمهورية، وحتى إن تساءلنا جميعنا ما الذى سوف يتغير، تتنبأ أمى وتقول فى صوت مستعار "التغيرات لن تُعد ولن تُحصى"، فإننا لا نكف عن وضع خطط لكل يوم، فى أى ساعة سنتناول

فطورنا، وإن كنا سوف نذهب لعمل نزهة على ظهر الجياد لمدة ساعة أو  
لمدة ساعتين.

نعم، ربما تتغير بلادنا، ولكن فى الوقت ذاته هذا اليوم من شهر  
يونيو سوف يكون مثل أيام أخرى كثيرة، سوف يكون مثل أمس، ومثل  
الغد وبعد الغد. يقترب منى تروت ويداعب شعرى بحنان بالغ.

أتذكر تفاصيل يمكن نسيانها تماماً، مثلاً الدجاجة التى قامت  
نوقيللا بطهيها، بعد أن غمستها فى النبيذ الأبيض وأضافت السالقيما  
والروزمارى. أتذكر أننا قررنا أن نذهب للقيام بنزهة بعد وجبة الإفطار،  
إنه يوم فى غاية الجمال، وغاية الصفاء، وعدنا نمتطى الخيل فى العصر،  
حينما تقل شدة الحر. فى آخر لحظة يعتذر تروت عن المجيء ويقول إنه  
يفضل أن يمكث فى "المحمية".

أتذكر إحساس النزول من على ظهر الخيل، بعد أن نصل إلى  
البيت، وفرد أرجلنا المتعبة المتصلبة، بينما أسأل ماريو عما إذا كان يعلم  
مكان تروت، فيبدو لى أننى أهملته طوال اليوم، وكرست كل وقتى  
لأصدقائى ولواجباتى كربة منزل. منذ يوم الأحد، أى قبل أربعة أيام،  
وأنا منشغلة فقط بمتابعة نوقيللا لاختيار أنواع الطعام، وبمساعدة ماريو  
فيما يتعلق بالجياد، جيادى وتلك التى قمنا بتأجيرها من أجل الضيوف،  
وأجتهد فى تنظيم نزهات سيراً على الأقدام وعلى ظهر الخيول، ورحلات  
لمدينة سينا وأشياء من هذا القبيل.

أتذكر ماريو الذى يرتدى بنطالاً من القماش الغامق وسترة من قماش الجوخ، صيفاً وشتاءً، وكأنها زى رسمى، وهو يهز رأسه، علامة على أنه لا يعرف مكان تروت. يندفع أصدقائى داخل المنزل كى يخلعوا أحذيتهم ذات الرقبة الطويلة، ويغيروا ملابسهم، وربما لأخذ قسط من الراحة، فى هذه الأثناء تضحك كل من نينا وإيريس وتمزحان وتهمسان. أصعد إلى الطابق العلوى كى أغير ملابسى، غرفة نومى حارة جداً، فشمس يونيو صارت بالفعل متقدمة، من يدرى، من الواضح أننى نسيت أن أغلق المصراع هذا الصباح. غريب هذا الأمر، كنت أحسب أننى أغلقتها، كما كان يبدو لى أيضاً أننى أغلقت ضلفة الدولاب، وأدراج الخزانة لأننى امرأة منظمة. أجتاز الغرفة، بلاطة رمادية وبلاطة سوداء وأخرى بيضاء، كى أغلق خزانة الملابس. أتذكر الضوء الذى يصل حتى هذه النقطة من النافذة، محملاً بغبار الصيف، ويقع بميل ويضىء كل رف، كل درج، وكل دعامة خشبية داخل خزانة الثياب التى يضع فيها تروت أغراضه.

الخزانة خاوية، خاوية تماماً، لم يبق بها سوى أكياس اللافتندر ضد العتة.

أتذكر نينا التى وجدتنى، من يدرى هل بعد ساعة؟ أم ساعتين؟ وأنا لا أزال جالسة على الفراش، أنظر إلى الخزانة الخاوية تماماً مثلما كنت أنظر دوماً وأنا منبهرة مفتونة بكرات الثلج التى تتقاذف وتلف وتدور

فى ضوء أعمدة النور بالشوارع، شلال من كرات الثلج، تختلف كل منها عن الأخرى، والتي ما كنت أقدر أن أعض النظر عنها .

تفهم نينا على الفور، أكانت تعرف بالفعل كل شىء؟، تحاول أن تواسينى، وتهديء من روعى بكلمات حمقاء لا أصدقها ولو حتى للحظة واحدة مثل ("سيعود، لابد أنها أمور عاجلة، فقد انتهت الملكية، الأمر فى غاية الجدية أنت تعرفينه منذ وقت قصير، لعله ذهب إلى روما كى يحتفل ويعاين الأمور شخصياً، لابد أن نفعل ذلك نحن أيضاً، لقد مر التاريخ بجانبنا، على مسافة ٢٥٠ كيلومتراً جنوباً، لا يمكن أن ننأى بأنفسنا عنه، أو لعله تورط فى أمر غامض، واضطر أن يرحل، حدث هذا لكثير من الناس، لم يجد حتى الوقت لترك بطاقة صغيرة لك، وهذا معناه أنه يفكر فى العودة، لا تقلقى، سيكتب لك، سيظهر، وسوف تلحقين به لا أدري أين، تعالى معى إلى روما غداً صباحاً، إنها فترة فى غاية الأهمية، فترة تاريخية، إنها نهاية عالم وبداية عالم آخر، لا تبقى هنا بمفردك، انزلى إلى أسفل وسأحضر لك مشروباً، لن نقول أى شىء لأى شخص، اتركى الأمر لى، سترين، سيعود كل شىء إلى ما كان عليه...")، كم تتكلم نينا كثيراً، أغلق عيني.

"اصمتى، يا نينا، اسمعيني، لقد رحل وأنا هنا وحدى. وحدى، أتفهمين؟ أنا حامل يا نينا، قولى لى ماذا بوسعى أن أفعل. أنت امرأة

لها خُبرة فى هذه الحياة، وشجاعة. لم يراودك أبداً أى إحساس بالخوف. أنا مختلفة عنك. فلقد خفت من كل شىء. لقد هربت وأتيت إلى هنا كى أفلت بحياتى من تورينو، من قيلولافورستا، وأبداً لن أعود للخلف. هذا هو يقينى الوحيد".

كنت مجنونة حينما اعتقدت أننى أستحق حياة مختلفة عن تلك الحياة التى أرادوها لى. هناك امتيازات لا ترحم، بل تستلزم واجبات لا يمكن بأى حال من الأحوال التفكير فى التنصل منها. لقد اختاروا لى طريقاً وأرغمونى على السير فيه، لكننى أردت أن أتجنبه. والنتيجة؟ البقاء وحيدة أمضغ مرارة الهجر، تحت بصر نينا المشفق والذى لا أعتقد أننى أستطيع أن أتحملة لحظة واحدة أكثر من ذلك.

عاهدينى أنك لن تقولى لأى إنسان أنك وجدتتى هنا، فى هذه الحالة. عاهدينى ألا يعرف أى شخص أبداً أنه رحل هكذا. عاهدينى أنك سوف تنسين هذا اليوم. عاهدينى. وساعدينى يا نينا، أرجوك.

ساعدينى يا نينا. تجلس بجانبى وهى تنتهد. تمسك بيدي وتقول: "يا لك من حمقاء، كل شىء سيسنتقيم. سترين. لا تحكى لأحد ما حدث. عليك فقط أن تنتبهى، ولن يفتن أحد ولا حتى ذلك السخيف السانج ريكورسى. عليك فقط أن تلدى الطفل وأعطيه لـ ماريو ونوڤيلا وهما يربيانه، كما لو كان ابنتهما... إن لديهما ابنة بالفعل، فماذا عساه أن

يغير هذا فى حياتهما؟ عليك فقط أن تنفقى عليه، وهذا ما ستفعلينه على أية حال...

اطمئنى، إنه أمر جائز... سأبحث لكِ أنا عن المربية المناسبة، مربية لا تخلق لنا مشاكل كثيرة وتكتب فى شهادة الميلاد الاسم الذى نريده نحن...

أتذكرين الطبيب اليبيراندى، الذى أحضرته لكِ هنا فى إحدى الليالى؟ لنطلب مساعدته... فلقد قمتِ بمساعدتنا ولن تكونى لا الأولى ولا الأخيرة.

ثم، من عساه أن يراكِ هنا فى الجنوب؟ من عساه أن يعرف؟ ماريو ونوفيللا شهمان ويكثان لكِ كل الحب. لو لم تخبئى ماريو فى الخزان لشهور طوال، من يدرى ماذا كان سيحدث له... لقد كنتِ كريمة، والآن اتركينا نساعدك. الآن أنصتى إلیّ وافعلی تماماً كما أقول لكِ...".

الآن أدرك أن أول رد فعل جبان من جانبى هو أننى لم أقل لوالدى إننى لن أختار زوجاً لى أى اسم من الأسماء الخمسة التى كان قد كتبها على الوريقة ذات اللون الأزرق السماوى، وتبع ذلك ردود فعل أخرى، واحد تلو الآخر، غير واضحة للغرباء ولكنها حددت مصيرى. من كان ينظر إلیّ، كان يرى امرأة جميلة أبية، ذات خصال قوية وقدر كاف من الشجاعة المتعنتة.

وعلى العكس، لم يكن هناك شيء من هذا كله، اللهم إلا كبرياء لا نهائى والخوف من العالم ومن ثرثرة الناس. لقد تخلصت من ابنى. عشت كل حياتى بقربه، ورأيتة يكبر ويتعلم السير، والجري وركوب الدراجة. علمته كيف يمتطى الجواد ويدير هذه الأرض الزراعية التى ستصبح أرضه فى يوم من الأيام، ولكننى لم أكن له أمًا. لم أمتلك الشجاعة لفعل هذا.

بعد رحيل تروت مباشرة، كان الأمر صعبًا. لم أكن أنام جيداً، لم أكن أكل وكنت أشعر بكره خفى تجاه الطفل الذى أحمله فى أحشائى. ولما وُئِد، قررت أن أنسى كل شيء، كل شيء، منذ البداية، وأن أجفف ذاكرتى كما يُفْرَغُ الدلو من المياه المتسخة.

أتذكر أننى قررت ألا يتسرب بداخلى أى ألم، ولا أى إحباط. وأننى لن أسمح لثورتى العارمة أن تويخ تروت، وتلومنى، لن أسمح للغضب والأسى أن يتكاتفا معاً كى يسهما على حياتى. لا. ببساطة سوف أنتظر حتى تعبر الموجة، وسوف أغوص تحت سطح المياه، تماماً كما نفعل فى البحر حينما تواجهنا الأمواج العالية. لا، لن يصيرنى رحيل تروت امرأة ضعيفة متذمرة شكّاية من لا شيء تم إغواؤها وملاطفتها ثم، وببساطة، صارت امرأة مهجورة وحُبلى.

إن عاجلاً أو آجلاً، ستستأنف حياتى مسارها الهادئ الذى كانت عليه يوماً ما. إن إدارة أرض زراعية مساحتها ثلاثمائة هكتار عمل شاق

لمن يجهله ولمن لم يعتد عليه وأنا لم أكن معتادة عليه. ولا واحد منا معتاد عليه، فوالدى ربح هذه الأرض من لعب الورق، وشقيقى ما كان يعرف ماذا يفعل بها، إلى أن تخلص منها وتركها لى يوفاته.

أمامى أعمال كثيرة أقوم بها. لن أتكاسل. ينتظرنى ماريو كل صباح فى الفناء، وهناك صف كامل من أشجار الكرم الآخذة فى الجفاف، على القمة من ناحية الغابة، ما العمل، هل نخلعه أم نتركه هكذا حتى بعد فصل الصيف؟ طلبنا مجيء منتج نبيذ فرنسى، يدعى دى جاسكى، وقد اقترح علينا أن نمزج العنب بنسبة مختلفة. فى خلال بضعة أعوام سيكون لدينا نبيذ على الجودة، ثقيل ولزج يصلح للتعتيق فى براميل من البلوط القوى، وأنا أمتلك بالفعل الاسم، وهو "أحمر قانى"، مثل لون القمر فى بعض الأمسيات الصيفية، حينما يبرز من وراء التل، ويبدو كبيراً للغاية خلف تلك الغابات لدرجة أننا قد نعتقد أنه غلطة.

حينما لا يكون هناك إلا الصمت، حينما لا يحتاجنى أحد، أختلس نصف فترة ما بعد الظهر، وأمتطى جواداً وأسلك فى اتجاه الجنوب، نحو بوچو دى چينوفيزى، أو فى اتجاه الشمال نحو مونتييتى حتى أنظر إلى أسفل، هناك حيث تُرى أراضى "المحمية" بأكملها، وأشجار الكرم الجديدة المتسلقة على التل وهكتارات من الغابات، وحقل الزيتون

والمنحنيات الطويلة فى الطريق الضيق المؤدى للمنزل. أحياناً أبكى،  
ولكننى لا أستطيع أن أجزم هل هى دموع غضب أم حزن، أم امتعاض  
تجاه شخصى أم دموع تحسر وندم.

أحياناً أهبط من على الجواد وأجلس على قطعة حجر وألبث هناك  
أنظر إلى هذه الأرض التى لا تتغير مع الزمن، بألوانها وروائحها،  
متمهلة وصامته مثلما عرفتھا.

كل شىء سار على ما يرام إلى أن بدأت أتذكر. كان يبدو لى أننى  
لا أرتكب أى خطأ فى استعراض وقائع صغيرة كنت أحسبھا فى طى  
النسيان منذ زمن بعيد، ولكنها على العكس، وبمجرد مداعبتها، عادت  
واضحة جلية، كما لو كانت حدثت لتوها.

أعرف أنه غالباً ما ينسى كبار السن الماضى القريب، بينما  
يتذكرون بدقة لا تخطر على بال الماضى البعيد السحيق. يتسع  
باستمرار نطاق تأرجح الذاكرة، إلى أن عجزت تماماً عن التصدى لنهرٍ  
من الكلمات تتصارع كى تخرج، وتعبّر كل واحدة منها عن نفسها فى  
الهواء، فى الشمس، مثل قطع صغيرة من الورق، قصاصات من  
الرسائل التى لم تصل أبداً، أو أغلب الظن لم تكتب أصلاً، كلمات تنفرد  
مثل أجنحة الطيور المهاجرة حينما تحين ساعة العودة.

حينما يصير الجواد كسيحاً، ينبغي قتله.

إنه أمر مؤلم، ولكن ليس من حل بديل، فلا سبيل للشفاء من تبعات حوادث معينة. لقد قاموا بتربيتي، على هذا النحو، ووفقاً لهذا المبدأ. وقد أن الأوان لتطبيقه.

سأذهب لقيلافورستا. أذهب لطلب تفسير من عجوز وهن يضني في فراشه، شبه منهك من الحمى والمسكنات، من رجل كان يظن أنه يحميني ولكنه على العكس سلبني كل شيء. ولكن اكتشاف أن قبيلافورستا قد اشترى تروت بالمال حتى يرحل لا يُعد شيئاً بالمقارنة بفكرة قبول تروت لهذا المال.

أشعر بسرمان غضب مخنوق وبارد كالثلج في أوصالي وقلبي وحلقي.

يجلس دينو على مقعد غير مريح، ورأسه تتدلى على ذراعه؛ إذ قد غلبه النعاس. الساعة تجاوزت العاشرة مساءً. بمجرد أن ألمسه وأربت على كتفه، يستقيم في الحال، وعيناه ناعستان بعد. يرانى ويود أن يقول لى ألا أقلق، وأن أخلد للنوم فهو موجود هنا بقربي.

لا يزال دينو يعتقد أن زيارتي لقيلافورستا هي من باب المجاملة إن لم تكن من باب الود والمحبة. لكن تكفى نظرة واحدة منى كى تجعله يصمت وينتفض واقفاً، ليتركنى مع زوجى على انفراد.

حتمًا نظرتى وتعبير وجهى لا يقبلان مناقشة ولا جدالاً.

ربما لم يغلب النعاس تماماً على قبيلافورستا؛ إذ يبدو بالأحرى بين حالة من اليقظة شبه واعية ونعاس خفيف للغاية. يتنفس بطريقة منتظمة هادئة.

أنحنى عليه حتى أسأله "لماذا؟". لماذا أقصيت تروت عنى؟ لماذا لم تدعنى وشأتى أسلك طريقى؟ لماذا داهمتنى بحبك وحنقك على؟ لماذا قمت ببيع بيك، جوادى الخاص؟ لماذا لم تخبرنى أنا أبدأ بالكلمات التى كتبتها لآخرين؟ لماذا أتيت إلى هنا، الآن، بعد كل هذا الزمن؟ لماذا تريدنى أن أعرف أنك أنت من كنت خلف كل هذه الأحداث، وأن لا شىء كان مثلما تخيلته أو تصورته، وأن كل واحد منكم، أنت وتروت وحتى المحامى ريكورسى، قد خدعتمونى وسخرتم منى وأننى كنت مخطئة، فى سذاجة وحمق، فى تقديرى لكل واحد منكم؟ لماذا يا فرنشيسكو؟ قل لى لماذا؟

أنحنى كى أطرح عليه هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الأخرى الكثيرة، وعلى العكس أبقى خرساء، لا أقوى على التلفظ بكلمة واحدة. ولا كلمة واحدة. لا تخرج من فمى كلمة واحدة، لقد تجبس فمى وأنا أنظر إلى هذا الرجل ذى القسمات التى لا تزال قاسية، ورأسه تغوص فى الوسادة، الرجل الذى أتى حتى هنا، من مكان سحيق زمنياً، على الرغم من قربه جغرافياً، كى يتمم آخر عمل مؤثر وصادق يمكن أن يكون

قد تبقى له، وهو أن يجعلنى أرى ضعفه أخيراً، حرص على رؤيتى مجدداً، غير أنه ينبغى أن أقول بالأحرى إنه حرص على أن أراه أنا، كى أفهم، فى نهاية المطاف، ما هى طبيعة الرباط الذى كان يجمعنا.

وحتى أدرك أن ما أشعر به من أسف لا يمكن أن يكون مجرداً من تآنيب الضمير ومن الإحراج ومن الغضب.

لا أعتقد أن قبلا فورستا سيتوفى هذه الليلة، أو صباح الغد، وربما ليس بعد أسبوع أو بعد شهر، ولكنه هنا فى هذه الأثناء، فى بيتى، بجانبى، هنا حيث لم أرغب فى وجوده.

عندئذ لا أقول شيئاً على الإطلاق، وأدرك أننى لا أريد أن ألوم أو أعاتب، ولا أن أتهم أحداً بشيء. أمكث بجانبه، أنظر إليه وهو نائم وأحياناً ينتفض كالطفل الذى يحلم بكوابيس، إلى أن أتمكن من التحكم فى تعبى. وبمجرد خروجى من الحجرة، أقول لدينو، الذى يأتى فى مواجهتى وعلى ثغره ابتسامة، إننى ساوى لفراشى وغداً عليه أن يطلب مساعدة الخادمت حتى نرفع الأطباق من على المائدة، ونزيل المفارش، ونعيد الفضيات إلى البنك، ونعيد وضع أغطية الأثاث فى حجرة الصالون. لقد غيرت فكرى، فلن أقيم أى حفل.

يسألنى دينو مندهشاً:

- كيف يكون هذا، كيف لن يُقام الحفل؟

- لن يكون هناك حفل، يا دينو.

- ولكن... الاستعدادات... إننا نجهز لهذا الحفل منذ شهر...  
الموسيقيين و...

- دينو.

- نعم.

- اسمع يا دينو.

أشده من ياقة السترة حتى يميل نحوى وأطبع قبلة خفيفة على  
وجنته.

على شفتي كلمتان أود أن أنطق بهما منذ فترة، وأقولهما له بطريقة  
هامسة:

- أنا أمك.

يبتسم دينو وكأنه يتعامل مع طفل وقح.

- الوقت تأخر، يا سيدتي الكونتيسة. كان يومنا طويلاً. فلنترك  
علاقات القرابة للغد. انهبى إلى فراشك، سيدتي، وأنا سأبقى  
هنا.

أكاد أكرر على مسامعه أنني أمه، غير أن شفتي ترتجفان. أبغى  
الآن استعادة هاتين الكلمتين اللتين سقطتا من جيبي كالعملات  
الصغيرة.

- طابت ليلتك يا دينو.

- طابت ليلتك سيدتي.

بينما أغلق باب حجرة نومي، أسمع صوت صرير إطارات سيارة  
تقف على الحصى أمام المنزل.

لا بد أنه الدكتور سكاوري وقد أتى للكشف على قبلافورستا.

أطفئ النور. الظلام يلف المكان في الخارج.

يكفيني أن أخطو خطوات قليلة واضعة يدي على جبهة الرجل  
المحمومة، الرجل الذي أحبني أكثر من أي مخلوق آخر.

أسأل نفسي، هل لو كنت قد تخيلت مقدار هذا الحب، لكنت قد  
تصرفت بطريقة مختلفة؟ كنت يوماً أعتقد أنني امرأة ذكية أفكارها  
واضحة، وقادرة على الحكم حكماً سليماً على من هم حولي.

كان بإمكانى معرفة كل هذا قبل وقت طويل مضى. كان بوسعي أن  
أكتشف كل هذا عام ١٩٢٨، في تورينو، ثم في باريس، بعد ذلك بأيام،  
لو لم يكن القلق والخوف اللذان تسبب فيهما ذلك الزواج الذي اختاره

والدى قد جعلانى صماء وعمياء، ثم ظهر تروت فى حياتى، فلم أر أى شىء آخر سواه.

حتى الأسيخ التى كانت وسط النار مليئة عن آخرها بفراخ الحَجَل والديوك البرية قد انطفأت، كما انطفأت النيران أيضاً.

كل هذا حدث فى لحظة، فالساحرات لم يحتجن إلى وقت طويل لأداء مهمتهن.

نعم، أحياناً تكون الساحرات سريعيات جداً فى نشاطهن ويتحقق السحر والافتتان فى بضع ثوان، ولكن ولا حتى مائة عام تكفى لفك هذا السحر. آخر صوت أسمعته هو صياح عصفور ليلى، أدرك أنتى أخيراً نسيت اسمه.



## الشكر

أشكر ألبرتو روللو، الذى تابعنى خطوة بخطوة بلطف حلیم وجدارة وعلم غزير. كما أشكر چوڤانا سالڤيا لأنها صدقت فى رواية "أحمر قانى" وقد قرأتها وأعدت قراءتها بعين ناقدة يقظة ولكن بحماس أيضاً، وأصبحت صديقة غالية فى وقت وجيز.

ثم أود أن أشكر من كل قلبى فرانكا دى أجستينو، التى كرسّت أمسيات كثيرة من أجلي وساعدتني على تشذيب وتنقيح مادة الصياغة الأولى التى كانت تفتقر إلى وحدانية الشكل، كما أتاحت لى أن أستمتع بما تتميز به من خصلتين نادرتين هما الذكاء والحساسية المرهفة.

وأخيراً وليس آخراً، أشكر أسرّتى الكبيرة الفريدة من نوعها فقد كانت متضامنة معى، ناقدة، كريمة مشاركة ودائماً حاضرة.



## طباعة تخطيطية سيبيال

ميلانو، سبتمبر ٢٠٠٨

تورينو ١٩٢٨. ترغم أناقة الأرسقراطية وصرامتها فى إقليم بيمونتى امرأة شابة على العيش فى تعاسة بسبب زواجها المدبر. غير أن قدرها يضع فى طريقها الرجل الجذاب الغامض تروت، فىبدو الأمر وكأنها استيقظت من سحر سبى عقلها. كل شىء آخذ فى التغيير فى المجتمع الإيطالى وأيضاً بداخلها، وعلى الرغم من أنها عصرية للغاية بحيث لا تستطيع أن تتكيف فى خنوع وتمضى فى الطريق الذى شقته وانتهجته غيرها من سيدات الأسرة، إلا أنها لا تزال هشة وضعيفة جداً حتى تستطيع أن تعيش تمردها.

لذا تختار أن تنتقل بمفردها إلى سان بياجو؛ وهى أرض زراعية جرداء تمتلكها فى ريف مدينة سيينا. ومن حولها تعصف عاصفة الحرب العالمية الثانية، وسقوط الفاشية. فى النهاية، تتزامن رغبة بلد بأكملها فى النهضة مع التحول التدريجى الذى تشهده المزرعة التى كانت شبه

مهجورة إلى أن تصبح مصنعاً عصرياً لإنتاج النبيذ عالى الجودة. وهنا، يظهر تروت من جديد ظهوراً خاطئاً ولكنه قوى يسبق اختفائه المفاجئ، الغامض وغير المبرر. تدرك البطلة فى معرض حياتها الطويلة أن المسافة التى تفصل بين الواقع والظاهر، بين الصواب والخطأ، بين الحقيقة والكذب يمكنها أن تكون قريبة جداً لدرجة لا يمكن الإحساس بها أو إدراكها.

## المؤلف فى سطور:

### بينديتا تشيبراريو

ولدت بينديتا تشيبراريو فى مدينة فلورنسا عام ١٩٦٢ وقضت فترة طفولتها وصبها فى مدينة تورينو حيث حصلت على ليسانس تاريخ السينما. عاشت طويلاً فى إنجلترا، ولكنها مرتبطة بصفة خاصة بإقليم توسكانا الذى تعيش فيه حالياً.

فازت الكاتبة عام ٢٠٠٨ بجائزة Campiello السادسة والأربعين عن أولى رواياتها "أحمر قانى" التى نشرتها لها دار النشر Feltrinelli فى خريف عام ٢٠٠٧.

فى أوائل عام ٢٠١٠ أصدرت لها أيضاً دار النشر Feltrinelli روايتها الثانية وعنوانها "تحت سماءات لا مبالية"، وقد حصلت بها على جائزة Rapallo Carige فى ٢٠ يونيو ٢٠١٠.

فى ١٨ نوفمبر ٢٠١١ خرجت للنور روايتها الثالثة بعنوان "Lo Scuruso".



## المتريمة فى سطور:

### نرمين وديه

تخرجت فى كلية الألسن عام ١٩٨٨، ثم حصلت على الدكتوراه فى اللغة الإيطالية تخصص الترجمة، من كلية الألسن عام ١٩٩٩.

تعمل حالياً مدرساً بقسم اللغة الإيطالية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

قامت بالاشتراك فى ترجمة كتاب "تاريخ مسلمى صقلية" للكاتب الإيطالى ميكىلى أمارى.

كما قامت بترجمة رواية "ألعاب نارية" للكاتب الإيطالى ميكىلى بريسكو.

التصحيح اللغوي: رفيق الزهار

الإشراف الفني: حسن كامل





"اسمعي . فلنرحل ."

"إلى أين؟"

"لنعد إلى المنزل . سأنتقل للعيش معك . سأعلمك صناعة النيذ ."

قرن من التاريخ . زواج فاشل . عشق في أوروبا . تلال نيذ  
الـ"كيانتي" . العشق الذي أطاح وأتى على سحر وافتتان دام  
حياة بأكملها .